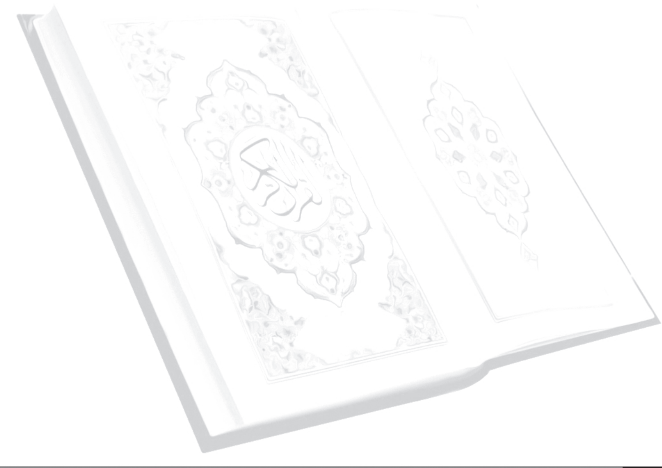
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه



مجلة الدراسات القرآنية

مجلة علمية دورية محكمة





موضوعات العدد السابع

- دلائل نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - في القرآن الكريم.
- غيث القبول همى في معنى (وجعلا له شركاء فيما أتاهما) - تحقيق -
- القواعد الذهبية للعلاقات الزوجية في ضوء القرآن الكريم.
- زيادة حروف المعاني في القرآن الكريم بين دوافع المجيزين ومحظورات المانعين .
- ياء المتكلم عند القراء العشرة (دراسة نحوية).



طبع على نفقة مؤسسة الشيخ عبدالله بن زيد بن غنيم الخيرية

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧
العدد السابع - ذو الحجة ١٤٣١هـ، نوفمبر ٢٠١٠م

ردمد ٣٥١٥-١٦٥٨
ISSN.١٦٥٨-٣٥١٥
رقم الإيداع ١٤٢٨/٢١٩٠


بسم الله الرحمن الرحيم

قواعد وشروط النشر

مجلة الدراسات القرآنية مجلة دورية تصدر عن الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه. وتعنى بالبحوث العلمية، وفق الأمور الآتية:

- أن يكون البحث متسماً بالأصالة وسلامة الاتجاه.
- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
- أن تتحقق له السلامة اللغوية.
- مراعاة علامات الترقيم.
- ألا يكون قد سبق نشره.
- ألا يكون مستلاً من بحث أو رسالة نال بها الباحث درجة علمية.
- توضع حواشي كل صفحة أسفلها على حدة ويكون ترقيم حواشي كل صفحة مستقلاً ، وتضبط الحواشي آليا لا يدوياً .
- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث.
- توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط الملحق في مكانها المناسب.
- ترفق جميع الصور والرسوم المتعلقة بالبحث واضحة جلية.
- ألا تزيد صفحات البحث عن ثمانين صفحة (A٤) ولا تقل عن عشرين صفحة.
- أن يكون خط الأصل (١٨) وخط الهامش (١٤) ، ونوع الخط (Arabic Traditional).
- تكتب الآيات القرآنية وفق المصحف الإلكتروني لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .

- يرفق الباحث ثلاث نسخ مطبوعة، مع ملخص لا يزيد على صفحة واحدة.
- تُحكَّم البحوث والدراسات المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين على الأقل.
- تُعاد البحوث معدلة على قرص حاسوبي.
- لا تعاد البحوث والدراسات إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- للمجلة الحق في نشر البحث على الموقع الإلكتروني للجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه بعد إجازته للنشر.
- أن تكون المراسلات عبر البريد الإلكتروني.
- يُعطى الباحث نسختين من المجلة وخمس مستلات من بحثه.

جميع المراسلات وطلبات الاشتراك باسم
رئيس هيئة التحرير على النحو التالي:

المملكة العربية السعودية - الرياض
ص. ب: ١٧٩٩٩ الرياض: ١١٤٩٤
هاتف وناسوخ ٢٥٨٢٧٠٥
البريد الإلكتروني: quranmag@gmail.com

عنوان الجمعية
ص - ب: ١٧٩٩٩ - الرياض - ١١٤٩٤ هاتف: ٢٥٨٢٦٩٥ - ٢٥٨٢٧٥٣

موقع الجمعية
www.alquran.org.sa

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله الأطهار الأعلام، وأصحابه الأخيار الكرام.

وبعـــــد :

فإن الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه **(تبيان)** يسرُّها أن تقدم مجلتها (مجلة الدراسات القرآنية) للمختصين، والقراء المكرَّمين، في عددها السابع، راجية أن يجد الجميع فيها ما يريدونه من بحوث علمية، ودراسات قرآنية تخصصية تسهم في خدمة المعرفة وأهلها، ولا شك أن المجلة بكتَّابها وقرَّائها بهم تتميز، فهي منهم، وهي لهم.

والمجلة تبذل وسعها للرقي بالمجلة مادة علمية، ومواصفات فنية، وهو ما حققت الكثير فيه، وتسعى للمزيد منه، وتأمل المجلة من الباحثين الاطلاع على شروط المجلة العلمية والفنية، والالتزام بها، حيث لاحظت المجلة من بعض الباحثين الكرام التساهل في ذلك، وهو ما يعيق عمل المجلة ويؤخر الرد على الفاحصين، ويجعل ردَّها غير مرضٍ لهم، وذلك بالاعتذار عن النشر؛ حيث تعتذر المجلة عن نشر ما يمكن تسميته بالمقالات البحثية، أو البحوث المقالية؛ وإنما تعنى المجلة بالبحوث العلمية الملتزمة بالمنهجية البحثية بعد تحكيمها، وصلاحيتها للنشر.

فللباحثين جميعاً، وللفاحصين والقراء المكرَّمين، وللعاملين جزيل الشكر، والدعاء بعظيم الأجر.

والشكر موصول لمعالي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الأستاذ الدكتور/ سليمان أبا الخيل الذي يولي الجمعية، ووليدتها المجلة كلَّ رعاية وعناية، تحت توجيه ودعم كبير من مقام خادم الحرمين الشريفين **الملك/ عبدالله بن عبد العزيز**، وولي عهده الأمين صاحب السمو الملكي **الأمير/ سلطان بن عبد العزيز**، وصاحب السمو الملكي النائب الثاني **الأمير نايف بن عبد العزيز**، وصاحب السمو الملكي **الأمير / سلمان بن عبد العزيز**، أمير منطقة الرياض، رئيس شرف أعضاء الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، على ما يوفرونه من دعم غير محدود للجمعيات والجامعات.

ووفق الله الجميع للحق والهدى وسدد الخطى.

رئيس تحرير المجلة

أ . د / محمد بن عبد الرحمن الشايع

المحتويات

غيث القبول همى في معنى:

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾

تأليف: عبدالغني بن إسماعيل النابلسي

(ت ١١٤٣هـ)

تحقيق ودراسة

د. عبدالرحمن بن ناصر اليوسف

د. عبدالرحمن بن ناصر اليوسف

- أستاذ مشارك بقسم القرآن الكريم وعلومه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- حصل على درجة الماجستير فى القرآن وعلومه من جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بأطروحته (تفسير محمد بن اسحاق من أول سورة يونس إلى آخر القرآن الكريم- جمعاً ودراسة)
- حصل على درجة الدكتوراه فى القرآن وعلومه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (أنوار الحقائق الربانية فى تفسير اللطائف القرآنية لمحمود الأصفهانى من أول سورة النساء إلى آخر سورة المائدة - دراسة وتحقيق)

المقدمـة

الحمد لله خالق البرايا، وعالم الخفايا، جزيل العطايا، ورافع البلايا، أحمده تعالى حمداً كثيراً طيباً، وأشكره شكراً جزيلاً دائماً، وأصلي وأسلم على من بعث للخلق داعياً، وإلى الجنة هادياً، نبينا محمد – ﷺ –، وعلى آله الأزكياء، وصحبه الأوفياء، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ ما دامت الأرض والسماء.

وبعد:

فإن من نعم الله العظمى، ومننه الكبرى، أن يصرف المرء همته ووقته في تحصيل علم الكتاب الكريم، وإدراك معناه، وتدبر آياته، والوقوف على لطائفه، واستخراج دقائقه، ودفع مشكله.

وإذا كان ذلك كذلك، فإن كتاب الله المحكم، قد بلغ الغاية في الفصاحة والإتقان، لا تناقض فيه ولا اختلال، فما أُبهم من المعاني، أو أشكل من المباني، أو غمض منهما؛ فإنما يعود لنظر الناظر في آي الكتاب، وما انقدح عليه فهمه، ومن آتاه الله صحيح الفهم، وسعة العلم، ودقة النظر، وعميق التدبر؛ انزاحت عنه الإشكالات، وانكشفت له المبهمات، وتجلت له المرادات.

لذا كان النبي – ﷺ – مقصد الصحابة فيما أشكل عليهم فهمه، أو خفي عليهم علمه، ونجد من الصحابة من كان مرجعية في بيان المشكلات المتنوعة، وحل عقد ما التبس على الأذهان، أو رسخ في الجنان.

ثم إنه بِبُعد الناس عن عصر النبوة والخلافة الراشدة دهوراً وأجيالاً متعاقبة؛ لا غرو أن تزيد عندهم المشكلات، ويخفت علمهم عن إدراك تأويلها، أو التوفيق بين نصوصها.

ولا يخفى ما بذله علماء التفسير الأوائل والأواخر، من مزيد عنايةٍ بهذا الجانب، فسطروا في الضبائر[1] المعاني، وجمعوا الأقوال، وحشدوا الأدلة، وحصروا الإيرادات، وبسطوا المناقشات، واجتهدوا في البيان والتعريف، وضم النظير إلى النظير، والمواءمة بين المفاهيم، والتوجيه والترجيح، كل ذلك بقدر الطاقة والمستيسر؛ فالعقول متباينة، والفهوم مختلفة، ولكلٍّ وجهة هو مولِّيها.

وتبعاً لذلك، فإن مما وقع فيه الاشتجار بين المفسرين والمعربين، وأطالوا النَّفَس فيه بمداد من الحبر مديد؛ ما جرى من تأويلهم لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾[2].

والتي هي من المعضلات نظماً وتفسيراً، وفيها يقول الألوسي (ت١٢٧٠هـ): «وهذه الآية عندي من المشكلات، وللعلماء فيها كلام

(١) الضبائر: الحزمة من الصحف، ضم بعضها إلى بعض. انظر: لسان العرب ٤/ ٤٧٩ (ضبر).

(٢) الأعراف: ١٨٩ – ١٩٠.

طويل، ونزاع عريض»[1].

وكان قد استوقفني في تفسير هذه الآية، والغوص في أعماق معانيها، وكشف مبهم ضمائرها، ما كتبه الشيخ عبدالغني بن إسماعيل النابلسي (ت:١١٤٣هـ) في رسالةٍ مخطوطةٍ، بعنوان: (**غيث القبول همى في معنى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾**) وبعد الاطلاع عليها، ألفيتها رسالة قيمة في تصنيفها، حوت مادة علمية غزيرة، ومصادر متنوعة، وجمعاً للأقوال، وعرضاً للقراءات، ومشاركة مؤلفها بأوجهٍ من الاعتراضات الحسنة، وكشفه ما استبان له من معناها في نهاية المطاف.

من أجل ذلك استعنت بالله سائلاً عونه وتوفيقه ورضاه، وعقدت العزم على تحقيق هذه الرسالة المؤمئ إليها؛ خدمة للعلم وأهله الميامين، والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يمنَّ عليَّ بالتوفيق والتسديد، إنه نعم المولى، ونعم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) روح المعاني ٩/ ٣٩، وكذا أشار محمد رشيد رضا (ت:١٣٥٤) إلى أن هذه الآية مما وقع فيه الإشكال بين المفسرين. انظر: تفسير القرآن الحكيم ٩/ ٤٣١.

أما خطة عملي في التحقيق، فتتألف من قسمين:

القسم الأول: الدراسة، وتحتها فصلان:

الفصل الأول: التعريف بالمؤلف، وتحته سبعة مباحث:

المبحث الأول: اسم المؤلف، ونسبه، ومولده.

المبحث الثاني: نشأته العلمية، وأبرز شيوخه.

المبحث الثالث: تلاميذه.

المبحث الرابع: مؤلفاته.

المبحث الخامس: مكانته العلمية، والثناء عليه.

المبحث السادس: مذهبه الفقهي، وعقيدته.

المبحث السابع: وفاته.

الفصل الثاني: دراسة الكتاب، وتحته ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اسم الكتاب.

المبحث الثاني: نسبته إلى المؤلف.

المبحث الثالث: وصف النسخة الخطية.

القسم الثاني: التحقيق: ويتضمن النص المحقق، وقد كان عملي فيه على النحو الآتي:

١ – نسخ المخطوط حسب القواعد الإملائية.

٢ – عزو الآيات إلى مواضعها من القرآن الكريم، بذكر اسم السورة، ورقم الآية.

٣ – توثيق القراءات مع بيان المتواتر منها والشاذ.

٤ – تخريج الأحاديث والآثار الواردة، مع ذكر أقوال المحدثين في الحكم عليه ما أمكن.

٥ – توثيق أقوال المفسرين.

٦ – الترجمة للأعلام الذين ورد ذكرهم عدا المشاهير.

٧ – الضبط بالشكل لما يحتاج إليه.

٨ – التعليق على ما يحتاج إليه من المسائل العقدية والتفسيرية.

القسم الأول

الدراســـــة

الفصل الأول
التعريف بالمؤلف

وتحته سبعة مباحث:

المبحث الأول: اسم المؤلف، ونسبه، ومولده.

المبحث الثاني: نشأته العلمية، وأبرز شيوخه.

المبحث الثالث: تلاميذه.

المبحث الرابع: مؤلفاته.

المبحث الخامس: مكانته العلمية، والثناء عليه.

المبحث السادس: مذهبه الفقهي، وعقيدته.

المبحث السابع: وفاته.

المبحث الأول: اسم المؤلف، ونسبه، ومولده

هو عبدالغني بن إسماعيل بن عبدالغني بن إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم النابلسي، الحنفي، الدمشقي، الصالحي(١).

ولد في خامس ذي الحجة، سنة خمسين وألف (١٠٥٠)(٢) من الهجرة النبوية الزكية الشريفة.

المبحث الثاني: نشأته العلمية، وأبرز شيوخه

بدأ عبدالغني النابلسي طلبه للعلم في وقتٍ مبكرٍ على يد والده إسماعيل، حيث شغله بقراءة القرآن، ثم بطلب العلم، وحضر دروس والده في التفسير، ودخل في عموم إجازته.

وقد توفي والده في سنة اثنين وستين وألف، فنشأ يتيماً موفقاً، واشتغل بقراءة العلم على جلة من المشايخ:

فقرأ الفقه وأصوله على الشيخ أحمد القلعي الحنفي.

وقرأ الحديث ومصطلحه على الشيخ عبدالباقي الحنبلي.

وأخذ التفسير والنحو على الشيخ محمد المحاسني.

وقرأ النحو والمعاني والبيان والصرف على الشيخ محمد الكردي.

وقرأ على الشيخ محمد بن أحمد الأسطواني.

وحضر دروس النجم الغزي، ودخل في عموم إجازته.

---

(١) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٠، وعجائب الآثار ١/ ٢٦٣، وهدية العارفين ٥/ ٥٩٠.

(٢) انظر: المصادر السابقة.

وقد ابتدأ في قراءة الدروس وإلقائها والتصنيف لما بلغ عشرين عاماً، فألقى دروساً في عدة فنونٍ بكرة النهار، وبعد العصر، فأقرأ الأربعين النووية، والأذكار النووية وغيرهما، وكان يُدَرِّسُ البيضاوي في صالحية دمشق بالسَّلَمية[1][2].

وعلى ضوء ما سبق سوقه من اطلاعه وقراءته لكتبٍ مختلفة الفنون، وحضوره الدروس، ونيله الإجازات، ما يدل على أنه قد جمع علماً غزيراً في علوم كثيرة، ومعارف متنوعة في: التفسير، والفقه، والأصول، والنحو، والمعاني، والبيان، والصرف.

وهذا يدل دلالة بينة على بذله في سبيل العلم، واستفراغ وسعه في طلبه بعزيمةٍ صادقةٍ، وصبرٍ عريضٍ.

المبحث الثالث: تلاميذه

لم تسعفني كتب التراجم بذكر تلامذته في مكانٍ واحدٍ، فاجتهدت في استقصائهم من خلال التراجم التي تنص على تلقيهم العلم من الشيخ عبدالغني النابلسي، ومن أشهر من وقفت عليه من تلاميذه:

١ - الشيخ الإمام، المحدِّث البارع الزاهد، محمد بن أحمد بن سالم، أبو عبدالله السفاريني النابلسي الحنبلي، قرأ على الشيخ عبدالغني النابلسي

---

(١) سَلَمْيَة: بفتح أوله وثانيه، بُليدة من أعمال حماة. انظر: معجم البلدان ٣/ ٢٧٢.

(٢) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٠.

الأربعين النووية، وثلاثيات البخاري[1].

٢ – الإمام الأديب، الماهر المتفنن، علي بن تاج الدين محمد بن عبدالمحسن بن محمد بن سالم القلعي الحنفي المكي، اجتمع بالشيخ عبدالغني النابلسي، فأخذ عنه[2].

٣ – الفقيه المحدِّث الفهَّامة: السيد علي بن موسى بن مصطفى الحسيني المقدسي، يعرف بـ (ابن النقيب): كان قد وصل الشام، وحضر دروس الشيخ عبدالغني النابلسي[3].

المبحث الرابع: مؤلفاته

إن مما يبقى من ذكر العالم بعد وفاته إضافة لتلاميذه، ما يظل شاهداً له من المؤلفات النافعة، والرسائل الجامعة.

وقد كان النابلسي ممن غزر إنتاجه، وتدفقت كتاباته في فنونٍ متنوعةٍ، وموضوعاتٍ متعددةٍ، فألف في التفسير، والقراءات، والتجويد، والحديث وتخريجه، والفقه، والعقائد، والشعر.

وقد بلغت مؤلفاته بعد إحصائها ما يقرب من (٢٢٣) مؤلفاً[4].

وهذه جملة من مؤلفاته حسب ترتيب موضوعاتها:

---

(١) انظر: عجائب الآثار ١/ ٦٣٨ – ٦٣٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٣٥٢ – ٣٥٣.

(٣) انظر: المصدر السابق ١/ ٥٨٢ – ٥٨٣.

(٤) انظر: حاشية (١) من كتاب الأعلام ٤/ ٣٣.

أولاً: مؤلفاته في التفسير:

١ – غيث القبول همي في معنى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾[١]، وهو الكتاب الذي جرى تحقيقه بحمد الله وتوفيقه.

٢ – التحرير الحاوي بشرح تفسير البيضاوي. وصل فيه إلى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ٩٨] في ثلاث مجلدات، وشرع في الرابع[٢].

٣ – رفع الكساء عن عبارة البيضاوي في سورة النساء[٣].

٤ – جمع الإشكال ومنع الإشكال عن عبارة تفسير البغوي[٤].

ثانياً: مؤلفاته في القراءات والتجويد:

١ – القول العاصم في قراءة حفص عن عاصم. وهو نظم على قافية القاف، وشرح هذا النظم[٥].

٢ – الاقتصاد في النطق بالضاد[٦].

٣ – صرف العنان إلى قراءة حفص بن سليمان[٧].

٤ – كفاية المستفيد في علم التجويد[٨].

---

(١) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٤، وهدية العارفين ٥/ ٥٩٣.

(٢) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٢، وهدية العارفين ٥/ ٥٩١، والأعلام ٤/ ٣٤.

(٣) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٤، وهدية العارفين ٥/ ٥٩٢.

(٤) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٤.

(٥) انظر: المصدر السابق ٣/ ٣٣، وهدية العارفين ٥/ ٥٩٣.

(٦) انظر: الأعلام ٤/ ٣٣.

(٧) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٣، وهدية العارفين ٥/ ٥٩٢، ومعجم المؤلفين ٢/ ١٧٧.

(٨) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٤، والأعلام ٤/ ٣٤.

ثالثاً: مؤلفاته في الحديث وتخريجه:

١ – كنز الحق المبين في أحاديث سيد المرسلين(١).

٢ – رسالة في سؤالٍ عن حديثٍ نبوي(٢).

٣ – ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الأحاديث(٣).

٤ – توريث المواريث في الدلالة على موضع الأحاديث في أطراف الكتب السبعة(٤).

رابعاً: مؤلفاته في الفقه:

١ – القلائد الفرائد في موائد الفوائد. في فقه الحنفية على ترتيب أبواب الفقه(٥).

٢ – ربع الإفادات في ربع العبادات(٦).

٣ – سرعة الانتباه لمسألة الاشتباه. في فقه الحنفية(٧).

٤ – تحفة الراكع الساجد في جواز الاعتكاف في فناء المساجد(٨).

٥ – نهاية المراد شرح هدية ابن العماد. في فقه الحنفية(٩).

---

(١) انظر: الأعلام ٤/ ٣٣.

(٢) انظر: هدية العارفين ٥/ ٥٩٤.

(٣) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٢، والأعلام ٤/ ٣٢، والكتاب مطبوع.

(٤) انظر: هدية العارفين ٥/ ٥٩١.

(٥) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٤.

(٦) انظر: المصدر السابق، وعجائب الآثار ١/ ٢٦٤.

(٧) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٥.

(٨) انظر: المصدر السابق، وهدية العارفين ٥/ ٥٩١.

(٩) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٥، وهدية العارفين ٥/ ٥٩٤، والكتاب مطبوع.

خامساً: مؤلفاته في العقائد:

١ – جواهر النصوص في حل كلمات الفصوص لابن عربي[١].

٢ – مفتاح المعية شرح الرسالة النقشبندية[٢].

٣ – تحقيق الانتصار في اتفاق الأشعري والماتريدي على الاختيار[٣].

٤ – رد الحجج الداحضة على عصبة الغي الرافضة[٤].

سادساً: مؤلفاته في الشعر:

١ – ديوان الغزليات، المسمى: خمرة بابل وغناء البلابل[٥].

٢ – الروض المعطار بروائق الأشعار[٦].

وله من المؤلفات: تعطير الأنام في تعبير المنام[٧]، والحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز[٨].

(١) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٢، والأعلام ٤/ ٣٤، ومعجم المؤلفين ٢/ ١٧٧.

(٢) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٣، والكتاب مطبوع باسم: (مفتاح المعية في دستور الطريقة النقشبندية).

(٣) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٣، وهدية العارفين ٥/ ٥٩١.

(٤) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٦.

(٥) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٤، والأعلام ٤/ ٣٤، ومعجم المؤلفين ٢/ ١٧٦.

(٦) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٦، وهدية العارفين ٥/ ٥٩٢.

(٧) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٣، والأعلام ٤/ ٣٢، والكتاب مطبوع.

(٨) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٤، وهو مطبوع بتحقيق: رياض عبدالحميد مراد، نشر: دار المعرفة.

المبحث الخامس: مكانته العلمية، والثناء عليه

تبوَّأ النابلسي مكانة علمية عالية، كانت محل تقديرٍ واحترامٍ عند من عاصره، فقد أثنى عليه من ترجم له، ونوَّه بمؤلفاته، وغزير علمه، وهذه شذرة من أقوالهم:

يقول ابن شاشو (ت:١١٢٨هـ) في الثناء عليه: «آية إعجاز البيان... إذا جلس مجلس التحقيق، أظهر كل غويصٍ عميقٍ بأفصح لسان... وله في كل فنٍّ تأليف كادت أن لا يدركها الحصر، وتصانيف لم يبلغ حدها أحد من أهل العصر...»(١).

ونعته المرادي (ت:١٢٠٦هـ) بقوله: «أستاذ الأساتذة، وجبهذ الجهابذة .... الهمام الفريد، العالم العلاَّمة، الحجة الفهامة، البحر الكبير، الحبر الشهير ... صاحب المصنفات التي اشتهرت شرقاً وغرباً.... كان عالماً مالكاً أزمَّة البراعة، فقيهاً متبحراً، يدرس الفقه ويقرره، والتفسير ويحرره، غوَّاصاً على المسائل، خبيراً بكيفية الاستدلال والدلائل... مصون اللسان عن اللغو والشتائم، لا يخوض فيما لا يعنيه، ولا يحقد على أحدٍ. يحب الصالحين، والفقراء، وطلبة العلم، ويكرمهم ويجلهم، ويبذل جاهه بالشفاعات الحسنة لولاة الأمور، فتقبل ولا ترد، معرضاً عن النظر إلى الشهوات، لا لذَّة له إلا في نشر العلم وكتابته، رحب الصدر، كثير السخاء... شعره ينشد في المحافل، ويحفظه الناس، وسار مسير الشمس في

(١) تراجم بعض أعيان دمشق (ص ٦٧).

كل بلدةٍ، وتطرزت به المجاميع من الآداب، فاقتصرت من بحر ترجمته على هذه القطرة، ومن كنز مآثره ومناقبه على هذه الشذرة»[١].

وقال عنه الجبرتي (ت:١٢٣٧هـ): «الإمام الكبير، والأستاذ الشهير، صاحب الأسرار والأنوار، وأحواله شهيرة، وأوصافه ومناقبه مفردة بالتأليف»[٢].

وفيه يقول الزركلي (ت:١٣٩٦هـ): «شاعر، عالم بالدين والأدب، مكثر من التصنيف»[٣].

وذكر عمر كحَّالة أنه: «عالم، أديب، ناثر، ناظم، تولى الإفتاء، مشارك في أنواع من العلوم»[٤].

---

(١) سلك الدرر ٣/ ٣٠، ٣٧.

(٢) عجائب الآثار ١/ ٢٦٣.

(٣) الأعلام ٤/ ٣٢.

(٤) معجم المؤلفين ٢/ ١٧٦.

المبحث السادس: مذهبه الفقهي وعقيدته

١ – مذهبه الفقهي:

ينتسب النابلسي للمذهب الحنفي،كما نص على ذلك من ترجم له[1]، وقد ألف عدة مؤلفاتٍ في الفقه على المذهب الحنفي، كما تقدم في مسرد مؤلفاته[2].

٢ – عقيدته:

عند النظر في العصر الذي عاش فيه المؤلف، نلحظ أنه انتشرت فيه الكثير من البدع، والطرائق المنحرفة، والأفكار الدخيلة على دين الإسلام، وتغلغلت فيه بضاعة التصوف، ومخالفة نهج السلف الصالح رضوان الله عليهم.

فنجد الفكر الإلحادي في تقريرات ابن عربي (ت:٦٣٨هـ)، وعظائم الأقوال والاعتقاد في الحلول والزندقة عند العفيف التلمساني (ت:٦٩٠هـ)، والفكر الفلسفي عند ابن سبعين (ت:٦٦٩هـ). وكان قد اغتر بأفكارهم ولوثاتهم طائفة من أهل العلم في شتى البلدان الإسلامية في الأعصار المتأخرة.

وكان ممن تأثر بالطرق الصوفية – مع جلالة قدره، وعظيم علمه – عبدالغني النابلسي، الذي أخذ الطريقة النقشبندية عن الشيخ سعد

---

(١) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٠، وعجائب الآثار ١/ ٢٦٣، وهدية العارفين ٥/ ٥٩٠، ومعجم المؤلفين ٢/ ١٧٦.

(٢) انظر (ص ١١).

البخلي[١]، واستقى الطريقة القادرية عن الشيخ محمد بن أحمد الأسطواني[٢].

وقد أدمن النابلسي المطالعة في كتب ابن عربي، والعفيف التلمساني، وابن سبعين، وشرح كلمات الفصوص لابن عربي[٣]، وصنف في تراجم رجال الطريقة كتابه: «زهر الحديقة في تراجم رجال الطريقة»[٤]، وألف في الدفاع عن الصوفية كتابه: «جمع الأسرار في منع الأشرار عن الظن في الصوفية الأخيار»[٥].

كما ألف في التصوف: «مفتاح المعية شرح الرسالة النقشبندية»[٦]، و«الأنوار الإلهية شرح المقدمة السنوسية»[٧]، وغيرها من مصنفات هذا المسلك، مما يُدلل على أنه كان متشبعاً بطريقة الصوفية البدعية التي بلغت أوجها في عصره[٨].

كما أن المؤلف النابلسي سار على منهج الأشاعرة المعتمدة على الاستدلال العقلي، والبرهان المنطقي، وكان للمذهب الأشعري شوكة عظيمة في مصر والشام آنذاك، ولا يخلو من تلبَّس بالصوفية من هذه العقيدة المخالفة التي

(١) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣١.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: المصدر السابق ٣/ ٣٢، وهدية العارفين ٥/ ٥٩٢.

(٥) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٤.

(٦) انظر: المصدر السابق ٣/ ٣٣، وهدية العارفين ٥/ ٥٩٤.

(٧) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٥.

(٨) في تحقيقي لمؤلفه: (غيث القبول همى...) لم يظهر أثر ذلك التصوف على كتابته التفسيرية.

جنحت إلى تأويل الأسماء والصفات - نسأل الله السلامة والعافية -.

وقد ألف كتابه: «تحقيق الانتصار في اتفاق الأشعري والماتريدي على الاختيار»(١)، و«التوفيق الحلي بين الأشعري والحنبلي»(٢). وقد وقفت على مثالٍ يوضح سلوكه مسلك الأشعرية عند قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ قال: «أي: أمر ربك»(٣)، وفي ذلك مخالفة صريحة لمنهج أهل السنة والجماعة في آيات الصفات، والتي يجرونها على ظاهرها على الوجه اللائق بذي العرش المجيد، جل في علاه، وتعالى عن مشابهة العباد.

المبحث السابع: وفاته

بعد رحلةٍ علميةٍ مديدةٍ، وحياةٍ حافلةٍ بالدرس، والتحصيل، والتأليف، توفي النابلسي - رحمه الله -.

وكانت وفاته في دمشق الشام، سنة ثلاثٍ وأربعين ومئةٍ وألفٍ، عن ثلاثٍ وتسعين سنة(٤).

---

(١) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٣، وهدية العارفين ٥/ ٥٩١.

(٢) انظر: هدية العارفين ٥/ ٥٩١.

(٣) انظر: التعليق (ص ٢٨) حاشية (٢).

(٤) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٧، وعجائب الآثار ١/ ٢٦٧، وهدية العارفين ٥/ ٥٩٠، والأعلام ٤/ ٣٢، ومعجم المؤلفين ٢/ ١٧٦.

الفصل الثاني
دراسة الكتاب

وتحته ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اسم الكتاب.

المبحث الثاني: نسبته إلى المؤلف.

المبحث الثالث: وصف النسخة الخطية.

المبحث الأول: اسم الكتاب

اسم الكتاب: (**غيث القبول همى في معنى**: ﴿**جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا**﴾ وقد نص المؤلف على ذلك في مقدمته، حيث قال: «وسميت ما حررته، على حسب ما قررته: (غيث القبول همى في معنى: ﴿**جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا**﴾»[1]. وقد كتب اسمه كاملاً بهذا العنوان على غلاف المخطوط، ونص على ذلك من ترجم للمؤلف[2]، كما ذكرته الكتب التي عُنيت بفهرسة المخطوطات، وسرد المؤلفات، ونسبتها إلى أصحابها[3].

المبحث الثاني: نسبته إلى المؤلف

نسب الكتاب إلى المؤلف من ترجم له، وعلى ذلك اتفقت المصادر في نسبة الكتاب لعبدالغني النابلسي.

كما أن ذكر الكتاب منسوباً للنابلسي في كشافات وفهارس المخطوطات المختلفة، يُعد أكبر الشواهد وأصدقها على ذلك، فلا نزاع في نسبتها إليه.

---

(١) ص ٣ (خ).

(٢) انظر: سلك الدرر ٣/ ٣٤، وهدية العارفين ٥/ ٥٩٣.

(٣) انظر: الفهرس الشامل ٢/ ٧٥٦، وفهرست مصنفات تفسير القرآن الكريم ٢/ ١٠١٣.

المبحث الثالث: وصف النسخة الخطية

للكتاب نسخة خطية وحيدة مصورة على الميكروفيلم في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ضمن مجموع [١ - ٢١أ]، برقم: (٣٥١٧/ ف)، مشتراة من رضوان دعبول، رقم: (١٩)، قائمة (٣٩ - ٤٠).

وهي نسخة تامة، تقع في إحدى وعشرين ورقة، والورقة مقسومة إلى صفحتين، في كل صفحة خمسة عشر سطراً. وهي مكتوبة بخط نسخ واضح.

وقد فرغ المؤلف من تأليفه نهار الخميس، الثامن من شهر شعبان، سنة ثلاثين ومئةٍ وألفٍ (١١٣٠هـ).

القسم الثاني

النص المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ألهم من الخير، ودفع من كل سوءٍ وشرٍّ وضيرٍ، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه، والتابعين، السائرين على الملة المحمدية أكمل سيرٍ.

فيقول العبد الفقير إلى مولاه الخبير، عبدالغني بن النابلسي، أتحفه الله تعالى بالجناب الأُنسي في المقام القدسي[1]: جرى عندنا بين الطلبة الأفاضل، ذوي الفضائل والفواضل، الكلام على معنى قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ

---

(١) المقصود: انبساط القلب، وانشغاله بالله تعالى؛ فيحصل له الأُنس به.

انظر: الرسالة القشيرية (ص ٦٠)، ومعجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني (ص ٦٣)، وموسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي (ص ١٠٢).

﴿نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ۝١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝١٩٨﴾[1]. هـذه الآيـات البينـات، والاعتبـارات المتعينـات. فتكلموا في الإشكال المشهور بين الجمهور في نسبة الشرك بحسب الظاهر إلى آدم وحواء - عليهما السلام - وهو ممتنع؛ لعصمة الأنبياء - عليهم السلام - من الشرك والمعاصي إجماعاً[2].

---

(١) الأعراف: ١٨٩ - ١٩٨.

(٢) حكاية المؤلف الإجماع على عصمة الأنبياء - عليهم السلام - من المعاصي يحتاج إلى تفصيلٍ، فالمعاصي تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الكبائر: وقد ذكر غير واحدٍ الإجماع على عصمة الأنبياء - عليهم السلام - من ارتكاب الكبائر. انظر: الشفا ٢/ ٢١٥، والمسودة ١/ ٢١٠، وبيان المختصر ١/ ٤٧٧، وإرشاد الفحول ١/ ١٥٩، وتنزيه الأنبياء (ص ١٨٢).

القسم الثاني: الصغائر: وقد ذهب أكثر علماء الإسلام إلى جواز صدور الصغائر غير المنفرة من الأنبياء - عليهم السلام - مع تنبيه الله تعالى عليها، وتوبتهم منها. انظر: المستصفى ٣/ ٤٥١، والإحكام ١/ ١٧١، وشرح المنهاج ٢/ ٤٩٨، ومقدمة المفسرين (ص ٤٢٦).

يقول ابن قتيبة الدينوري: «يستوحش كثير من الناس من أن يلحقوا بالأنبياء ذنوباً، ويحمله التنزيه لهم - صلوات الله عليهم - على مخالفة كتاب الله - جل ذكره - واستكراه التأويل، وعلى أن يلتمسوا لألفاظه المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة...». تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠٢).

وقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن «القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر: هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل هو لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول...». مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤/ ٣١٩.

وعليه فحكاية الإجماع التي ساقها المؤلف في عصمة الأنبياء من المعاصي ليست على إطلاقها، وتفصيلها ما ذكر آنفاً. وللاستزادة ينظر: عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - للأستاذ =

وأوردوا عبارة القاضي البيضاوي[1] وغيرها، فظهر التكلف على كل تقديرٍ، واضطر الأمر إلى ذلك بالتقرير والتحرير، فشرعت في البيان، وبالله المستعان، وعليه التكلان، وهو حسبي ونعم الوكيل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وسميت ما حررته على حسب ما قررته:

(غيث القبول همى[2] في معنى ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾).

قال العلاَّمة القاضي البيضاوي في تفسيره[3]: «﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ**﴾: هو آدم[4] – عليه السلام – ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا**﴾: من جسدها من ضِلَعٍ من أضلاعها[5]، أو من جنسها[6] كقوله تعالى: ﴿**جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ**

= الدكتور: يوسف السعيد في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العدد ٢٨) (ص ٣٧).

(١) هو ناصر الدين، أبو الخير، عبيدالله بن عمر بن محمد البيضاوي – نسبة إلى بيضاء إحدى مدن فارس – المفسر، الأصولي، الفقيه، ولي القضاء بشيراز مدة من الزمن، له مصنفات كثيرة منها: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» في التفسير، و«منهاج الوصول إلى علم الأصول» في أصول الفقه، و«الغاية القصوى في دراية الفتوى» في الفقه، توفي سنة خمسٍ وثمانين وست مئة.
انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٧/ ٢٠٦، وطبقات الشافعية لابن قاضي شُهبة ٢/ ٤٦٩، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ٢٤٨.

(٢) همى: بمعنى: انصب وسال. انظر: لسان العرب ٥/ ٣٦٤ (همي).

(٣) يعني: أنوار التنزيل وأسرار التأويل.

(٤) انظر: جامع البيان ١٠/ ٦١٧، والكشف ٤/ ٣١٤، والكشاف ٢/ ٥٤٠.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٠/ ٦١٧، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٦٣١، كلاهما عن قتادة. وانظر: الكشاف ٢/ ٥٤٠.

(٦) انظر: الكشاف ٢/ ٥٤٠، وزاد المسير ٢/ ٧٧.

﴿أَزْوَٰجًا﴾[١]، ﴿زَوْجَهَا﴾: حواء[٢]، ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: ليأنس بها، ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جزئه، أو جنسه، وإنما ذُكِّر الضمير ذهاباً إلى المعنى ليناسب ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: جامعها[٣]، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾: خف عليها ولم تلق منه ما تلقى منه الحواملُ غالباً من الأذى، أو محمولاً خفيفاً وهو النطفة[٤]، ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: فاستمرت به، وقامت وقعدت، وقرئ (فَمَرَتْ)[٥] بالتخفيف، و«فاسْتَمَرَّتْ»[٦]، و«فمَارَتْ»[٧] من المور وهو

---

(١) الشورى: ١١.

(٢) انظر: جامع البيان ١٠/ ٦١٧، والكشف ٤/ ٣١٤، والكشاف ٢/ ٥٤٠.

(٣) انظر: الكشاف ٢/ ٥٤٠، وأمالي ابن الحاجب ٢/ ٨٥٨، وحاشية زاده ٤/ ٣٤٢، وفتح الجليل (ص٤٦٧) (خ)، وعناية القاضي ٤/ ٢٤٤.

(٤) انظر: جامع البيان ١٠/ ٦١٨، والكشاف ٢/ ٥٤١.

(٥) وهي قراءة شاذة، قرأ بها ابن عباس، وأبو العالية، ويحيى بن يعمر. انظر: مختصر في شواذ القرآن (ص ٥٣)، والمحتسب ١/ ٢٦٩، وإعراب القراءات الشواذ ١/ ٥٧٩، وشواذ القراءات (ص ٢٠٠)، والبحر المحيط ٤/ ٤٣٧.

(٦) وهي قراءة شاذة، قرأ بها ابن عباس، وسعد بن أبي وقاص، والضحاك. انظر: المصادر السابقة.

(٧) وهي قراءة شاذة، قرأ بها عبدالله بن عمرو بن العاص، وابن أبي عمار، والجحدري. انظر: المصادر السابقة.

وقد جمع الديواني هذه القراءات الثلاث الشواذ في منظومته الموسومة: بـ «طوالع النجوم في موافق الرسوم في القراءات الشاذة على المشهور» (ص ١٥٧) فقال:

يَحْيَى بنُ يَعْمُرٍ فمَرَّتْ خَفَّفَا ... حِمْلاً بِكَسْرِ الحَاءِ حَمَّادُ اكْتَفَي

وفاسْتَمَرَّت نَجْلُ عَبَّاسٍ زَبَرْ ... وَقُلْ فَمَارَتْ مَدُّهُ لابْنِ عُمَرْ

المجيء والذهاب، أو من المرية أي: فظنت الحمل وارتابت به[(1)]، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾: صارت ذات ثقلٍ بكبر الولد في بطنها[(2)]، وقرئ على البناء للمفعول أي: أثقلها الحمل[(3)]، ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾: ولداً سوياً قد صلح بدنه[(4)]، ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: لك على هذه النعمة المجددة.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: جعل أولادهُما له شركاء فيما آتى أولادَهما، فسموه عبدالعزى وعبد مناف على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[(5)].

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يعني: الأصنام[(6)].

---

(1) انظر: جامع البيان ١٠/ ٦١٨، والهداية ٤/ ٢٦٧٠، والكشاف ٢/ ٥٤١.

(2) انظر: معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٣٩.

(3) قرئ (أُثْقِلَتْ) مبنياً للمفعول، وهي قراءة شاذة غير منسوبة. انظر: البحر المحيط ٤/ ٤٣٧، والدر المصون ٥/ ٥٣٥.

(4) انظر: التصاريف (ص ١٢٧)، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة (ص ١٧٦)، وتفسير المشكل (ص٥٠)، وجامع البيان ١٠/ ٦١٨، والكشاف ٢/ ٥٤١، وحاشية زاده ٤/ ٣٤٤.

(5) هذا التوجيه لدفع توهم الشرك عن آدم وحواء، فحذف المضاف (أولاد)، وأقيم المضاف إليه (ألف الاثنين) مقامه، وهذا من الإيجاز البلاغي. انظر: الكشف ٤/ ٣١٦، والمصابيح ١/ ٤٩٢، والكشاف ٢/ ٥٤١، وكشف المشكلات ١/ ٤٨٧، والتفسير الكبير ٥/ ٤٢٨، والكتاب الفريد ٣/ ١٧٥، والتسهيل ٢/ ٥٧، والدر المصون ٥/ ٥٣٤، وفتح الرحمن (ص ٣٠١)، وحاشية القونوي ٨/ ٥٧١.

(6) انظر: معاني القرآن للنحاس ٣/ ١١٦، والكشف ٤/ ٣١٦، والوسيط ٢/ ٤٣٥، وتفسير القرآن للسمعاني ٢/ ٢٤٠، والجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤١٤، وتفسير ابن عرفة ٢/ ٢٧٣.

وقيل: لما حملت حواء أتاها إبليس في صورة رجلٍ، فقال: ما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب؟ وما يدريك من أين يخرج؟ فخافت من ذلك وذكرته لآدم فهمَّا منه، ثم عاد إليها وقال: إني من الله بمنزلةٍ، فإن دعوتُ الله أن يجعله خلقاً مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبدالحارث، وكان اسمه حارثاً في الملائكة، فتقبلت، فلما ولدت سمياه عبدالحارث[1].

وأمثال ذلك لا تليق بالأنبياء – عليهم السلام –[2].

ويحتمل أن يكون الخطاب لآل قصي[3] من قريشٍ، فإنهم خلقوا من نفسِ قصي، وكان لها زوج من جنسها عربية قرشية[4]، وطلبا من الله الولد فأعطاهما أربعة بنين فسمياهم: عبد مناف، وعبدشمس، وعبد قصي،

---

(١) هذا الأثر من رواية الكلبي، فلا يحتج به. انظر: الكشف ٤/ ٣١٥، وتفسير القرآن لابن أبي زمنين ٢/ ١٥٨، والجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤١٠.

(٢) بعد سياق ابن جماعة لهذا القول، تعقبه بقوله: «ورتبة آدم ونبوته أجلّ من نسبة ذلك إليه» غرر التبيان (ص٢٦٦).

(٣) قُصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي. هو الأب الخامس في سلسلة النسب النبوي الشريف، واسمه: زيد، وسمي قُصياً؛ لبعده عن عشيرته، ودار قومه، وكان سيد قريشٍ في عصره، موصوفاً بالدهاء والذكاء، ودُعي مُجمِّعاً؛ لأنه جمع قبائل قريشٍ إلى الحرم، وكانوا متفرقين في كنانة. انظر: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٥٤، والروض الأنف ١/ ٤٧، والجوهرة ١/ ٥٦، والأعلام ٥/ ١٩٨.

(٤) أطبقت كلمة المؤرخين أن زوج قصي بن كلاب وأم الأولاد الأربعة المذكورين من خُزاعة، وليست قرشية، وهي: حُبَّى بنت حُلَيْل بن حُبْشيَّة بن سلول بن كعب بن عمرو من خُزاعة. انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٤٢، والطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٥٦، ونسب قريش (ص ١٤)، وتاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٥٥، والجوهرة ١/ ٥٨.

وعبدالدار، ويكون الضمير في ﴿يُشْرِكُونَ﴾ لهما، ولأعقابهما المقتدين بهما[1].

وقرأ نافع[2]، وأبو بكر[3]: (شِرْكاً)[4] أي: شركة بأن أشركا فيه غيره،

---

(١) هذا الوجه من التأويل، والمخصوص بـ (**آل قصي**) من قريش، غير مرضيٍ لأمورٍ منها:

١ – ما تقدم من أن حُبَّى بنت حُلَيْل لم تكن قرشية، بل هي بنت سيد مكة من خُزاعة.

٢ – أن هذا يصح في حواء؛ لأنها خلقت من ضِلَعِ آدم، ولا يصح في زوجة قصي.

٣ –أن حصر دلالة الآية بـ (**آل قصي**) من قريش، وتخصيصها بهم، لا دليل يعضده من خبرٍ أو أثرٍ.

٤ – أنه يلزم منه نسبة الشرك لكل نسل قصي، والواقع وقوعه من بعضهم لا كلهم.

٥ – أنه لم ينقل عن السلف هذا المعنى في بطون كتب التفسير – التي وقفت عليها – ولم يسر فيمن بعدهم، وإنما استحسنه الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٤٣ بقوله: «وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه» قال ابن عرفة: «وكلام الزمخشري هنا حسن» تفسير ابن عرفة ٢/ ٢٧٢. وأورده الفخر الرازي في التفسير الكبير ٥/ ٤٢٨ ضمن الأوجه الصحيحة في تفسير الآية، وارتضاه في كتابه: عصمة الأنبياء (ص٥٤). وينظر: درج الدرر المنسوب للجرجاني ٢/ ٨٢٠، وغرر التبيان (ص ٢٦٦)، وصلة الجمع ١/ ٥٠٤، وبهذا يتبين أن هذا القول التفسيري ليس له حظ من النظر حتى يصح حمل الآية عليه. والله أعلم. انظر: تفسير القرآن للسخاوي ١/ ٣٠٧، والتسهيل ٢/ ٥٦، وفتوح الغيب ٩٢٧/ أ، وعناية القاضي ٤/ ٢٤٥، وروح المعاني ٩/ ١٤١، وتفسير القرآن الحكيم ٩/ ٤٣١، والأثر العقدي ١/ ١٥٩، ١٧٦.

(٢) هو نافع بن عبدالرحمن بن أبي نُعيم الليثي، مولاهم، أبو رُويم المقرئ المدني، أحد القراء السبعة، وإمام الناس في القراءة، صدوق ثبت، مات سنة تسعٍ وستين ومئة. انظر: معرفة القراء الكبار ١/ ١٠٧، وغاية النهاية ٢/ ٣٣٠.

(٣) هو شعبة بن عياش بن سالم، أبو بكر الحنَّاط الأسدي النهشلي الكوفي، إمام حجة، كثير العلم والعمل، عرض القرآن على عاصم ثلاث مرات، وكان خيِّراً فاضلاً، سريعاً إلى السنة، توفي سنة ثلاثٍ وتسعين ومئة. انظر: معرفة القراء الكبار ١/ ١٣٤، وغاية النهاية ١/ ٣٢٥.

(٤) انظر: اختلاف قراءات أهل الأمصار المعروف بـ (السبعة) (ص ٢٩٩)، والتيسير (ص١١٥)، والنشر ٢/ ٢٧٣.

أو ذوي شرك وهم الشركاء[1]، و﴿هُم﴾ ضمير الأصنام جيء به على تسميتهم إياها آلهة[2]»[3] إلى آخر ما ذكره في تفسير هذه الآيات التي ذكرناها بعد ذلك.

فهي ثلاثة أوجه:

أما الوجه الأول: فهو على تقدير مضافٍ في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا﴾ أي: جعل أولادهما، أي: أولاد آدم وحواء، له - تعالى - شركاءَ، فالشرك في أولاد آدم - عليه السلام - وهو تكلف في تقدير مضافٍ محذوفٍ في الكلام[4]، وإن كان جائزاً في العربية وهو صحيح فيقدر المضاف، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[5] أي: أمر ربك[6]، ﴿وَسْـَٔلِ

(١) انظر توجيه القراءة في: الحجة لأبي علي الفارسي ٢/ ٢٨٣، وحجة القراءات لابن زنجلة (ص٣٠٤)، والنكت في القرآن ١/ ٢٦٤، والموضح ٢/ ٥٦٨، وتوجيه مشكل القراءات (ص٢٤٥).

(٢) قوله: «جيء به» جواب عما يقال: إنما يعبر بلفظ (هم) عن العقلاء، ولا يجمع بالواو والنون إلا العقلاء، فكيفي قيل في حق الأصنام: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؟ فأجاب: بأن ذلك مبني على اعتقاد الكفار فيها ما يعتقدونه في العقلاء، فبين أنه جاء على زعمهم. انظر: تفسير ابن عرفة ٢/ ٢٧٣، وحاشية زاده ٤/ ٣٤٦، وعناية القاضي ٤/ ٢٤٥، وروح المعاني ٩/ ١٤٢.

(٣) أنوار التنزيل ١/ ٣٧٠ – ٣٧١.

(٤) انظر تضعيف هذا القول في: عناية القاضي ٤/ ٢٤٤، وروح المعاني ٩/ ١٣٩.

(٥) الفجر: ٢٢.

(٦) مذهب أهل السنة والجماعة إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ، من الأسماء والصفات، على الوجه اللائق به سبحانه، من غير تمثيلٍ، ولا تكييفٍ، ولا تحريفٍ، ولا تعطيلٍ. ومجيئه سبحانه من صفاته الفعلية، وهومجيء حقيقي يليق بجلاله وعظمته، ولا يجوز تأويل =

﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾[1] أي: أهل القرية، ﴿وَٱلْعِيرَ﴾[2] أي: أهل العير، ويسمى مجاز الحذف[3].

قال في مغني ابن هشام[4]: «حذف الاسم المضاف: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[5]، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم﴾[6]، أي: أمره؛ لاستحالة الحقيقي[7]، ومن ذلك ما

= المجيء بمجيء أمره، كما يفعله نفاة الصفات، حيث عطلوا صفة المجيء لله تعالى، وأولوا معناها بالباطل. انظر: عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص ١٩٢)، وشرح العقيدة الواسطيةلابن عثيمين (ص ٢٣٥).

(١) يوسف: ٨٢.

(٢) يوسف: ٨٢.

(٣) انظر: نهاية الإيجاز (ص ١٠١)، وبديع القرآن (ص ١٧٩)، ومقدمة تفسير ابن النقيب (ص ١٥٤).

(٤) هو عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام، جمال الدين الحنبلي، أبو محمد، نحوي فاضل، وعالم مشهور، من تصانيفه: «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب»، و«قطر الندى»، و«أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك»، توفي بمصر سنة إحدى وستين وسبع مئة. انظر: الدرر الكامنة ٢/ ٣٠٨، وبغية الوعاة ٢/ ٦٨.

(٥) الفجر: ٢٢.

(٦) النحل: ٢٦.

(٧) تقدم الرد على هذه المسألة في التعليقة رقم (٢)، وفيما يتعلق بآية سورة النحل: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم﴾، فهذه ليست من آيات صفة الإتيان كما أجمع عليه أهل السنة والجماعة. يقول ابن القيم: «والإتيان والمجيء من الله سبحانه نوعان: مطلق ومقيد، فإذا كان مجيء رحمته أو عذابه كان مقيداً... النوع الثاني: المجيء والإتيان المطلق، كقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾[الفجر: ٢٢]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[البقرة: ٢١٠]، فهذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه... ومن المجيء المقيد قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾[النحل: ٢٢]، فلما قيده =

نُسب فيه حكم شرعيٍّ إلى ذاتٍ؛ لأن الطلب لا يتعلق إلا بأفعال، نحو: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾[١]، أي: استمتاعهن، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾[٢]، أي: أكلها »[٣] انتهى.

وليس هذا من حذف الفاعل ونائبه، قال في مغني ابن هشام: « لا يحذف الفاعل ولا نائبهُ »[٤]، وردَّ على ابن مالك[٥] في أفعال الاستثناء، نحو: « قاموا ليس زيداً »، و« لا يكون زيداً »: إن مرفوعَهُنَّ محذوفٌ، وأطال في ذلك[٦].

= بالمفعول وهو البنيان، وبالمجرور وهو القواعد، دل ذلك على مجيء ما يبينه، إذ من المعلوم أن الله سبحانه إذا جاء بنفسه لا يجيء من أساس الحيطان وأسفلها » مختصر الصواعق المرسلة (ص ١١١٩). إذن فالمقصود: هو إتيان أمره وحكمه إياهم، بالعقوبة، والنكال، والعذاب. يقول السعدي: « ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها » تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٠١). وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٦/ ١٤.

(١) النساء: ٢٣.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ٦/ ٤٠٧ –٤٠٨، وانظر كلاماً نفيساً لابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة (ص ٨٤٩)، عندما ذكر أن أكثر ما يُدعى فيه الحذف لا يحتاج فيه إليه، ولا على صحة دعواه دليل سوى الدعوة المجردة، ثم ساق الأمثلة على ذلك.

(٤) مغني اللبيب ٦/ ٣٣٦.

(٥) هو: محمد بن عبدالله بن عبدالله بن مالك، جمال الدين الشافعي، أبو عبدالله، إمام القراءات وعللها، وإليه المنتهى في العربية وعلومها، وكان صادق اللهجة، كثير النوافل، حسن السمت، من أشهر مؤلفاته: « الألفية »، و« الكافية الشافية » و« عدة الحافظ وعمدة اللافظ »، توفي بدمشق سنة اثنتين وسبعين وست مئة. انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٦٧، والبلغة (ص ٢٦٩)، وبغية الوعاة ١/ ١٣٠.

(٦) انظر: مغني اللبيب ٦/ ٢٦٣ وما بعدها.

وإذا كان الكلام على حذف مضاف، فالفاعل لم يحذف بحسب الإعراب، ويكون جعل أولادهما الشركاء متأخراً عن زمان آدم وحواء بكثيرٍ من النبيين، فإن عبادة الأصنام في زمن نوحٍ - عليه السلام - وبعده، وذلك بعد موتهما، ولا علم لهما بذلك[1].

وأما الوجه الثاني: من الإسرائيليات منقول عن اليهود المنتقصين للأنبياء والملائكة - عليهم السلام - فإن مجيء إبليس في صورة رجلٍ إنما كان أول الزمان، حين أُهبط آدم وحواء من الجنة؛ لأن هذا أول حملٍ حملته حواء من آدم، وقد ولدت منه أربعين بطناً. وقيل: مئة وعشرون بطناً كما سنذكره[2]، ومن جملتهم شِيث[3] النبي - عليه السلام -.

وذكر ابن قتيبة الدينوري الكاتب[4] في كتابه: «العوارف»[5]: «قال

(١) انظر: حاشية زاده ٤/ ٣٤٤، وعناية القاضي ٤/ ٢٤٤.

(٢) انظر التعليق عليه (ص ٣٥).

(٣) معنى شِيث: هبة الله. وسبب تسميتهما له بذلك؛ لأنهما رزقاه بعد أن قُتل هابيل، ويقال: إن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة، عهد الأمر بعده لابنه شيث، وكان نبياً، وإليه أنساب جميع بني آدم؛ لأن سائرهم انقرضت أنسابهم وبادت في الطوفان. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٢، والمعارف (ص ٢٠)، وتاريخ الأمم والملوك ١/ ١٥٢، والتعريف والإعلام (ص ٩٦)، والتكملة والإتمام (ص ٦٦).

(٤) هو: عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري – نسبة إلى دينور التي ولي القضاء فيها – أبو محمد، من أئمة اللغة والأدب، ومن المصنفين المكثرين، كان ثقة ديناً فاضلاً، متفنناً في العلوم، من مصنفاته: «مشكل القرآن»، و«المعارف»، و«أدب الكاتب» وغيرها، توفي سنة ستٍّ وسبعين ومئتين. انظر: طبقات النحويين (ص ١٨٣)، ونزهة الألباء (ص ١٨٥)، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٦.

(٥) العنونة الصحيحة للكتاب الشهيرة: «المعارف»، وهو ما «يكاد يكون إجماعاً بين المؤرخين لابن =

وهب بن منبه[١]: وكان شيث بن آدم، أجملَ ولد آدم، وأشبههم به، وأحبهم إليه، وكان وصيَّ أبيه، ووليّ عهده، وهو الذي ولد البشر كلهم، وإليه انتهت أنساب الناس. وعاش شيث - عليه السلام - تسع مئة واثنتي عشرة[٢] سنة»[٣] انتهى.

قلت: فإذا كان شيث عليه السلام هو الذي ولد البشر كلهم، وإليه انتهت أنساب الناس. فكيف جاء إبليس إلى حواء بصورة رجلٍ؟ وأين الرجال المعروفون يومئذٍ؟ ولعل البهيمة والكلب لم يعرفا يومئذ. وكيف خفي إبليس على آدم وحواء، وهو الذي أخرجهما من الجنة، وعهدهما قريب منه، وتصوره بصورة رجلٍ وهما لا يعرفان الرجال يومئذ؟ هذا بعيد جداً.

ولا شك أنه من انتقاصات اليهود للأنبياء - عليهم السلام -.

وصدق القاضي البيضاوي - رحمه الله تعالى - في قوله: «وأمثال ذلك

= قتيبة والذاكري كتبه أن اسم الكتاب «المعارف» معرَّفاً». مقدمة تحقيق كتاب المعارف للدكتور ثروت عكاشة (ص ٧٢). أما تسميته بـ «العوارف» فقد تعقبها الدكتور ثروت عكاشة في مقدمة تحقيقه (ص٧٥ – ٨٠) فانظرها مشكوراً.

(١) هو وهب بن منبه بن كامل اليماني الصنعاني، أبو عبدالله الأبناويّ، من أبناء فارس، علاَّمة إخباري مؤرخ، ومن فقهاء التابعين باليمن، له علم غزير في الإسرائيليات، وما في صحائف أهل الكتاب، وروايته للمسند قليلة، مات سنة أربع عشرة ومئة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٧٠، وطبقات الفقهاء للشيرازي (ص ٦٦)، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٤.

(٢) في المخطوط: (واثنا عشر)، والصواب ما أثبت؛ وفاقاً للمصدر الذي نقل عنه المؤلف؛ لأن المعدود مؤنث فيكون العدد مؤنثاً تبعاً له في كلا الجزأين.

(٣) المعارف (ص ٢٠).

لا يليق بالأنبياء - عليهم السلام -»[1].

وذكر السهيلي[2] في كتابه: «التعريف والإعلام بما أُبهم في القرآن من الأسماء الأعلام»: قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾[3] الآية، هي حواء، والحمل اسمه: «عبدالحارث».

وروي من طريق قتادة[4]، عن الحسن[5]، عن سَمُرَة[6]، عن النبي

---

(١) أنوار التنزيل ١/ ٣٧١.

(٢) في المخطوط: (السهيل) دون ياء النسبة، والصواب ما أثبته.

والسهيلي: نسبة إلى سُهيل، وهي قرية بالقرب من مالقة، سميت باسم الكوكب؛ لأنه لا يرى في جميع بلاد الأندلس إلا من جبلٍ مطلٍّ عليها. انظر: معجم البلدان ٣/ ٢٣١، ووفيات الأعيان ٣/ ١٤٣.

والسهيلي: هو عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد الخثعمي السهيلي المالكي الضرير، إمام حافظ، كبير القدر في علم العربية والسير، وأشعاره كثيرة، وتصانيفه ممتعة، منها: «التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام»، و«نتائج الفكر»، و«الروض الأنف»، توفي سنة إحدى وثمانين وخمس مئة. انظر: وفيات الأعيان ٣/ ١٤٣، وإنباه الرواة ٢/ ١٦٢، والديباج المذهب ١/ ٤٨٠.

(٣) الأعراف: ١٨٩.

(٤) هو: قتادة بن دعامة السدوسي البصري، أبو الخطاب، من أئمة التفسير، وعلماء الحديث، كان رأساً في العربية، وأيام العرب، وأنسابها، ثقة ثبت، عنده إلى القدر ميل، مات سنة سبع عشرة ومئة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ١٧١، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩، وتقريب التهذيب (ص ٧٩٨)، وغاية النهاية ٢/ ٢٥.

(٥) هو: الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، أحد التابعين الكبار، إمام فقيه، فاضل مشهور، معروف بالزهد والوعظ، وفصاحة اللسان، له كتاب التفسير، رواه عنه جماعة، توفي سنة ست عشرة ومئة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ١١٤، والمعرفة والتاريخ ٢/ ٣٢، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ١٥٠.

(٦) هو: سَمُرَة بن جُندب بن هلال الفَزاري، أبو سليمان، صحابي جليل، ومن القادة الشجعان، =

ﷺ قال: «لما حملت حواءُ طاف بها إبليس لعنه الله تعالى، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سمِّيه عبدالحارث، فسمَّته عبد الحارث، فعاش ذلك، وكان ذلك من وحي الشيطان، وأمره». أخرجه الترمذي[1]، وقال: «هو حسن غريب».

وذكر: أن عمر بن إبراهيم[2] انفرد به عن قتادة، وعمر شيخ بصري[3].

= نزل البصرة، وكان زياد يستخلفه عليها إذا سار إلى الكوفة، وكان شديداً على الخوارج، فكانوا يطعنون عليه، مات سنة ستين. انظر: الاستيعاب ٢/ ٢١٣، وأسد الغابة ٢/ ٤٥٥، والإصابة ٤/ ٤٦٤.

(١) هو: محمد بن عيسى بن سَوْرَة الترمذي الضرير، أبو عيسى، من أئمة علماء الحديث وحفاظه، يضرب بحفظه المثل لمن يتعلم، وكان ورعاً زاهداً، من تصانيفه: «الجامع المختصر...»، و«الشمائل النبوية»، و«العلل»، توفي سنة تسعٍ وسبعين ومئتين. انظر: الأنساب ١/ ٤٨٣، وتهذيب الكمال ٢٦/ ٢٥٠، والتبيان ٢/ ٨٢٣.

(٢) هو: عمر بن إبراهيم العبدي، أبو حفص البصري، روى عن: قتادة، ومطر الوراق، وروى عنه: عبَّاد بن العوام، وعبدالصمد بن عبدالوارث. يروي عن قتادة أشياء لا يوافق عليها، وحديثه عن قتادة خاصة مضطرب، وهو مع ضعفه يكتب حديثه، ولخص حاله الحافظ ابن حجر بقوله: «صدوق في حديثه عن قتادة ضعف». انظر: الكامل لابن عدي ٦/ ٨٦، وتهذيب الكمال ٢١/ ٢٦٩، وتقريب التهذيب (ص ٧١٤).

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في الجامع المختصر...، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف ٥/ ٢٥٠، رقم: ٣٠٧٧، والطبري في جامع البيان ١٠/ ٦٢٣، وأحمد في مسنده ٣٣/ ٣٠٥، رقم: ٢٠١١٧، والحاكم في المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر آدم - عليه السلام - ٢/ ٥٩٤، رقم: ٤٠٠٣، والطبراني في المعجم الكبير ٧/ ٢١٥، رقم: ٦٨٩٥، وابن عدي في الكامل ٦/ ٨٧، والحديث إسناده ضعيف، وقد أعله الحافظ ابن كثيرٍ بعللٍ متعددة حيث قال: «والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سَمُرَة، مرفوعاً. فالله =

= أعلم.
الثاني: أنه قد روي من قول سَمُرَة نفسه، ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير:
حدثنا ابن عبدالأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه، وحدثنا ابن عُليَّة، عن سليمان التيمي – عن أبي العلاء بن الشِّخِّير، عن سمُرة بن جندبٍ قال: «سمى آدم ابنه: عبدالحارث».
الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمُرة مرفوعاً، لما عدل عنه.
ثم ذكر عن ابن جريرٍ بأسانيده من تفسيره جامع البيان، عن عمرو، عن الحسن: «﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، قال: كان هذا في بعض أهل المِلل، ولم يكن بآدم».
وعن معمر قال: قال الحسن: «عَنَى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده. يعني: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾».
وعن قتادة قال: كان الحسن يقول: «هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهوّدوا ونصَّروا».
ثم قال ابن كثير: وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن – رحمه الله – أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل هو ولا غيره عنه، لاسيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن مُنبه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاءالله، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم». تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٥٢٧. وانظر: البداية والنهاية ١/ ٢٢٥.
وقد أنكر هذه الرواية وكذَّبها ابن حزمٍ حيث قال: «وهذا الذي نسبوه إلى آدم عليه السلام من أنه سمى ابنه عبدالحارث خرافة موضوعة مكذوبة، من توليد – وفي نسخة: (تأليف) – من لا دين له، ولا حياء، لم يصح سندها قط...» الفصل ٤/ ١١.
وضعفها ابن العربي بقوله: «وذلك مذكور ونحوه في ضعيف الحديث، في الترمذي وغيره...». أحكام القرآن ٢/ ٣٥٥.
وقال الطوفي: «ولا برهان على ثبوت هذا عن آدم سمعي ولا نظري» الإشارات الإلهية ١/ ٢٥٧. وأورده الذهبي، وذكر تصحيح الحاكم له، ثم قال: «وهو حديث منكر كما ترى» ميزان الاعتدال ٣/ ١٧٩.
كما أنكرها ونقدها ابن القيم حيث قال: «فالنفس الواحدة وزوجها آدم وحواء، واللذان جعلا =

وذكر الطبري[1] عن ابن إسحاق[2] أنه قال: «ولدت حواء أربعين

= له شركاً فيما آتاهما المشركون من أولادهما، ولا يلتفت إلى غير ذلك مما قيل: إن آدم وحواء كان لا يعيش لها ولد، فأتاهما إبليس، فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولد؛ فسمياه عبدالحارث، ففعلا، فإن الله سبحانه اجتباه، وهداه، فلم يكن يشرك به بعد ذلك» روضة المحبين (ص ٣٣٧).

وبعد أن ساق الشنقيطي هذه الرواية؛ تعقبها بقوله: «هذا المعنى جاء عن بعض الصحابة»، وجاء في بعض الأحاديث المرفوعة، وصحح الحاكم بعضها وغيره.

والتحقيق أنها لم يثبت في الحقيقة شيء منها، والأغلب أن من رويت عنه من الصحابة أخذوها عن بعض الإسرائيليين». العذب النمير ٤/ ١٧٧٣.

وقد ضعف الألباني إسناد الحديث في ضعيف سنن الترمذي (ص ٣٧٧)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة ١/ ٥١٦، رقم: ٣٤٢. وانظر: أسباب الخطأ في التفسير ١/ ١٤٣.

(١) في المخطوط: (الطبراني)، وهو خطأ، والصواب: الطبري، كما في التعريف والإعلام الذي نقل عنه المؤلف.

والطبري هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر الطبري، عَلم العصر، من كبار أئمة الاجتهاد، كان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقرآن، فقيهاً في أحكامه، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وكان من أفراد الدهر علماً وذكاءً، وكثرة تصانيف، قل أن ترى العيونُ مثله. من تصانيفه: تفسيره الكبير «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، و«تاريخ الأمم والملوك»، و«اختلاف الفقهاء»، توفي سنة عشر وثلاث مئة. انظر: الفهرست (ص ٣٨٥)، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧، وطبقات المفسرين للداوودي ٢/ ١١٠.

(٢) هو: محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبدمناف بن قُصي، يكنى بأبي بكر، كان من أهل العلم بالمغازي، وأيام العرب، وأخبارهم، وأنسابهم، صاحب السيرة النبوية، من مصنفاته: «المغازي»، و«الفتوح»، و«حرَّاب»، وقد لخص الحافظ ابن حجر تحقيق القول في ابن إسحاقٍ، ووصفه بأنه: صدوق مدلس، وانتهى إلى تحسين حديثه بقوله: «حاله معروفة، وحديثه في درجة الحسن»، توفي سنة خمسين ومئة. انظر: الجرح والتعديل ٧/ ١٩١، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٣٣، وتقريب التهذيب (ص ٨٢٥)، وفتح الباري ١٣/ ٣٦٦، وتاريخ التراث العربي ٢/ ٨٩.

بطناً»[1].

وذُكر عن غيره: أنها ولدت مئة وعشرين بطناً، في كل بطنٍ ذكر وأنثى، آخرهم عبدالمغيث، وأَمَةُ المُغيث[2]»[3] انتهى.

قلت: ومن البعيد أن حواء تسمي ولدها عبدالحارث، وآدم وحواء - عليهما السلام - يعلمان أن إبليس اسمه الحارث، وهو عدوهما، وعداوته قريبة عهدٍ بهما، وإن أجيب عنه بما سنذكره[4].

وكون إبليس طاف بحواء، وكان ذلك وحي الشيطان وأمره، بعيد من عصمة آدم - عليه السلام - من وحي الشيطان وامتثال أمره بالشرك والكفر، ومن حفظ حواء من ذلك، والذي كان منه في حقهما من الوسواس حتى أخرجهما من الجنة كان معصية، لا شركاً بالله تعالى، وكفراً به سبحانه.

وأما الوجه الثالث: فهو بعيد جداً؛ لأن كل أبٍ له ذرية من الأمم الماضية يساوي قصياً وآل قصي، فلا خصوصية له بذلك بهذا النص القرآني، وليس أولى من نوحٍ عليه السلام وذريته الباقين بعد الطوفان؛ ولأن (لـمَّا) بمعنى: حين[5]، والأزمان المتطاولة مانعة من ذلك، وإن أوَّله

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ١/ ١٤٥، وانظر: المعارف (ص ١٨).

(٢) انظر: تاريخ الأمم والملوك ١/ ١٤٥، والبداية والنهاية ١/ ٢٢٤.

(٣) التعريف والإعلام (ص ١١٦).

(٤) انظر: التفسير الكبير ٥/ ٤١٧، وتفسر غرائب القرآن ٣/ ٣٦٠، وحاشية زاده ٤/ ٣٤٥.

(٥) انظر: الأزهية (ص ١٩٧)، ورصف المباني (ص ٢٨٤)، والجنى الداني (ص ٥٩٤)، ومغني اللبيب ٣/ ٤٨٦، والبرهان ٤/ ٣٨٣.

بعضهم كما سنذكره[١].

وقال العلامة أبو البركات النسفي[٢] في كتابه: المدارك[٣] – تفسير القرآن العظيم –: «﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ**﴾ هي: نفس آدم – عليه السلام – ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾: حواء، خلقها من جسد آدم – عليه السلام – من ضِلَعٍ من أضلاعه. ﴿**لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾: ليطمئن إليها، ويميل؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل، خصوصاً إذا كانت بعضاً منه، كما يسكن الإنسان إلى ولده، ويحبه محبة نفسه؛ لكونه بضعة منه.

وذكَّر ﴿**لِيَسْكُنَ**﴾ بعدما أنَّث في قوله: ﴿**وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾، ذهاباً إلى معنى النفس؛ ليبين أن المراد به آدم، ﴿**فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا**﴾: جامعها، ﴿**حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا**﴾: خف عليها ولم تلق منه ما تلقى بعض الحوامل من حملهن من الكرب والأذى، ولم تستثقله كما يستثقلنه[٤] ﴿**فَمَرَّتْ بِهِۦ**﴾: فمضت به

---

(١) انظر: (ص ٣٨).

(٢) هو: عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي – نسبة إلى (نسف) ببلاد السند – حافظ الدين، أبو البركات، فقيه حنفي، أصولي، مفسر، أحد الزهاد المتأخرين، له مصنفات عديدة، منها: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» في التفسير، و«كنز الدقائق» في الفقه، و«المنار» في أصول الفقه، توفي سنة عشر وسبع مئة. انظر: الجواهر المضية ٢/ ٢٩٤، والدرر الكامنة ٢/ ٢٤٥، وطبقات المفسرين للأدنه وي (ص٢٦٣).

(٣) نصَّ المؤلف على اسم كتابه في مقدمة تفسيره، حيث قال: «وسميته: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» مقدمة مدارك التنزيل ١/ ٢.

(٤) كذا في مدارك التنزيل ٢/ ٩٠ الذي نقل عنه المؤلف، ورسمت في المخطوط: (تستثقلهنه) ولا وجه له في هذا السياق؛ لأن هذا الفعل متعدٍ لواحدٍ، فلا يصح أن يليه ضميرا نصبٍ، والله أعلم.

إلى وقت ميلاده من غير إخداجٍ[1] ولا إزلاقٍ[2]، أو حملت حملاً خفيفاً يعني: النطفة ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: فقامت به وقعدت.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾: حان وقت ثقل حملها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾: دعا آدم وحواء ربهما، ومالك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يدعى ويتلجى إليه، فقالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾: لئن وهبت لنا ولداً سوياً قد صلح بدنه[3]، أو ولداً ذكراً[4]؛ لأن الذكورة من الصلاح[5]، ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك.

والضمير في ﴿ءَاتَيْتَنَا﴾ و﴿لَّنَكُونَنَّ﴾: لهما، ولكل من يتناسل من ذريتهما[6].

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾: أعطاهما ما طلباه من الولد الصالح السوي، ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: آتى أولادهما.

دليله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير، وآدم وحواء

---

(١) إخداج: أي: نقصان، وأصل ذلك من خِداج الناقة إذا ولدت ولداً ناقص الخلق، أو لغير تمام. انظر: تهذيب اللغة ٧/ ٤٥ (خدج)، والمحكم ٤/ ٥٤٧، وطلبة الطلبة (ص ٨٤).

(٢) إزلاق: أي: إسقاط، أو إجهاض. انظر: تهذيب اللغة ٨/ ٤٣١ (زلق)، ومقاييس اللغة ٣/ ٢١ (زلق).

(٣) انظر: الكشف ٤/ ٣١٤، والكشاف ٢/ ٥٤١، والبحر المحيط ٤/ ٤٣٧.

(٤) روي عن الحسن أنه قال: «غلاماً ذكراً» الكشف ٤/ ٣١٤، قال الآلوسي معقباً: «وهو خلاف الظاهر» روح المعاني ٩/ ١٣٩.

(٥) انظر: الكشاف ٢/ ٥٤١، والبحر المحيط ٤/ ٤٣٧.

(٦) انظر: الانتصاف المطبوع مع الكشاف ٢/ ٥٤١، والبحر المحيط ٤/ ٤٣٨.

بريئان من الشرك، ومعنى إشراكهم أي: إشراك أولادهما فيما آتاهم الله، تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبدمناف، وعبد شمس، ونحو ذلك، مكان عبدالله، وعبدالرحمن، وعبدالرحيم.

أو يكون الخطاب لقريش، الذين كانوا في عهد رسول الله - ﷺ -، وهم آل قصي، أي: هو الذي خلقكم من نفس قصي، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية؛ ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلا له شركاء فيما آتاهما؛ حيث سميا أولادهما الأربعة: بعبدمناف، وعبدالعزى، وعبدقصي، وعبدالدار.

والضمير في ﴿يُشْرِكُونَ ﴾ لهما، ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك»[١].

وذكر الطِّيبي[٢] في حاشية الكشاف[٣]، قال: «﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ ﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف، روى محيي السنة[٤] هذا

---

(١) مدارك التنزيل ٢/ ٨٩ – ٩٠. وانظر: الكشاف ٢/ ٥٤٠، وأنوار التنزيل ١/ ٣٧٠.

(٢) هو الحسين بن محمد بن عبدالله الطِّيبي، شرف الدين، من المبرزين في علم الحديث، والتفسير، والبيان، وكان كريماً متواضعاً، كثير الحياء، شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة، من مصنفاته: «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب» في التفسير، و«شرح مشكاة المصابيح» في الحديث، و«التبيان في المعاني والبيان» في البلاغة، توفي سنة ثلاثٍ وأربعين وسبع مئة. انظر: الدرر الكامنة ٢/ ٦٦، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ١٤٦، وبغية الوعاة ١/ ٥٢٢، وشذرات الذهب ٨/ ٢٣٩.

(٣) يعني: «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب».

(٤) هو الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي، أبو محمد، شيخ الإسلام، يلقب بمحيي =

القول عن الحسن، وعكرمة[١][٢]، وقال: «فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم، كما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء، فقال: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾[٣]، ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسًا﴾»[٤][٥].

وقال الزجاج[٦]: «والذي عليه التفسير: أن إبليس جاء إلى حواء، فقال: أتدري ما في بطنك؟ فقالت: لا أدري! قال: لعلَّه بهيمة. قال: إن دعوت الله أن يجعله إنساناً، أتسميه باسمي؟ فسمته عبدالحارث، وهو الحارث»[٧].

= السنة، وبركن الدين، كان إماماً في التفسير، والفقه، والحديث، من مصنفاته: «معالم التنزيل» وهو التفسير المشهور بـ(تفسير البغوي)، و«شرح السنة»، و«المصابيح»، وغيرها، توفي سنة ست عشرة وخمس مئة. انظر: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٣٩، وطبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٧٥، وطبقات المفسرين للسيوطي (ص ٣٥).

(١) هو عكرمة بن عبدالله البربري القرشي الهاشمي، أبو عبدالله المدني، مولى عبدالله بن عباس، ثقة ثبت، عالم بالتفسير، لم يثبت تكذيبه، ولا ثبتت عنه بدعة، مات سنة خمس ومئة بالمدينة. انظر: حلية الأولياء ٣/ ٣٧٤، وتقريب التهذيب (ص ٦٨٧)، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ٣٨٦.

(٢) انظر: الكشف ٤/ ٣١٦، والهداية ٤/ ٢٦٧٨، والجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤١١.

(٣) البقرة: ٥١.

(٤) البقرة: ٧٢.

(٥) معالم التنزيل ٣/ ٣١٤، وانظر: العذب النمير ٤/ ١٧٧٣.

(٦) هو إبراهيم بن محمد بن السَّريِّ الزجاج البغدادي، من أكابر علماء العربية، كان يخرط الزجاج، ثم مال إلى النحو، فلزم المبرِّد، وأفاد منه، له تآليف جمة، منها: «معاني القرآن»، و«الاشتقاق»، و«العروض»، توفي سنة إحدى عشرة وثلاث مئة. انظر: طبقات النحويين للزبيدي (ص ١١١)، وإرشاد الأريب ١/ ١٣٠، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٦٠.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٩٥، وانظر تضعيف ابن العربي لها في أحكام القرآن ٢/ ٣٥٥، =

وروى نحوه محيي السنة عن ابن زيدٍ [١][٢].

وروي أيضاً عن عكرمة أنه قال: «خاطب كل واحد من الخلق بقوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أي: خلق كل واحدٍ من أبيه، وجعل من جنسه زوجه» [٣].

قال محيي السنة: «هذا قول حَسنٌ، لولا قول السلف، مثل: عبدالله بن عباس [٤] – رضي الله عنهما – ومجاهد [٥]، وسعيد ابن المسيِّب [٦]،

= والتعليقة في حاشية (٢) (ص ٣٣).

(١) هو عبدالرحمن بن زيد بن أسلم العُمَري المدني، حدث عن: أبيه، وابن المنكدر، وروى عنه: قتيبة، وهشام بن عمار، وآخرون، وكان عبدالرحمن صاحب قرآنٍ وتفسيرٍ، جمع تفسيراً في مجلدٍ، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ، وقد ضعفه الأئمة، توفي سنة اثنتين وثمانين ومئة. انظر: الضعفاء للعقيلي ٢/ ٧٣٨، والجرح والتعديل ٥/ ٢٣٣، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٣٤٩، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ٢٧١.

(٢) معالم التنزيل ٣/ ٣١٣، وقد أخرجه الطبري في جامع البيان ١٠/ ٦٣٢، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٦٣٥، وإسناده ضعيف؛ لأن ابن زيدٍ ضعيف الرواية عند الأئمة بالاتفاق، وانظر: الكشف ٤/ ٣١٦، والهداية ٤/ ٢٦٨٠.

(٣) معالم التنزيل ٣/ ٣١٤، وانظر: معاني القرآن للنحاس ٣/ ١١٦، والكشف ٤/ ٣١٦، والهداية ٤/ ٢٦٧٨، وتفسير القرآن للسمعاني ٢/ ٢٣٩.

(٤) هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس، ابن عم رسول الله ﷺ، حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير، وترجمان القرآن، توفي بالطائف سنة ثمانٍ وستين. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٧٨، وأسد الغابة ٣/ ٢٩٠، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ٢٣٩.

(٥) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، تابعي ثبت، وإمام مفسر، ومقرئ حافظ، أخذ التفسير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ولازمه مدة، وكان موصوفاً بالذكاء، والفهم، وسعة العلم، مات وهو ساجد سنة اثنتين ومئة. انظر: مشاهير علماء الأمصار (ص ١٣٣)، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٨، وغاية النهاية ٢/ ٤١، وطبقات المفسرين للأدنه وي (ص ١١).

(٦) هو سعيد بن المسيِّب بن حَزْن بن أبي وهب القرشي المخزومي، أبو محمد، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه، وأحد الزهاد المتعبدين، كان مقدماً في الفتوى، حتى قيل: إنه فقيه الفقهاء، =

وجماعة من المفسرين، أنه في آدم وحواء»[1].

قلت: ما أقول: إن قول السلف أحسن الأقوال؛ لأنه لا قول غيره، ولا معول إلا عليه؛ لأنه مقتبس من مشكاة النبوة، وحضرة الرسالة، على ما روينا عن الإمام أحمد بن حنبل[2]، والترمذي، عن سَمُرَة بن جندب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لما حملت حواء، فطاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبدالحارث، فسمته، فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان، وأمره»[3].

قال محيي السنة: «لم يكن هذا إشراكاً في العبادة؛ ولا أنَّ[4] الحارث ربُّهما، فإن آدم - عليه السلام - كان نبياً معصوماً من الشرك، ولكن قصد

= وكان من أعبر الناس للرؤيا، توفي سنة أربعٍ وتسعين على الأصح. انظر: الجرح والتعديل ٤/ ٩٥، ومشاهير علماء الأمصار (ص ١٣٣)، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٢١٧.

(١) معالم التنزيل ٣/ ٣١٤، وانظر: جامع البيان ١٠/ ٦٢٤، والكشف ٤/ ٣١٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦، والجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤١٠، والبحر المحيط ٤/ ٤٣٦، ولباب التأويل ٢/ ٢٨١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ١٥٢٨، وروح المعاني ٩/ ١٤٢.

(٢) هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني، أبو عبدالله، إمام أهل السنة والجماعة، وأحد أئمة المذاهب الفقهية، حافظ محدِّث، زاهد ورع، امتحن بفتنة القول بخلق القرآن، فكان فيها معتصماً بالله، حتى أعزَّ الله به السنة، وقمع به البدعة، وفضائله كثيرة، ومناقبه جمَّة، أفردها بالتصنيف الأئمة، من تصانيفه البديعة: «المسند»، و«الزهد»، و«الرد على الجهمية والزنادقة»، توفي سنة إحدى وأربعين ومئتين. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ٢٥٣، وطبقات الفقهاء الحنابلة ١/ ٢٢، ومناقب الإمام أحمد (ص ١٢)، وسير أعلام النبلاء ١١/ ١٧٧.

(٣) تقدم تخريجه، والحكم عليه (ص ٣٣)، وهو ضعيف لا يحتج به، ولا يلتفت إليه.

(٤) في المخطوط: (ولان)، والصواب ما أثبت، كما في معالم التنزيل ٣/ ٣١٤.

إلى أن الحارثَ كان سبب نجاة الولد، وسلامة أمه، وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك، كما أن اسم الرب يطلق على من لا يراد أنه معبود[١].

فعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾: ابتداء كلام وأراد به إشراك أهل مكة، ولئن أراد به ما سبق فمستقيم، حيث كان الأولى بهما أن لا يفعلا [ما أتيا][٢] به من الإشراك في الاسم»[٣][٤].

(١) ينظر في الكشف ٤/ ٣١٦: نسبته إلى أهل المعاني، وانظر: الوسيط ٢/ ٤٣٥، وتفسير القرآن للسمعاني ٢/ ٢٣٩، والتفسير الكبير ٥/ ٤٢٩، والجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤١١، وروح المعاني ٩/ ١٤٢، وهذا التوجيه يبتني على خبرٍ غير صحيحٍ، فلا يحفل به، ولا يلتفت إليه.

(٢) كذا في معالم التنزيل ٣/ ٣١٤، وبثبوتها يستبين المعنى، ويلتئم السياق.

(٣) معالم التنزيل ٣/ ٣١٣ – ٣١٤.

(٤) ذهب جماهير المفسرين إلى أن الآية بحسب ظاهرها في الحديث عن آدم وحواء – عليهما السلام – وما سماه الله تعالى شركاً منهما، جاء مفسراً في رواياتٍ متنوعةٍ، وأخبارٍ متعددةٍ، من تسمية ابنهما: « عبدالحارث »، وهو محمول على شرك التسمية والطاعة، لا شرك النية والعبادة. انظر: تفسير مقاتل ١/ ٤٢٩، ومعاني القرآن للفراء ١/ ٤٠٠، وتأويل مشكل القرآن (ص ٢٥٨)، والإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص ٤٤)، والحجة لابن خالويه (ص ١٦٨)، وجامع البيان ١٠/ ٦٢٩، ومعاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٩٥، والمكتفى (ص ٢٨٢)، ونكت القرآن ١/ ٤٥٨، وتفسير السمرقندي ١/ ٥٨٨، وتفسير كتاب الله للهواري ٢/ ٦٥، والكشف ٤/ ٣١٦، وشرح الهداية (ص ٥٠٧)، وتفسير القرآن للسمعاني ٢/ ٢٤٠، ومعالم التنزيل ٣/ ٣١٤، وأبكار الأفكار ٤/ ١٥٨، والفريد ٣/ ١٧٥، وعناية القاضي ٤/ ٢٤٥، وفتح القدير ٢/ ٢٧٤، وكتاب التوحيد لمحمد بن عبدالوهاب (ص ٢١١)، وتيسير العزيز الحميد (ص ١٠٩٢)، وفتح المجيد (ص ٣٩٥)، وحاشية كتاب التوحيد (ص ٣٣٢).

يقول الطبري في نصرته لهذا القول: « وأولى القولين بالصواب قولُ من قالَ: عنى بقوله: ﴿فَلَمَّآ =

وقلت: يدفع هذا قوله تعالى: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾ فإنه في الأصنام قطعاً، بل القول إنه «ابتداء كلامٍ» وتمام تقريره أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ كلام وارد على النفس الواحدة وزوجها، مُضمن للامتنان عليهما، وطلب الشكر، والتمادي عن الكفران، ولالتزامهما على أنفسهما الشكر على سبيل المبالغة، على ما دل عليه قوله: ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: من زمرتهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ الجملة الشرطية مرتبطة بما قبلها بالفاء، وجملة الكلام مُفرَّع في قالب واحد على سنن قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ﴾[1] أي: شكر رزقكم[2]،﴿أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾[3]، فإن أجري ﴿جَعَلَا لَهُۥ﴾ على غير ما أجري عليه الأول؛ اختل النظام، وفات المقصود من الإيراد[4].

وأما الهرب من إثبات ذلك الشرك لآدم عليه السلام وحواء، فبعيد من البليغ المحيط بأساليب البلاغة، وباب التشديد والتغليظ غير مسدود، وإنما لزم الفساد أن لو حمل على الشرك الحقيقي.

= ﴿ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ في الاسم لا في العبادة، وأن المعنى بذلك آدم وحواء؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك...» جامع البيان ١٠/ ٦٢٩.

(١) الواقعة: ٨٢.

(٢) ينظر هذا المعنى في: معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٢٠، وجامع البيان ٢٢/ ٣٦٨، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٦، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٤، والنكت في القرآن ٢/ ٦٢٠.

(٣) الواقعة: ٨٢.

(٤) انظر: روح المعاني ٩/ ١٤٠.

وأما جمع الضمير في: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإن فاء التسببية التي تستحق أن تسمى بالفاء الفصيحة[(١)] في قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقتضي أن يجري الكلام على مشركي مكة؛ لأنها مع متعلقها المحذوف، كالتخليص[(٢)] من قصة آدم وحواء إلى توبيخ المشركين من تسمية الحجر والخشب بالإلهية[(٣)]، والعكوف على عبادتها، وتصريح اسم الشركاء عليها، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم ابتدأ مبيناً موبخاً: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ إلى آخر الآيات الواردة في الأصنام»[(٤)]، ثم أطال في مناسبة السورة من أولها إلى هذه الآيات، تأييداً للمعنى المذكور آخراً[(٥)].

وقال السعد التفتازاني[(٦)] في حاشية الكشاف بعد ذكر الحديث عن

(١) فاء الفصيحة: هي التي يحذف فيها المعطوف عليه، مع كونه سبباً للمعطوف، من غير تقدير حرف الشرط. وسميت فصيحة؛ لأنها تفصح عن المحذوف، وتفيد بيان سببيته، نحو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [سورة البقرة: ٦٠]، أي: فضرب فانفجرت. انظر: معجم القواعد العربية (ص ٣٥٠).

(٢) التخليص: الانتقال من فنٍّ إلى فنٍّ، أو حسن الخروج من معنى إلى معنى. انظر: البديع لابن المعتز (ص٦٠)، وكتاب الصناعتين (ص ٤١٩)، وبديع القرآن (ص ١٦٧)، ومقدمة تفسير ابن النقيب (ص٢٩٢).

(٣) في فتوح الغيب (ص ٩٢٥) (خ): (بالآلهة).

(٤) فتوح الغيب (ص ٩٢٤) (خ)، وانظر: أبكار الأفكار ٤/ ١٥٩، وروح المعاني ٩/ ١٤٢، والمقتطف ٢/ ٣٠٤.

(٥) انظر: فتوح الغيب (ص ٩٢٤ – ٩٢٥) (خ)، وروح المعاني ٩/ ١٤٠.

(٦) هو مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني – نسبة لبلدة في خراسان – سعد الدين، من أرباب اللغة والبيان والمنطق، تقدَّم ومهر، ونظم الشعر فأجاد، أخذ عن القطب الشيرازي، والقاضي =

سَمُرة بن جندب، قال: «فإن قيل: الإشراك ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ ليس إشراكاً على الحقيقة؛ لأن معناه في حق الأولاد أيضاً تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبدمناف، وعبدشمس، والأعلام لا يقصد بها مفهوماتها الأصلية[1].

والحديث صريح في أن المراد آدم وحواء، وتقدير المضاف لا يصار إليه إلا عند الحاجة، وكلمة (لـمَّا) لا تستقيم على هذا التقدير؛ لأن إشراك أولادهما لم يكن حين آتاهما صالحاً، بل بعده بأزمنةٍ متطاولةٍ[2].

قلنا: إشراكهما بالله ولو بمعنى تسمية الولد بعبدالحارث اتباعاً لأمر الشيطان مرجوح، وإن لم يكن محظوراً، على أنهم لا يخلون الأعلام المضافة عن إيماءٍ إلى المعاني الأصلية، وملاحظة لها، وهذا القدر عند الحاجة كافٍ في تقدير المضاف[3].

والحديث من باب الآحاد، ولم يرد في معرض البيان للكتاب[4]،

= عضدالدين عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالغفار، وكان يقال: إن قلمه أتقن من لسانه؛ ذلك أن في لسانه لُكْنة، صنف في فنونٍ شتى منها: «حاشية على الكشاف» لم يتم، و«شرح تصريف العزّى»، و«شرح العقائد النسفية»، توفي بسمرقند سنة إحدى وتسعين وسبع مئة. انظر: الدرر الكامنة ٤/ ٣٥٠، ودرر العقود ٣/ ٤٧١، وبغية الوعاة ٢/ ٢٨٥، وطبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٣١٩.

(١) انظر: روح المعاني ٩/ ١٤٢.

(٢) انظر: المصدر السابق، وعناية القاضي ٤/ ٢٤٤.

(٣) انظر: عناية القاضي ٤/ ٢٤٥.

(٤) انظر: المصدر السابق، ومراده: حديث سَمُرة بن جندب مرفوعاً، وقد تقدم، وهو حديث =

وليست كلمة (لـمَّا) للزمان المتضايق؛ بل الممتد، فلا يلزم أن يقع مضمون الشرط والجزاء في يومٍ واحدٍ، أو شهرٍ، أو سنةٍ، بل يختلف ذلك باختلاف الأمور[1]، تقول: لما ظهر الإسلام طهَّر البلاد عن دنس الشرك والإلحاد، ولما ركب السلطان قمع آثار الشر والفساد[2]، على أن تسمية الولد بعبدالحارث جعل شريكٍ لا شركاء إلا بتأويلٍ وعدولٍ عن الظاهر[3]، وكذا جعل ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ غير متعلقٍ بهذا الإشراك المذكور، بل تخلصاً إلى حال المشركين، خلاف الظاهر[4].

وذكر في تفسير العُسَيْلي أبي العباس الأندلسي[5]، قال في قوله تعالى:

= ضعيف، لا يحتج به، ولا يثبت به حكم شرعي. ينظر في حكم تفسير القرآن الكريم بالحديث الضعيف: البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٥٦، وفتح القدير ١/ ١٢، والحديث الضعيف وحكم الاحتجاج به (ص٣٠٥)، ومعالم أصول الفقه (ص ١٥٢).

(١) انظر: عناية القاضي ٤/ ٢٤٤.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) استاق هذا الاعتراض على من قال: إن سبب الشرك هو التسمية بـ(عبدالحارث)؛ لورود الحديث في ذلك، والملحظ:

أ – أن التسمية بـ(عبدالحارث) على الإفراد، وقراءة (شُركاءَ) على الجمع؛ وفي ذلك مخالفة ظاهرة لدلالة الجمع.

ب – أنه على فرض توجيههم لذلك من باب إطلاق الجمع وإرادة المفرد، فهو معارض؛ لأنه خلاف الأصل في حمل الألفاظ على دلالتها الموضوعة لها.

(٤) هذه اللفتة النقدية أشار بها أن الانتقال في السياق إلى المشركين عدول عن الظاهر، يقول ابن عطية: «وهذا تحكم لا يساعده اللفظ» المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٧.

(٥) لم أهتد إلى المؤلف وتفسيره بعد طول بحثٍ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: الخطاب لقريش، وهل المراد بالنفس آدم عليه السلام، أو قصي بن كلاب؟

وعبَّر في الأول بـ ﴿خَلَقَ﴾ ، وفي الثاني بـ﴿جَعَلَ﴾؛ لأن الخلق في اللغة: هو التقدير[1]، والأول: متعلق بجمع؛ فناسب الخلق؛ لأنه قدَّرهم على صفاتٍ مختلفة.

والثاني: متعلق بشيءٍ واحدٍ، وهو حواء.

والمراد: إن كان آدم عليه السلام، فالكلام على ظاهره، وإن أُريد قصي بن كلاب، فالمعنى: وجعل من أمثالها زوجها، وحكاية وسوسة الشيطان من الخرائف الباطلة»[2].

وقال في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ «إن قلت: القاعدة أنه إذا تقدم الاسم النكرة وأعيد ذكره؛ فإنما يُعاد معرفاً بالألف واللام[3]، فلم أُعيد هنا نكرة؟

قلت: إنما ذلك إذا كان في كلامٍ واحدٍ، وهو هنا في كلامين لقائلين»[4].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة ٧/ ٢٧ (خلق)، ومفردات ألفاظ القرآن (ص٢٩٦).

(٢) انظر هذا النص المنقول في: تفسير ابن عرفة ٢/ ٢٧١ – ٢٧٢.

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦] قال العكبري: «إنما أعاده بالألف واللام؛ ليعلم أنه الأول، فكأنه قال: فعصاه فرعون» التبيان (ص٢٧٢). وانظر هذه القاعدة في: البرهان ٤/ ٩٤، والإتقان ٤/ ١٢٩٠، والزيادة والإحسان ٨/ ٢٠٠.

(٤) انظر هذا النص المنقول في: تفسير ابن عرفة ٢/ ٢٧٢.

وقال في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ «أي: جعل أولادهما، على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: آتى أولادهما، وقد دلَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فجمع الضمير، وآدم وحواء بريئان» ثم ذكر نحو ما تقدم وأطال في ذلك.

وقال الكَوَاشي[١] في تفسيره[٢]: «﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ بتسميته عبدالحارث، من غير اعتقادٍ لذلك.

في الحديث: «خدعهما إبليس مرتين: مرة في الجنة، ومرة في الأرض»[٣].

أو الضمير في ﴿ءَاتَيْتَنَا﴾، و﴿لَّنَكُونَنَّ﴾ لهما ولأولادهما، وفي ﴿ءَاتَىٰهُمَا﴾، و﴿جَعَلَا﴾ لأولادهما. وفيه حذف مضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، تقديره: فلما آتى أولادهما صالحاً جعل[٤] أولادهما لله شركاء بأن

---

(١) هو أحمد بن يوسف بن حسن الشيباني الموصلي الكَوَاشي -نسبة لقلعة بالموصل- الشافعي موفق الدين، أبو العباس، من المتبحرين في القراءات والتفسير، والفقه، وأحد الزهاد الصالحين، والمجتهدين المتقنين، من مصنفاته: «تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر»، و«تلخيص تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر»، و«كشف الحقائق»، توفي سنة ثمانين وست مئة. انظر: معرفة القراء الكبار ٢/ ٦٨٥، وطبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٤٢، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ١٠٠.

(٢) يعني: «تلخيص تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر».

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٠/ ٦٣٣، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٦٣٥، كلاهما عن ابن زيد مرسلاً، وإسناده ضعيف، فيه عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث بالاتفاق، مع صلاحه وتقواه، وقد أرسل الحديث. انظر: الجرح والتعديل ٥/ ٢٣٣، والمجروحين ٢/ ٢٢، وتقريب التهذيب (ص٥٧٨).

(٤) في المخطوط: (جعلا)، والصواب ما أثبت؛ وفاقاً للمصدر، واستقامة للمعنى لئلا يضطرب.

سمي: عبدشمس، وعبدالعزى، وعبديغوث، وغير ذلك.

وهذا التأويل أوجه، يعضده قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لأن آدم وحواء لم يكونا مشركين بإجماع»[1].

وقال الشيخ الإمام أبو بكر بن علي بن محمد الحداد اليمني الحنفي[2] في تفسيره[3] في: «قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: لما كبر الولد في بطنها، وتحرك، وصارت ذات ثقلٍ بحملها، وشق عليها القيام، أتاها إبليس في صورة رجلٍ، فقال: يا حواء ما هذا في بطنك؟ قالت: ما أدري. قال: إني أخاف أن يكون بهيمة، وذلك أول ما حملت. فقالت ذلك لآدم – عليه السلام – فلم يزالا في همٍّ من ذلك، ثم عاد إبليس إليها فقال: يا حواء أنا من الله بمنزلةٍ، فإن دعوتُ الله ربي فولدتِ إنساناً تسميه بي؟ قالت: نعم. قال إبليس: فإني أدعو الله. وكانت هي وآدم – عليه السلام – يدعوان الله لئن آتينا ولداً حسن الخلق، صحيح الجوارح ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: لك في هذه النعمة ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾: ولداً سوياً صحيحاً، أتاها إبليس فقال

---

(١) تلخيص تبصرة المتذكر ٢/ ٤٩٢ – ٤٩٣.

(٢) هو أبو بكر علي بن محمد الحداد الزبيدي الحنفي اليمني، رضي الدين، برع في أنواعٍ من العلم، واشتهر ذكره، وطار صيته، له زهد، وورع، وعفة، وعبادة، قرأ على والده، وعلى ابن نوح، وعلي بن عمر العلوي، من تصانيفه: «كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل»، في التفسير، و«السراج الوهاج الموضح لكل طالبٍ محتاجٍ» في شرح مختصر القدوري في الفقه، وغيرهما. توفي سنة ثمان مئة. انظر: كشف الظنون ١/ ٤٤٦، ٢/ ١٤٨٨، والعقيق اليماني (ص٧٦) (خ)، والبدر الطالع ١/ ١١٣، وهدية العارفين ٥/ ٢٣٦، والأعلام ٢/ ٦٧.

(٣) يعني: «كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل».

لها: عدتي. قالت: ما اسمك؟ قال: الحارث. ولو سمّى نَفْسَه فقال: «عَزَازِيْل»[١] لعرَفَتْهُ، ولكنه تسمى بغير اسمه. فسمته: عبدالحارث، ورضي آدم - عليه السلام -. فعاش الولد أياماً ثم مات.

وهذا لا يصح[٢]، لأن حواء وإن لم تكن نبياً فهي زوجة نبي، وفي الآية أن الله تعالى قال: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ ومثل هذه القبائح لا يجوز إضافتها إلى الأنبياء؛ ولأن الله تعالى قال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ ولأن الواحد منا لو أتاه من يبعثه على أن يسمي ولده عبد شمس، أو عبدالعزى، أو نحو ذلك، لم يقبل ذلك، ولو أمكنه أن يعاقبه على ذلك فعل[٣]، فكيف يجوز مثل هذا على آدم - عليه السلام -؟ وقد رفع الله قدره بالنبوة.

وقال الحسن[٤] معناه: أن الله خلق حواء من ضِلَعِ آدم وجعلها سكناً له، وكذلك حال الخلق مع أزواجهم، كأنه قال: وجعل من كل نفسٍ زوجها، كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ

(١) في المخطوط: (عزرايل)، والصواب ما أثبت، فقد أخرج ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم (ص١٢٢) (تحقيق: الزهراني)، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤١٨، كلاهما عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «كان اسم إبليس عَزازيل...» قال الدكتور أحمد الزهراني محقق تفسير ابن أبي حاتم (ص١٢٢): «رجال إسناده ثقات لكن عباد بن العوام مع ثقته ففي حديثه لين واضطراب». وانظر: المعارف (ص١٤)، والتعريف والإعلام (ص٥٧)، والإتقان ٥/ ١٩٩٧.

(٢) انظر التعليقة (ص ٣٣) حاشية (٢).

(٣) كرر في المخطوط.

(٤) لم أقف على قول الحسن في مظانه.

أَزْوَٰجًا﴾[1].

قال الحسن: انقضت قصة آدم عند قوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ثم أخبر الله عن بعض خلقه أنه يغشى زوجته، فحملت حملاً خفيفاً فمرت به، فلما أثقلها ما في بطنها دعوا الله ربهما لئن آتينا صالحاً لنشكرنك، فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء بعملهما الذي علَّماه بأن هوَّداه أو نصَّراه أو مجَّساه، أو علَّماه شيئاً من الأديان الخبيثة التي يدعو إليها إبليس[2].

---

(1) الروم: ٢١.

(٢) أخرج الطبري في جامع البيان ١٠/ ٦٢٩، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٦٣٤، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قال: «هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهوَّدوا ونصَّروا»، وقد ساق الحافظ ابن كثير رواية ابن جريرٍ الطبري، وصحح إسنادها في تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٥٢٧، وانظر: نكت القرآن للقصاب ١/ ٤٥٩. وما ذهب إليه الحسن البصري في تفسير الآية – كما صح ذلك عنه – هو توجيه الجبائي المعتزلي في متشابه القرآن (ص٣٠٩)، وتنزيه القرآن عن المطاعن (ص١٤٨)، والشريف المرتضى – أحد الشيعة الإمامية وممن يقول بالاعتزال – في أمالي المرتضى ٤/ ١٣٧.

وهو توجيه جمعٍ من المفسرين، كأبي معشر الطبري في عيون المسائل (ص١١٧)، والمجاشعي في النكت في القرآن ٢/ ٦٥، وابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤١١، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٥٢٧، والبقاعي في نظم الدرر ٣/ ١٦٨، ومحمد رشيد رضا في تفسير القرآن الحكيم ٩/ ٤٣٤، والشنقيطي في أضواء البيان ٢/ ٢٥٤، والعذب النمير ٤/ ١٧٧٣، والألباني في تحشيته لكتاب الإيمان لأبي عبيد (ص٤٤)، وانظر: الأثر العقدي ١/ ١٥٩.

وقد نقد الحافظ ابن كثير القول بنسبة الشرك إلى آدم وحواء – عليهما السلام –، من جهة السند والمتن، ونصر قول الحسن، وأطال النفس في ذلك.

فبعد أن أعلَّ حديث سَمُرَة بن جندب المرفوع، وأشبع القول فيه – كما تقدم (ص ٣٣)، أورد =

ولهذا عظم الله تعالى نفسه في آخر الآية، فقال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، ولو كان المراد بالآية: آدم وحواء، لقال: عما يشركان[1].

يقال: إن حواء كانت تلد في كل بطنٍ ذكراً وأنثى[2].

= ما أوَّله الحسن البصري، وقرره بقوله: «وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية» تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٥٢٧.

ثم ساق عدداً من الآثار المتضمنة نسبة الشرك إلى آدم وحواء - عليهما السلام -، ثم تعقبها ودفعها بقوله: «وهذه الآثار يظهر عليه – والله أعلم – أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صحَّ الحديث عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم». ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام:

فمنها: ما عَلِمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله، أو سنة رسوله.

ومنها: ما علمنا كذبه، بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً.

ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته، بقوله عليه السلام: «وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج». وهو الذي لا يُصدَّق ولا يُكذَّب؛ لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذِّبوهم».

وهذا الأثر هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر، فأما من حدَّث به من صحابي أو تابعي، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري – رحمه الله في هذا – والله أعلم، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته. ولهذا قال الله ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

وذكر تعالى آدم وحواء كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلۡنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾. ومعلوم أن المصابيح – وهي النجوم التي تزيَّنت بها السماء – ليست هي التي يُرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر كثيرة في القرآن، والله أعلم». تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٥٢٨، والأحاديث المشكلة (ص ٦٠٤).

(١) قال ابن قتيبة: «ولو كان أراد آدم وحواء، لقال: عما يشركان، فهذا يدلك على العموم»، تأويل مشكل القرآن (ص ٢٥٩)، وانظر: أبكار الأفكار ٤/ ١٥٧، والجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤١١، والعذب النمير ٤/ ١٧٧٤.

(٢) التثنية في ﴿جَعَلَا﴾؛ لأن حواء - عليها السلام - كانت تلد في كل بطنٍ ذكراً وأنثى، فهذا =

ويقال: ولدت لآدم – عليه السلام – في خمس مئة بطنٍ ألف ولدٍ[1].

وقرئ: (جَعلا لهُ شِركاً) بكسر الشين على المصدر. وكان من حقه أن يقال على هذه القراءة: جعلا لغيره شركاً؛ لأنهما لا ينكران أن الأصل لله.

ويجوز أن يكون معناه: جعلا له ذا شرك، فحذف (ذا) كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي: أهل القرية»[2][3].

وقال البغوي في تفسيره: «قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني: آدم، ﴿وَجَعَلَ﴾: وخلق، ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: ليأنس بها ويأوي إليها، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: واقعها، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾: وهو أول ما تحمل المرأة من النطفة يكون خفيفاً عليها[4]، ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾، أي: استمرت به، وقامت، وقعدت به، ولم يثقلها، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: كبر الولد في بطنها وصارت ذات ثقلٍ بحملها، ودنت ولادتها، ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ يعني: آدم وحواء، ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾: يا ربنا

= النسل الذين هم ذكر وأنثى ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾. انظر: تاريخ الأمم والملوك ١/ ١٤٥، والنكت في القرآن ١/ ٢٦٥، ومجمع البيان ٣/ ٧٨٢، وزاد المسير ٣/ ٢٦، والبداية والنهاية ١/ ٢٢٤.

(١) انظر: عيون أخبار الرضا – عليه السلام – ١/ ١٩٦، ولا يعول على مثل هذه الرواية.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٥٨٨، وفي توجيه القراءة ينظر: علل القراءات ١/ ٢٣٧، والحجة لأبي علي الفارسي ٢/ ٢٨٣، وشرح الهداية (ص٥٠٧)، والموضح ٢/ ٥٦٨، وتوجيه مشكل القراءات (ص٢٤٥).

(٣) كشف التنزيل ٣/ ٢٤٠ – ٢٤١.

(٤) انظر: جامع البيان ١٠/ ٦١٨، والكشف ٤/ ٣١٤.

﴿صَٰلِحًا﴾ أي: بشراً سوياً مثلنا، ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

قال المفسرون: لما حملت حواء أتاها إبليس في صورة رجلٍ، فقال لها: ما الذي في بطنك؟ قالت: ما أدري. قال: إني أخاف أن يكون بهيمة، أو كلباً، أو خنزيراً، وما يدريك من أين يخرج؟ من دبرك فيقتلك، أو من فيك وينشق بطنك، فخافت حواء من ذلك، وذكرته لآدم - عليه السلام - فلم يزالا في همٍّ منه، ثم عاد إليها، فقال: إني من الله بمنزلةٍ، فإن دعوتُ الله أن يجعله خلقاً سوياً مثلك ويسهّل عليك خروجه تسمينه عبدالحارث؟ - وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث - فذكرت ذلك لآدم، فقال: لعله صاحبنا الذي قد علمتِ، فعاودها إبليس، فلم يزل بهما حتى غرَّهما، فلما ولدت سمّياه عبدالحارث[1].

قال الكلبي[2]: «قال إبليس لها: إن دعوتُ الله فولدتِ إنساناً أتسمِّينه

---

(١) انظر: الوسيط ٢/ ٤٣٤، وتفسير القرآن للسمعاني ٢/ ٢٣٩، وزاد المسير ٣/ ٢٠٥، وقد تقدم توهين الحافظ ابن كثير لرواية تسويل إبليس لحواء، وخفي كيده، بتسميته ولدهما: (عبدالحارث)، و(الحارث): اسم إبليس. انظر (ص ٣٣) حاشية (٢).

وعليه: فما تناقله طوائف أهل التأويل، وارتكزوا عليه في حمل معنى الآية على هذه القصة، وجعلها لاصقة بها، لا دليل عليه، وعريض القول فيها لا مستند له، وإذا كان رأس الدَّنِّ دُرْديّاً، فما ظنك بقعره!

(٢) هو محمد بن السائب بن بشر الكلبي، أبو النَّضْر، الإخباري، المفسر، كان رأساً في الأنساب، إلا أنه شيعي متروك الحديث، من مصنفاته: «تفسير الآي الذي نزل في أقوامٍ بأعيانهم»، و«ناسخ القرآن ومنسوخه»، و«الأصنام»، توفي سنة ستٍّ وأربعين ومئة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٣٤١، والفهرست (ص١٥٢)، وتقريب التهذيب (ص٨٤٧)، وطبقات المفسرين للداوودي ٢/ ١٤٩.

بي؟ قالت: نعم، فلما ولدت، قال: سميه بي، قالت: وما اسمك؟ قال: الحارث، ولو سمى لها نفسه لعرفته، فسمته عبدالحارث»[1].

ورُوي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «وكانت حواء تلد لآدم
– عليه السلام – فتسميه عبدالله، وعبيدالله، وعبدالرحمن، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس، فقال: إن سرّكما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبدالحارث، فسمياه فعاش»[2].

وجاء في الحديث: « خدعهما إبليس مرتين: مرة في الجنة، ومرة في الأرض »[3].

وقال ابن زيد: «ولد لآدم – عليه السلام – ولد فسماه عبدالله، فأتاهما إبليس، فقال: ما سميتما ابنكما؟ قالا: عبدالله – وكان قد ولد لهما قبل ذلك ولد فسمياه عبدالله فمات – فقال إبليس: أتظنان أن الله تارك عبده عندكما، لا والله ليذهبن به كما ذهب بالآخر، ولكن أدلكم على اسمٍ يبقى لكما ما بقيتما، فسمَّياه عبد شمس»[4].

---

(١) انظر: الكشف ٤/ ٣١٥، والجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤٠٩، وهذا الأثر لا يحتج به؛ علته: الكلبي؛ متروك الحديث، مع ما في متنه من نكارةٍ.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٠/ ٦٢٤، وهو « حديث منكر ». انظر: الاستيعاب في بيان الأسباب ٢/ ١٧٥.

(٣) تقدم تخريجه والحكم عليه (ص ٤٧).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٠/ ٦٣٢، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٦٣٥، كلاهما عن ابن زيد، وعبدالرحمن بن زيد ضعيف الحديث بالاتفاق، كما تقدم (ص ٣٩) حاشية (٨).

والأول أصح، فذلك قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾: بشراً سوياً ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾: قرأ أهل المدينة[١]، وأبو بكر: «شِرْكاً» بكسر الشين والتنوين، أي: شركة. قال أبو عبيدة[٢]: «أي حظاً ونصيباً»[٣]، وقرأ الآخرون: ﴿شُرَكَآءَ﴾ بضم الشين ممدوداً على جمع شريك، يعني: إبليس، أخبر عن الواحد بلفظ الجمع. أي: جعلا له شريكاً إذ سمياه عبدالحارث[٤]، ولم يكن هذا إشراكاً في العبادة، ولا أن الحارث ربُّهما، فإن آدم كان نبياً معصوماً من الشرك، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه، وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك،

(١) يقصد بمصطلح (أهل المدينة) في عرف أهل القراءات: نافع المدني: أحد القراء السبعة. وأبو جعفر المدني: أحد القراء العشرة، ويقال لهما: «مدني»، و«المدنيان». انظر: التلخيص في القراءات الثمان (ص١٣٠)، وطيبة النشر (ص٣٣)، والبدور الزاهرة (ص١١)، ومعجم المصطلحات (ص٣٣).

(٢) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، مولاهم البصري، النحوي، أحد بحور العلم، من أكثر الناس رواية، ومعرفة بأيام العرب وأخبارها، وكان يبغض العرب، وألف في مثالبها كتباً، وكان يرى رأي الخوارج، صنف: «المجاز في غريب القرآن»، و«الأمثال في غريب الحديث»، و«المثالب»، و«معاني القرآن»، وغير ذلك، مات سنة عشرٍ ومئتين. انظر: المعارف (ص٤٣٤)، وطبقات النحويين للزبيدي (ص١٧٥)، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٤٤٥، وطبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٣٢٦.

(٣) لم أقف عليه في كتابه: «مجاز القرآن»، وانظره في: الكشف والبيان ٤/ ٣١٥.

(٤) انظر القراءتين في: المبسوط (ص١٨٧)، والمستنير ٢/ ١٦٢، والنشر ٢/ ٢٧٣، وتوجيههما في: علل القراءات ١/ ٢٣٧، والحجة لأبي علي الفارسي ٢/ ٢٨٣، وتوجيه مشكل القراءات (ص٢٤٥).

كما يطلق اسم الرب على من لا يراد به أنه معبود هذا، كالرجل إذا نزل به ضيف يُسمِّي نفسه عبدَ الضيف، على وجه الخضوع لا على أن الضيف ربُّه[1]، ويقول للغير: أنا عبدك. وقال يوسف عليه السلام لعزيز مصر: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾[2] لم يرد به أنه معبوده، كذلك هذا»[3][4] انتهى.

قلت: لعل إبليس لم يُرِدْ هذا المعنى بتسميته: عبدالحارث؛ ولهذا قال لهما لما سميا ابنهما الأول «عبدالله» فمات: أتظنان أن الله تارك عبده عندكما، لا والله ليذهبن به كما ذهب بالآخر، ولكن أدلكما على اسمٍ إذا سميتماه به، يبقى لكما ما بقيتما، فسمياه: «عبدشمس»[5].

فإن مراده بالأول: معنى العبودية لله تعالى، فإذا سمياه: «عبدالله»، فإن الله تعالى يذهب بعبده؛ لأنه صاحب عبوديته.

وإذا سمياه: «عبدالحارث» بان تكون عبوديته للحارث لا لله، على معنى الشرك، وهذا أمر لا يليق بالنبيين - عليهم الصلاة والسلام - وهو مستحيل على آدم - عليه السلام - لأنه نبي معصوم.

والظاهر أن هذه الأخبار من الإسرائيليات المنقولة عن اليهود، وإن جُعل لها أسانيد، وجعلت أحاديث، أدخلها الوضَّاعون والقُصَّاص في جملة

---

(١) نسبه الثعلبي في الكشف والبيان ٤/ ٣١٦ لأهل المعاني، وكذا القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٤١١. وهذه القولة معضودة بخبر منكرٍ، فلا يؤبه بها، ولا يلتفت إليها.

(٢) يوسف: ٢٣.

(٣) انظر: الوسيط ٢/ ٤٣٥، وتفسير القرآن للسمعاني ٢/ ٢٣٩.

(٤) معالم التنزيل ٣/ ٣١١ - ٣١٤.

(٥) يشير لرواية ابن زيدٍ المتقدمة (ص ٥٣).

الأخبار النبوية، وأسندوها إلى الصحابة - رضي الله عنهم -.

فإن الوضَّاعين الكذابين أدخلوا في الدين دسائس كثيرة، ووساوس شهيرة، لا تخفى على أولي البصيرة، وقد دخلت على بعض المفسرين فظنوها أحاديث صحيحة، وأسانيد ساندة، فجعلوها في تفاسيرهم، والله أعلم بحقائق الأمور.

وسبب ذكرها: سلامة صدور العلماء الصالحين، وثقتهم بكل ناقلٍ عن سيد المرسلين[١].

والحاصل: أن لمصنف هذه الرسالة، وجهاً وجيهاً، وقولاً قوياً نزيهاً، تحمل فيه الآية بسهولةٍ على المعنى الصحيح، والتأويل الصريح، لا تحامل فيه، ولا يأباه النبيل النبيه، وليس فيه تكلف، ولا في حمل الآية عليه أدنى تعسفٍ، وذلك أنَّا نقول - والله ألهم للصواب، والهادي إلى الحق من غير ارتياب -: إن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ المراد: خلق البشر كلهم من نفس آدم - عليه السلام - كما ذكره المفسرون ورجحوه[٢]،

---

(١) انظر: أصناف الوضاعين، وأسباب الوضع في كتاب: الموضوعات لابن الجوزي ١/ ١٨، وما سطره الدكتور محمد أبو شهبة في أسباب الضعف، والوضع في التفسير بالمأثور (ص٨٦)، وما قيَّده الدكتور محمد حسين الذهبي في: التفسير والمفسرون ١/ ١٦٠، والإسرائيليات في التفسير والحديث (ص٢٩)، وللاستزادة في هذا الموضوع المتعلق بالأحاديث الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات في التفسير. ينظر: أسباب الخطأ في التفسير ١/ ١٢٤، ١٨٧.

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦، والجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤٠٨، وقد ورد عن عكرمة أنه لم يخص بها آدم، ولكن جعلها عامةً لجميع الخلق بعد آدم. انظر (ص٣٩). وتفسيرها بالعموم على أن المراد بالنفس الواحدة: الجنس والشكل، والهيئة، هو اختيار ابن العربي في أحكام القرآن =

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ أي: من تلك النفس الواحدة والتي هي آدم – عليه السلام –، زوجها كما قدماه، ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليأنس بها في وحشة الدنيا، ومفارقة الجنة، ويطمئن إليها[1]، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾: جامعها، وألقى فيها نطفته، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾: هي النطفة استقرت في رحمها؛ لأنها أول ما حملت أنثى من ذكرٍ، ولم يكن هذا معروفاً عندها قبل ذلك، ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: بذلك المحمول في رحمها، وهو النطفة قبل أن تتخلق ولداً، قامت به، وقعدت، ولم يثقلها شيء، وكانت كما كانت من قبل، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾: بأن تخلقت تلك النطفة؛ فصارت جنيناً، وكبر الجنين، ونفخ فيه الروح، وتحرك في بطن أمه، فصار ثقيلاً عليها حملها، ﴿دَّعَوَا﴾ أي: آدم وحواء الله تعالى ربهما، أي: توسلا إليه بالدعاء أن ذلك الحمل يكون مثلهما ولداً بشراً سوياً، وقالا في دعائهما: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ أي: أعطيتنا، بأن تجعل هذا الجنين الذي هو في بطن أمه الآن ﴿صَٰلِحًا﴾ أي: بشراً مثلنا، يشبهنا في الخِلقة، لا فسادٍ في أعضائه، ولا تشويهٍ في خِلْقته[2]، ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾: جزماً منَّا من غير شكٍّ ولا

= ٢/ ٣٥٥، وابن المنير في الانتصاف المطبوع مع الكشاف ٢/ ٥٤١، وابن عثيمين كما في القول المفيد ٣/ ٦٨.

وتقدم حمل النفس الواحدة على قُصي بن كلاب. انظر (ص ٢٦).

(١) يقول ابن عطية: «﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليأنس ويطمئن، وكان هذا كلُّه في الجنة، ثم ابتدأ بحالةٍ أخرى في الدنيا بعد هبوطها، فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾» المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦، وانظر: الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤٠٨.

(٢) يرى الطبري حمل الصلاح في الآية على العموم، فيشمل جميع معاني الصلاح، من استواء الخلق، =

ترددٍ، من جملة عبادك ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: لإنعامك، القائمين على الحمد لك بسبب إكرامك، فإن الله تعالى إذا أنعم على عبده لا يقدر العبد على مجازات ربه إلا شكره على الإنعام(١).

والشكر: هو المواظبة على الطاعة ظاهراً وباطناً، والثناء الجميل، والدعاء الجزيل(٢).

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: أنعم الله عليهما بأن ولدت حواء لآدم بشراً سوياً، وولداً تام الخلقة، بأن كان صالحاً على طِبْقِ ما سألاه، وتوسلا إلى الله تعالى بحصوله، ﴿جَعَلَا﴾ أي: آدم وحواء، بطريق التسبب بأن تغشاها أيضاً، فحملت مرة بعد مرة، وولدت مرة بعد مرة، وهذا معنى الجعل كما قدمنا: أنها ولدت لآدم – عليه السلام – خمس مئة بطنٍ ألف ولدٍ، في كل بطنٍ ذكرٍ وأنثى(٣). فإن الفعل يسند إلى سببه، كما يسند إلى فاعله، فيقال: (بنى الأمير

= والصلاح في الدين، والصلاح في العقل والتدبير، وغير ذلك. انظر: جامع البيان ١٠/ ٦٢٢.

(١) يعني: أن الإنسان لا يمكن أن يؤدي حق المنعم المتفضل، بكثير العطايا، وجزيل الهبات، ووافر الخيرات، إلا بالشكر عليها، والاعتراف بها خضوعاً لموهبها، وانقياداً لمسديها. وتوفية شكر الله عزيز غير يسير، فـ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، و﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

(٢) عرف ابن القيم الشكر تعريفاً بليغاً، فقال: «هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبةً، وعلى جوارحه انقياداً وطاعةً» مدارج السالكين ٢/ ٢٥٠.
إذن فالشكر: يكون بالقلب خضوعاً واستكانةً، وباللسان ثناءً واعترافاً، وبالجوارح طاعةً وانقياداً. انظر: مدارج السالكين ٢/ ٥٢.

(٣) انظر: التعليق (ص ٥١).

المدينة)؛ لأنه سبب لاستعمال البنائين، ونحو ذلك.

﴿لَهُۥ﴾ أي: لذلك الصالح، فإنه أقرب مذكورٍ، لا أنَّ معناه: ﴿جَعَلَا لَهُۥ﴾ أي: لله ربهما؛ لأنه ممتنع على آدم وحواء أن يشركا بالله ربهما تعالى، وهو قد أنعم عليهما بالبشر التام الخلقة على طِبْقِ ما سألاه. وكيف يصدر منهما شرك بعد حصول مطلوبهما الذي قالا قبل حصوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1]؟ والكذب فيما وعدا يستحيل على النبيين - عليهم السلام -، وإرجاع ضمير ﴿جَعَلَا لَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿صَٰلِحًا﴾ أحق وأولى. أي: جعلا بأن تسببا لذلك الصالح ﴿شُرَكَآءَ﴾: جمع شريك، أي: إخوة يشاركونه، ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الله تعالى إياه موصوفاً بأوصافهما البشرية التامة، يعني: أولاد أُخر تشارك ذلك الولد الصالح في أوصافه التي هو موصوف بها، من كونه ولدهما، وموصوفاً بالبشرية، والخلقة الإنسانية السوية مثلها، وكون شركائه أولاد آدم وحواء أيضاً، وكونهم بشراً مثل أبويهما، وهو معنى قوله: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: أوقعا الشركة بالمجامعة ثانياً وثالثاً ورابعاً متسببين بذلك، حتى أظهرا من أصلابهما أولاداً كثيرة، يشاركون الولد الأول في أوصافه، فهم شركاء في الخِلقة التامة، والبشرية الكاملة[2].

---

(١) تقدم أن الشرك الصادر منهما يراد به: شرك التسمية والطاعة، لا شرك العبادة والربوبية؛ أي: أنهما سميا ولدهما: (عبدالحارث)، وبه قال جماهير المفسرين. انظر (ص ٣٩، ٥٢).

(٢) للمؤلف بُعد آخر في بيان معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، وتوجيهه لذلك: أنه بعد استجابة المولى الكريم لدعاء آدم وحواء برزقهما ولداً بشراً سوياً، تام الخِلقة، جعلا لهذا الولد المتقدم بطريق التسبب، أن تغشاها فحملت حملاً آخر، وتكررت منها الولادة مرة تلو =

ومما يؤيد أن ضمير: ﴿لَهُۥ﴾ راجعاً إلى: ﴿صَٰلِحًا﴾ من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ﴾ أي: لذلك الصالح لا أنه راجع إلى ﴿ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾، قوله تعالى بعده: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولم يقل: ﴿فَتَعَٰلَى﴾ أي: هو، يعني: الله ربهما، ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قصداً إلى إرجاع الضمير إلى ﴿صَٰلِحًا﴾؛ لتناسب الكلام.

فإن قلت: ﴿شُرَكَآءَ﴾: جمع شريك، والمتبادر منه أن يكون من شرك الكفر، لا من الشرك بمعنى الاشتراك في الأوصاف والأملاك.

قلت: هذا نظير قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾[1] أي: متنازعون، فهي شركة الأوصاف والأملاك، لا شركة الكفر[2].

= أُخرى؛ فأصبح لهذا الولد إخوة آخرين يشاركونه في البشرية الكاملة، والخِلقة التامة.

إذن: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ يراد به: حصول أمثال للولد الصالح الذي آتاهما، وهذا المعنى يتأتى على قراءة الجمع: ﴿شُرَكَآءَ﴾، وهي قراءة الجمهور.

وما أوَّله المؤلف واحتفى به في تفسير الآية الكريمة، وإن كان محتملاً، إلا أنه خلاف الظاهر.

وقد اعترض عليه الآمدي وردَّه في أبكار الأفكار ٤/ ١٦١ من وجهين:

الأول: أن طلب أمثال الولد الصالح، لا يكون جعلاً لشرك الولد، فإن طلب الشيء، غير جعل الشيء.

الثاني: أن المفهوم من قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: جعلا الشركاء لمن آتاهما الولد الصالح في إتيان الولد لهما، وليس من آتاهما الولد هو الولد، فيمتنع عود الشرك إليه.

وذكر السمين الحلبي أن هذا الوجه من التأويل لا معنى له. انظر: الدر المصون ٥/ ٥٣٦. وقد ساقه الآلوسي مع معنى آخر، وضعفهما بقوله: «وهما لعمري أوهن من بيت العنكبوت، لكن ذكرتهما استيفاءً للأقوال» روح المعاني ٩/ ١٤٢.

(١) الزمر: ٢٩.

(٢) المتبادر من ظاهر لفظة آية الأعراف وسياقها، أنها في شرك الكفر، وضُرب المثل في آية الزمر =

وليس المعنى محصوراً في شرك الكفر، وربما يكون هذا الذي ذكرناه هو مراد الله تعالى بالآية هنا، والله أعلم بمراده، وهو الذي يلهم العبد طريق رشاده.

ثم إنه تعالى علم في الأزل، أن هؤلاء الشركاء المشاركين لذلك الصالح المذكور، يشركون به تعالى في الأرض شرك كفر، ويعبدون غيره تعالى، ولو بعض أولادهم، أو أولاد أولادهم، أو ذراريهم إلى يوم القيامة، فقال بعده: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: تنزه وتقدس[١] ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي: هؤلاء الشركاء الذين شاركوا الصالح المذكور في أوصاف خِلْقته، فيعبدون غيره تعالى، ويكفرون به.

ثم قال تعالى على طريقة الاستفهام تنبيهاً على قُبح حالهم عند ذوي الأفهام، ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ ﴾[٢]: وهي الأصنام التي يعبدونها[٣]، ﴿وَهُمْ﴾ أي: العابدون للأصنام، والأصنام تغليباً لمن يعلم على ما لا يعلم[٤]،

= لإثبات التوحيد الخالص للعلي العظيم، ونفي الشريك معه، بضرب شاهدٍ من الأمثال العقلية، وتصويرها في رجلٍ يملكه شركاء أوزاع القلوب، متنازعون ومتشاحنون في أمره... وكون الشركة في الأوصاف والأملاك، لا تنفي الغرض الذي سيق المثل من أجله، في إثبات التوحيد، ونفي وجود الشريك، كما لا تنفك عن سياقها المقتضي لذلك، ولا يتأتى كونها من قِبَلِ النظير لآية الأعراف من كل وجهٍ. والله أعلم.

(١) انظر: جامع البيان ١/ ٦٣١، وروح المعاني ٩/ ١٣٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ٢١٥، وأسلوب الاستفهام (ص ٥٤).

(٣) انظر: الكشف ٤/ ٣١٦، وزاد المسير ٣/ ٢٠٦، والجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤١٤.

(٤) انظر: البحر المحيط ٤/ ٤٣٨، والدر المصون ٥/ ٥٣٦، وتفسير ابن عرفة ٢/ ٢٧٣.

﴿يُخۡلَقُونَ﴾ أي: يخلقهم الله تعالى جميعاً[١].

وقال في المدارك[٢]: «أُجريت الأصنام مُجْرى أولي العلم، بناءً على اعتقادهم فيها، وتسميتهم إياها آلهة»[٣].

وبقية الآيات بعد هذا ظاهرة المعنى لا إشكال فيها، بعد حل إشكالها الأول، الذي كان عليه في حقيقة الأمر المعول.

فتأمل أيها المنصف من الإخوان ما ذكرناه لك، فيما أشرنا إليه من البيان، وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله حسبنا ونعم الوكيل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

قال المؤلف – نفعنا الله ببركاته –: حررناه في مدةٍ من الزمان، آخرها نهار الخميس، الثامن من شهر شعبان، سنة ثلاثين ومئة.

---

(١) انظر: البحر المحيط ٤/ ٤٣٨، والدر المصون ٥/ ٥٣٦.

(٢) يعني: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل».

(٣) مدارك التنزيل ٢/ ٩٠، وانظر: الكشاف ٢/ ٥٤٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٨، والجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤١٥، وروح المعاني ٩/ ١٤٣.

ثبت المصادر والمراجع

- **أبكار الأفكار في أصول الدين**. للآمدي، تحقيق: د. أحمد المهدي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.
- **الإتقان في علوم القرآن**. للسيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤٢٦هـ.
- **الأثر العقدي في تعدد التوجيه الإعرابي لآيات القرآن الكريم – جمعاً ودراسة –** للدكتور محمد السيف، دار التدمرية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم – عرض ودراسة –**، للدكتور أحمد القصير، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
- **أحكام القرآن**. لابن العربي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
- **الإحكام في أصول الأحكام**. للآمدي، تعليق: عبدالرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، دمشق – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
- **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، المشهور بـ(معجم الأدباء)**. لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**. للشوكاني، تحقيق: د.

شعبان محمد إسماعيل، دار الكتبي، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

- **الأزهية في علم الحروف**. لعلي بن محمد الهروي، تحقيق: عبدالمعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٤١٣هـ.
- **أسباب الخطأ في التفسير**. للدكتور طاهر يعقوب، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**. لابن عبدالبر، تحقيق: علي معوض، وعادل أحمد عبدالموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**. لابن الأثير، تحقيق: محمد البنا، ومحمد عاشور، ومحمد فايد، دار الشعب.
- **الإسرائيليات في التفسير والحديث**. للدكتور محمد الذهبي، لجنة النشر في دار الإيمان، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- **الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير**. للدكتور محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٨هـ.
- **الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية**. للطوفي، تحقيق: حسن قطب، الفاروق الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.
- **الإصابة في تمييز الصحابة**. لابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. عبدالله التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الجيزة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**. للشنقيطي، تخريج: محمد

الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

- **إعراب القراءات الشواذ**. للعكبري، تحقيق: محمد السيد عزوز، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- **إعراب القرآن**. للنحاس، تحقيق: د/ زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
- **الأعلام**. للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة.
- **الأقوال الشاذة في التفسير – نشأتها وأسبابها وآثارها –**، د.عبدالرحمن الدهش، مجلة الحكمة، بريطانيا، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- **أمالي ابن الحاجب**. لابن الحاجب، تحقيق: د. فخر قداره، دار الجيل، بيروت، دار عمار، عمان، ١٤٠٩هـ.
- **أمالي المرتضى**. للشريف المرتضى، تصحيح: محمد بدر الدين الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٥هـ.
- **إنباه الرواة على أنباه النحاة**. للقفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- **الأنساب، للسمعاني، وضع حواشيه**: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**. للبيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **البحر المحيط**. لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: عادل عبدالموجود وجماعة،

دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

- **البداية والنهاية**. لابن كثير، تحقيق: د. عبدالله التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**. للشوكاني، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **البرهان في علوم القرآن**. للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**. للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١٩هـ.
- **البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة**. للفيروزآبادي، تحقيق: محمد المصري، دار سعدالدين، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- **بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب**. لأبي الثناء محمود بن عبدالرحمن الأصفهاني، تحقيق: د. محمد مظهر بقا، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة.
- **تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)**. للطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- **تاريخ التراث العربي**. لفؤاد سزكين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.
- **تأويل مشكل القرآن**. لابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث،

القاهرة، ألطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.

- **التبيان المطبوع باسم: (إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن)**، للعكبري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، دار الحديث، القاهرة.
- **التبيان لبديعة البيان**. لناصر الدين الدمشقي، تحقيق: د. عبدالسلام الشيخلي وشركاه، دار النوادر، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **التحرير والتنوير**. للطاهر بن عاشور، (بدون رقم الطبعة ولا اسم الدار).
- **تراجم بعض أعيان دمشق من علمائها وأدبائها**. لابن عاشور، المطبعة اللبنانية، بيروت، ١٨٨٦م.
- **التسهيل لعلوم التنزيل**. لابن جزي الكلبي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ.
- **التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام**. للسهيلي، تحقيق: عبدالله محمد النقراط، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث، طرابلس.
- **تفسير ابن عرفة**. لابن عرفة، تحقيق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- **تفسير السمرقندي**. للسمرقندي، تحقيق: علي معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- **تفسير القرآن الحكيم المشهور بـ(تفسير المنار)**. لمحمد رشيد رضا،

تخريج: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.

- **تفسير القرآن العزيز**. لابن أبي زمنين، تحقيق: عبدالله عكاشة، ومحمد الكنز، نشر: الفاروق الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- **تفسير القرآن العظيم مسنداً عن الرسول ﷺ والصحابة التابعين**. لابن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- **تفسير القرآن العظيم**. لابن كثير، تحقيق: د. محمد البنا، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- **تفسير القرآن العظيم**. للسخاوي، تحقيق: د. موسى مسعود، ود. أشرف القصاص، دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٤٣٠هـ.
- **تفسير القرآن**. لأبي المظفر السمعاني، تحقيق: ياسر بن عبدالله، وغنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **التفسير الكبير**. للرازي، إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- **تفسير المشكل من غريب القرآن العظيم**. لمكي بن أبي طالب، تحقيق: د. محيي الدين رمضان، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- **تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان**. لنظام الدين القمي النيسابوري، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

- **تفسير غريب القرآن**. لابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.
- **تفسير مبهمات القرآن الموسوم بصلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابي الإعلام والتكميل**. للبلنسي، تحقيق: حنيف القاسمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- **تفسير مقاتل بن سليمان**. تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- **التفسير والمفسرون**. للدكتور: محمد الذهبي، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى.
- **تقريب التهذيب**. لابن حجر العسقلاني، تحقيق: أبي الأشبال صغير أحمد شاغف الباكستاني، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- **التكملة والإتمام لكتاب التعريف والأعلام فيما أبهم من القرآن**. لابن عساكر، تحقيق: أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **تلخيص تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر**. لموفق الدين أبي العباس أحمد بن يوسف الكواشي، من أول تفسير سورة الأنعام إلى نهاية تفسير سورة يوسف، دراسة وتحقيق: محمد بن إبراهيم الشيبان، رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، قسم القرآن وعلومه.
- **التلخيص في القراءات الثمان**. لأبي معشر الطبري، تحقيق: محمد موسى،

نشر: الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

- **تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء**. لابن حُمير، تحقيق: د. أحمد الزبيبي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- **تنزيه القرآن عن المطاعن**. للقاضي عبدالجبار، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**. للمزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤١٥هـ.
- **تهذيب اللغة**. للأزهري، تحقيق: عبدالسلام هارون، (بدون رقم الطبعة، ولا اسم الناشر).
- **توجيه مشكل القراءات العشرية الفرشية لغةً وتفسيراً وإعراباً**. للدكتور عبدالعزيز الحربي، مكتبة ودار ابن حزم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- **التوحيد الذي هو حق الله على العبيد**. لمحمد بن عبدالوهاب، ضمن مجموعة التوحيد لابن تيمية، ومحمد بن عبدالوهاب، دار إحياء التراث.
- **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**. لسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، تحقيق: أسامةالعتيبي، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. للسعدي، اعتنى به: سعد الصميل، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.

- **التيسير في القراءات السبع**. للداني، بعناية: أوتوبرتزل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**. للطبري، تحقيق: د. عبدالله التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر، الجيزة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **الجامع الصحيح**. للترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**. للقرطبي، تحقيق: د. عبدالله التركي وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- **الجنى الداني في حروف المعاني**. للحسن المرادي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، وأحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**. لمحمد بن عبدالقادر الحنفي، تحقيق: عبدالفتاح الحلو، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
- **الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحاب العشرة**. للبُري، تحقيق: د. محمد التونجي، دار الرفاعي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- **حاشية القُونوي على تفسير البضاوي**. لإسماعيل الحنفي القونوي، ضبطه وصححه: عبدالله محمود عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

- **حاشية الكشاف.** لسعد بن محمد التفتازاني، مخطوط مصور بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تحت رقم: (٦٢٢٦/ ف).
- **حاشية كتاب التوحيد.** لعبدالرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.
- **حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي.** لمحيي الدين شيخ زاده، ضبطه وصححه: محمد عبدالقادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
- **حجة القراءات.** لأبي زرعة عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
- **الحجة في القراءات السبع.** لابن خالويه، تحقيق: د. عبدالعال سالم مكرم، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ.
- **الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد.** لأبي علي الفارسي، تعليق: كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- **الحديث الضعيف وحكم الاحتجاج به.** للدكتور عبدالكريم الخضير، مكتبة دار المنهاج، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.
- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون.** للسمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- **درج الدرر في تفسير الآي والسور.** للجرجاني، تحقيق: وليد الحسين، مجلة الحكمة، بريطانيا، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

- **درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة.** للمقريزي، تحقيق: د. محمد الجليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.** لابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت، ١٤١٤هـ.
- **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب.** لابن فرحون المالكي، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة.
- **الرسالة القشيرية.** لعبدالكريم القشيري، تحقيق: معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- **رصف المباني في شرح حروف المعاني.** للمالقي، تحقيق: أحمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.** للآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام.** للسهيلي، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، (بدون رقم الطبعة، ولا اسم الناشر).
- **روضة المحبين ونزهة المشتاقين.** لابن القيم، تحقيق: يوسف بديوي، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.
- **زاد المسير في علم التفسير.** لابن الجوزي، تحقيق: د. محمد عبدالله، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة.** للألباني، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

- **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**. لمحمد المرادي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- **سير أعلام النبلاء**. للذهبي، تحقيق: مجموعة من الأساتذة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤١٤هـ.
- **السيرة النبوية**. لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. لابن العماد الحنبلي، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- **شرح العقيدة الواسطية**. لابن عثيمين، إعداد: فهد السليمان، دار الثريا، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- **شرح المنهاج للبيضاوي في علم الأصول**. لمحمود الأصفهاني، تحقيق: د. عبدالكريم النملة، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- **شرح الهداية**. للمهدوي، تحقيق: د. حازم حيدر، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- **شعب الإيمان**. للبيهقي، تحقيق: د. عبدالعلي حامد، ومختار الندوي، الدار السلفية، بومباي، الهند، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**. للقاضي عياض، تحقيق: سعيد عبدالفتاح، نشر: هشام علي حافظ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- **شواذ القراءات**. لمحمد بن أبي نصر الكرماني، تحقيق: د. شمران

العجلي، مؤسسة البلاغ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

- **الضعفاء**. للعقيلي، تحقيق: حمدي السلفي، دار الصميعي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- **ضعيف سنن الترمذي**. للألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- **طبقات الشافعية الكبرى**. للسبكي، تحقيق: د. محمود الطناحي، ود. عبدالفتاح الحلو، دار هجر، الجيزة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
- **طبقات الشافعية**. لابن قاضي شهبة، تصحيح وتعليق: د. الحافظ عبدالعليم خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية؛ حيدر آباد، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.
- **طبقات الفقهاء الحنابلة**. لمحمد بن أبي يعلى، تحقيق: د. علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- **طبقات الفقهاء**. للشيرازي، ويليه طبقات الشافعية، لهداية الله الحسيني، تصحيح ومراجعة: خليل الميس، دار القلم، بيروت.
- **الطبقات الكبرى**. لابن سعد، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
- **طبقات المفسرين**. لأحمد الأدنه وي، تحقيق: سليمان الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- **طبقات المفسرين**. للداوودي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **طبقات المفسرين**. للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **طبقات النحويين واللغويين**. للزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.
- **طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية**. لعمر بن محمد النسفي، علق عليه: خالد العك، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**. لعبدالرحمن بن حسن الجبرتي، تحقيق: د.عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- **العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير**. تعليق: خالد السبت، دار ابن القيم، الدمام، دار ابن عفان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- **عصمة الأنبياء**. للرازي، تقديم ومراجعة: محمد حجازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- **عقيدة السلف وأصحاب الحديث**. لإسماعيل الصابوني، تحقيق: د. ناصر الجديع، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.
- **العقيق اليماني في حوادث ووفيات المخلاف السليماني**. لعبدالله بن علي الضمدي، مخطوط في جامعة الملك سعود بالرياض، رقم الحفظ (٧٧٠٨).
- **علل القراءات**. للأزهري، تحقيق: نوال الحلوة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- **عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي (حاشية الشهاب)**. للشهاب الخفاجي، دار صادر، بيروت.

- **عيون أخبار الرضا عليه السلام**. للشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، تصحيح: السيد مهدي اللاجوردي، مكتبة طوس، قم، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.
- **عيون المسائل في القرآن العظيم**. لأبي معشر الطبري، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **غاية النهاية في طبقات القراء**. لابن الجزري، عني بنشره: ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
- **غرر التبيان في من لم يسم في القرآن**. لبدر الدين بن جماعة، تحقيق: د. عبدالجواد خلف، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**. لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ومحب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- **فتح الجليل ببيان خفي أنوار التنزيل**. زكريا محمد أحمد السنيكي الأنصاري، ٣٥٥ق [٢١٢ف أ].
- **فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن**. لأبي يحيى زكريا الأنصاري، تحقيق: عبدالسميع حسنين، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية**. للشوكاني، دار الفكر، ١٤٠٣هـ.
- **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب**. للطيبي، مخطوط مصور

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تحت رقم: (٦٢٣١/ ف).

- **الفصل في الملل والأهواء والنحل**. لابن حزم الظاهري، تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر، ود. عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.
- **الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط. علوم القرآن (مخطوطات التفسير وعلومه)**، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، الأردن – عمان، ١٩٨٩م.
- **الفهرست**. لابن النديم، تحقيق: د. يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- **الكامل في ضعفاء الرجال**. لابن عدي، تحقيق: عادل عبدالموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **كتاب الإيمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته**. لأبي عبيدالقاسم بن سلام، تحقيق: الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- **كتاب البديع**. لابن المعتز، اعتنى به: إغناطيوس كراتشقوفسكي، مكتبة المثنى، بغداد، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.
- **كتاب الصناعتين الكتابة والشعر**. للعسكري، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- **الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد**. للمنتجب الهمذاني، تحقيق: محمد الفتيح، دار الزمان، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

- **كتاب الموضوعات من الأحاديث المرفوعات**. لابن الجوزي، تحقيق: د.نور الدين بن شكري، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. للزمخشري، تحقيق: عادل عبدالموجود وآخرين، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل (تفسير الحداد)**. لأبي بكر الحداد اليمني، تحقيق: د.محمد إبراهيم يحيى، دار المدار الإسلامي، ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- **كشف المشكلات وإيضاح المعضلات في إعراب القرآن وعلل القراءات**. للباقولي، تحقيق: د.عبدالقادر السعدي، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- **الكشف والبيان**. للثعلبي، تحقيق: ابن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **لباب التأويل في معاني التنزيل**. للخازن، ضبطه وصححه: عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- **لسان العرب**. لابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
- **المبسوط في القراءات العشر**. لأبي بكر الأصبهاني، تحقيق: سبيع حاكمي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن،

بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

- **متشابه القرآن**. للقاضي عبدالجبار، تحقيق: د. عدنان زرزور، دار التراث، القاهرة.
- **المجروحين من المحدثين**. لابن حبان، تحقي: حمدي السلفي، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- **مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**. نشر الجامعة، العدد الثامن والعشرون، ١٤٢٠هـ.
- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**. جمع وترتيب: عبدالرحمن بن قاسم، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ.
- **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جني، تحقيق**: علي النجدي ناصف، ود. عبدالحليم النجار، ود. عبدالفتاح شلبي، دار سزكين، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. لابن عطية، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- **المحكم والمحيط الأعظم**. لابن سيده، تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- **مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**. لابن قيم الجوزية، اختصار محمد بن الموصلي، تعليق: د. الحسن العلوي.
- **مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع**. لابن خالويه، مكتبة المتنبي، القاهرة.

- **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**. للنسفي، دار الكتاب العربي، ١٤٠٨هـ.
- **المستدرك على الصحيحين**. للحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- **المستصفى من علم الأصول**. للغزالي، تحقيق: د. حمزة زهير حافظ.
- **المستنير في القراءات العشر**. لأحمد بن سوار البغدادي، تحقيق: د. عمار أمين الددو، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- **المسودة في أصول الفقه**. وهو بتصنيف ثلاثة من أئمة آل تيمية، تحقيق: د. أحمد الذوري، دار الفضيلة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار**. لابن حبان البستي، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، دار الوفاء، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- **المصابيح في تفسير القرآن العظيم**. للوزير المغربي، تحقيق: عبدالكريم الزهراني، رسالة دكتواره من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الإسراء، كلية اللغة بجامعة أم القرى.
- **المعارف**. لابن قتيبة، تحقيق: د. ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.
- **معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة**. لمحمد الجيزاني، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- **معالم التنزيل**. للبغوي، تحقيق: محمد النمر، وعثمان ضميرية، وسليمان

الحرش، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

- **معاني القرآن الكريم**. لأبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد الصابوني، نشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **معاني القرآن وإعرابه**. للزجاج، تحقيق: د. عبدالجليل شلبي، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **معاني القرآن**. للأخفش، تحقيق: د. عبدالأمير الورد، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- **معاني القرآن**. للفراء، تحقيق: أحمد نجاني، وعلي النجار، دار السرور، بيروت.
- **معجم اصطلاحات الصوفية**. لعبدالرزاق الكاشاني، تحقيق: د. عبدالعال شاهين، دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- **معجم البلدان**. لياقوت الحموي، تحقيق: فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- **المعجم الكبير**. للطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية.
- **معجم المؤلفين**. لعمر كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**. للذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، وشعيب الأرنؤوط، وصالح مهدي عباس، مؤسسة

الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

- **معرفة قراءات أهل الأمصار بالحجاز والعراق والشام المعروف بـ (السبعة)**. لابن مجاهد، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.

- **المعرفة والتاريخ**. للبسوي، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**. لابن هشام الأنصاري، تحقيق وشرح: د.عبداللطيف الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٤٢١هـ.

- **مفردات ألفاظ القرآن**. للأصفهاني، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ.

- **مقاييس اللغة**. لابن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

- **المقتطف من عيون التفاسير**. لمصطفى المنصوري، تحقيق: محمد الصابوني، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.

- **مقدمة المفسرين**. للبرسوي، تحقيق: عبدالرحمن الدهش، مجلة الحكمة، بريطانيا، الطبعة الأولى، ١٥٢٥هـ.

- **مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن**. لابن النقيب، تحقيق: د. زكريا سعيد علي، مكتبة الخانجي، الطبعة

الأولى، ١٤١٥هـ.

- **مناقب الإمام أحمد بن حنبل**. لابن الجوزي، تحقيق: د. عبدالله التركي، دار هجر، الجيزة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
- **موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي**. للدكتور رفيق العجم، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- **الموضح في وجوه القراءات وعللها**. لابن أبي مريم، تحقيق: د. عمر الكبيسي، نشر: الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**. للذهبي، تحقيق: علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت.
- **نسب قريش**. للمصعب الزبيدي، تعليق: إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. للبقاعي، علق عليه: عبدالرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- **نكت القرآن الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام**. للقصاب، تحقيق: د. علي التويجري، دار ابن القيم، الدمام، دار ابن عفان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- **النكت في القرآن الكريم**. لعلي المجاشعي، تحقيق: د. إبراهيم علي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**. للرازي، تحقيق: د. نصرالله أوغلي، دار

صادر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

- **الهداية إلى بلوغ النهاية**. لمكي بن أبي طالب، مجموعة رسائل جامعية، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **الوافي بالوفيات**. للصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- **وجه التهاني إلى منظومة الديواني**. للديواني، تحقيق: د. ياسر المزروعي، نشر: غراس، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
- **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**. للواحدي، تحقيق: عادل عبدالموجود وشركائه، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. لابن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

دلائل نبوة محمد ﷺ في القرآن الكريم

إعـــداد

د. محمد بن سريع بن عبدالله السريع

د. محمد بن سريع بن عبدالله السريع

- أستاذ مشارك بقسم القرآن وعلومه بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية.
- رئيس مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه
- حصل على درجة الماجستير فى القرآن وعلومه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: (تفسير أئمة الدعوة فى نجد إلى بداية القرن الرابع عشر الهجرى -جمع ودراسة)
- حصل على درجة الدكتوراه فى القرآن وعلومه من جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بأطروحته (غاية الأمانى في تفسير الكلام الرباني لأحمد بن إسماعيل الكورانى من أول سورة الأنفال إلى آخر سورة إبراهيم -دراسة وتحقيق)

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد/

فلقد أنزل الله تعالى كتابه الكريم حجة قائمة، وشريعة باقية، هو الحبل المتين،والصراط المستقيم، والمحجة البيضاء، فيه الهدى من الضلالة، والشفاء لكل علة، والدواء لكل داء .

لم يدع شيئا يحتاج إليه المكلفون إلا وفي القرآن بيان له: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

[النحل:٨٩] .

وأعظم ما جاء القرآن ببيانه أصول الدين وأركان الإيمان ومعاقد الملة؛ كإثبات الوحدانية وإفراد الله بالعبادة وإثبات ماله تعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وتقرير المعاد ونحو ذلك إذ هي المقصد الأعظم من نزول القرآن والمراد الأول من إيحائه .

هذا وإن من أجل مقاصد القرآن إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وتقرير رسالته، والاحتجاج لذلك بالبراهين العقلية والحجج اليقينية، وقد ساق القرآن الكريم العديد من الدلائل التي تثبت ذلك وتشهد له .

ولقد أحببت أن أتناول بالبحث هذا الموضوع:(**دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم**)[1] .

---

(١) استفدت فكرة هذا البحث من كلام الشيخ السعدي –رحمه الله– في كتاب القواعد الحسان في تفسير القرآن، فقد جعل القاعدة السابعة في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.
أقول هذا راجيا بركة ما أكتب وقبوله.
والحق أن هذا الكتاب العظيم على صغر حجمه عظيم النفع غزير الفائدة، كل قاعدة منه تستحق أن تفرد ببحث مستقل؛ بل ربما بحوث.
وليت الجادين من طلاب الدراسات العليا ينفرون لما أودعه رحمه الله في هذا الكتاب فيستخرجون كنوزه والله الموفق.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- صلته بكتاب الله تعالى .

٢- صلته بأصل عظيم من أصول الدين، وركن من أركانه؛ وهو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " وبالجملة فتقرير النبوات من القرآن أعظم من أن يشرح في هذا المقام؛ إذ ذلك هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبوية، وينبوع كل خير، وجماع كل هدى " .[١] أهـ

٣- أن الشبه التي ساقها منكرو النبوة، والأباطيل التي رددوها جاء القرآن بردها ودحضها بأقوى الحجج وأبلغ الأدلة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "ولا ريب أن منكري النبوات لهم شبه... وكل ذلك قد أجاب الله عنه في القرآن العظيم، وقرر ذلك بأبلغ تقرير".[٢] أهـ.

٤- قلة الدراسات القرآنية التي تناولت هذا الموضوع، وللأسف فإن بعض الباحثين - حتى في الدراسات القرآنية - انشغلوا بقضايا لا يتبعها عمل عن العناية بالأصول الشرعية الكبرى التي عليها مدار الملة والدين،ومنها تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو محاولتهم تقريرها بطرق ليست كطريقة القرآن .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "أكثر أهل الكلام مقصرون في

---

(١) شرح الأصفهانية (ص ١٥٤- ١٥٥).

(٢) المرجع السابق (ص ١٥٤).

حجج الاستدلال على تقرير ما يجب من التوحيد والنبوة تقصيراً كثيراً جداً."[١] .

٥- وإذا كان هناك من تطاول على مقام النبوة الكريم، ووصفه بما لا يليق فإن العلاج الصحيح لهذه القضية يكمن في دعوة هؤلاء إلى الحق، وبيان مكانة هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وصدق رسالته، وصحة ما جاء به ودعا إليه .

وأفضل الطرق لتقرير هذا الأصل، وأقصرها إلى تحقيق المقصود، هي طريقة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فترسم هذه الطريقة، والسير على نهجها، وإبراز هداياتها، وتوضيح إرشاداتها هي الجادة الموصلة والطريق المستقيم الذي يغني عن غيره، ولا يغني غيره غناه.

"والقرآن قد بين من آيات نبوته وبراهين رسالته أنواعاً متعددة مع اشتمال كل نوع على عدد من الآيات والبراهين"[٢] .

(١) المرجع السابق (ص١٠٤).

(٢) الجواب الصحيح (٥/ ٣١٩).

أهداف البحث :

١- بيان الدلائل التي ساقها القرآن الكريم لتقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

٢- إظهار تنوع الدلائل التي تدل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته .

٣- إبراز منهج القرآن الكريم في الاستدلال على القضايا الكبرى .

خطة البحث :

انتظمت خطة البحث في مقدمة و فصلين وخاتمة وفهارس، على النحو التالي:

المقدمة: وبينت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وأهداف البحث، وخطته والمنهج في كتابته.

الفصل الأول: مقدمات بين يدي البحث .

المبحث الأول: القرآن الكريم بين للناس كل ما يحتاجون إليه .

المبحث الثاني: عظيم حاجة الخلق للنبوة .

الفصل الثاني: دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم .

المبحث الأول: بشارات الأنبياء السابقين عليهم السلام .

المبحث الثاني: ما يعرفه قومه من أحواله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة .

المبحث الثالث: أنه صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب .

المبحث الرابع: أنه صلى الله عليه وسلم لم يتصل بأحد من أهلالكتاب .

المبحث الخامس: إتيانه صلى الله عليه وسلم بمثل ما جاء به الأنبياء عليهم السلام من أصول الدين .

المبحث السادس: ما أظهر على يديه صلى الله عليه وسلم من المعجزات والدلائل الباهرات .

المبحث السابع: صدق القرآن وعجز الكفار عن معارضته .

المبحث الثامن: اشتمال القرآن على التوحيد، وما يصلح الخلق .

المبحث التاسع: نصره وتأييده وعصمته من الناس .

المبحث العاشر: دلالة القرآن على حسن خلقه صلى الله عليه وسلم ورفيع صفاته .

الخاتمة : وفيها أبرز ما توصلت إليه من نتائج .

فهرس المراجع .

منهج البحث:

أسلك في البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، بحيث أقوم بجمع دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم من خلال القرآن - مسترشدا بكلام أهل العلم - ثم أتناول ما يجتمع لدي بالبحث والتحليل والاستدلال .

وسأسير في البحث على الخطوات التالية:

١ - عزوت الآيات القرآنية إلى سورها مبينا أرقامها .

٢- خرجت الأحاديث النبوية من كتب السنة، فإن كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بتخريجه منهما، وإلا اجتهدت في تخريجه من كتب السنة مبينا درجته من خلال النقل عن أئمة هذا الشأن .

٣- خرجت الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين .

٤- لم أترجم للأعلام طلباً للاختصار .

٥- أخرت ذكر بيانات المراجع إلى فهرس المراجع .

والله أسأل أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الفصل الأول: مقدمات بين يدي البحث .

المبحث الأول: القرآن الكريم بيَّن للناس كل ما يحتاجون إليه.

أرسل الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل، وأنزل عليه كتابه القرآن خاتمة الشرائع والكتب، وأودع فيه كل ما بالخلق حاجة إليه في شؤون العاجل والآجل، مما لا يصح أمرهم ولا تستقيم حياتهم إلا به، وبين ما يحتاجون إليه أتم بيان، وأوضحه غاية الإيضاح .

ولعلي ألخص الكلام في هذا المبحث في النقاط التالية:

أولاً: جاء القرآن الكريم مبينا للناس كل ما يحتاجون إليه كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩] .

قال ابن مسعود رضي الله عنه: " أنزل في هذا القرآن كل علم، وكل شيء قد بين لنا في القرآن "، ثم تلا هذه الآية .(١)

وقال مجاهد: " مما أحل وحرم عليهم " .(٢)

قال ابن كثير: "وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال

(١) رواه الطبري (١٤/ ٣٣٤) . و انظر: الدر المنثور (٤/ ١٢٧)

(٢) رواه الطبري (الموضع السابق)

وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم". [٣]أهـ.

ثانياً: والقرآن الكريم تبيان لكل شيء من أمور الملة والشريعة والعقيدة، ومصالح الدين، والدلالة على الخلق القويم، وتنظيم معاش الناس ببيان الحلال والحرام، والمصالح والمفاسد، والإرشاد إلى أمثل المناهج في أصول الحياة وتنظيمها، والعلاقات بين الناس فيها .

وليس المقصود من ذلك الغوص في دقائق حياة البشر وبيان تفاصيل شؤون الحياة، وأنواع الصناعات أو الحرف و نحو ذلك، أو بيان دقائق ما في الكون من الحقائق العلمية والطبيعية، وإن كان قد يجري لبعض ذلك ذكر ولكنه ليس مقصودا لذاته فيبين على سبيل التفصيل فإن القرآن لم يأت لذلك، ومثل هذه القضايا التي لا يترتب عليها ضلال ولا هدى، ولا حل ولا حرمة متروكة لعقول الناس وتجاربهم واجتهادهم .

يقول ابن عاشور: " و(كل شيء) يفيد العموم ؛ إلا أنه عموم عرفي في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشرائع: من إصلاح النفوس، وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدني، وتبيين الحقوق، وما تتوقف عليه الدعوة من الاستدلال على الوحدانية، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يأتي في خلال ذلك من الحقائق العلمية والدقائق الكونية، ووصف أحوال الأمم، وأسباب فلاحها وخسارها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما

---

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٣)

يتخلل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم .

وفي خلال ذلك أسرار ونكت من أصول العلوم والمعارف صالحة لأن تكون بيانا لكل شيء على وجه العموم الحقيقي إن سلك في بيانها طريق التفصيل واستنير فيها بما شرح الرسول صلى الله عليه وسلم وما قفاه به أصحابه وعلماء أمته، ثم ما يعود إلى الترغيب والترهيب من وصف ما أعد للطائعين وما أعد للمعرضين، ووصف علم الغيب والحياة الآخرة .

ففي كل ذلك بيان لكل شيء يقصد بيانه للتبصير في هذا الغرض الجليل،فيؤول ذلك العموم العرفي بصريحه إلى عموم حقيقي بضمنه ولوازمه . وهذا من أبدع الإعجاز" [(١)].

ثالثاً: والقرآن الكريم قد بين القضايا الكبار كالتوحيد والإلهية والأسماء والصفات، والرسالة وإثبات البعث وأصول الأخلاق أتم بيان، وجلّاها بأحسن الحجج، فأعاد فيها وأبدى، وأوضحها بالشواهد والدلائل، والبراهين العقلية، والمشاهدات الحسية ؛ إذ هي المقصود الأعظم من إنزال الكتاب، والمراد الأهم من بعث الرسول صلى الله عليه وسلم،

وفي القرآن من الأدلة والبراهين والحجج العقلية على هذه القضايا ما لا يحتاج معه إلى غيره، وإن كان بعض الناس لم يعرفها لانشغاله بغيرها أو غفلته عنها .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " دلالة الكتاب والسنة على أصول

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٣)

الدين ليست بمجرد الخبر ؛كما تظنه طائفة من الغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم، بل الكتاب والسنة دلا الخلق وهدياهم إلى الآيات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين، وهؤلاء الغالطون الذين أعرضوا عما في القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية صاروا إذا صنفوا في أصول الدين أحزابا:

حزب: يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم، وأن النظر يوجب العلم وأنه واجب ... ثم إذا صاروا إلى ما هو الأصل والدليل للدين ... استدلوا بدليل مبتدع في الشرع وباطل في العقل .

والحزب الثاني: عرفوا أن هذا الكلام مبتدع، فصنفوا كتبا قدموا فيها ما يدل على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة والحديث وكلام السلف ولكنهم قد يخلطون الآثار صحيحها بضعيفها .

وأيضا فهم إنما يستدلون بالقرآن من جهة أخباره لا من جهة دلالته، فلا يذكرون ما فيه من الأدلة على إثبات الربوبية والوحدانية والنبوة والمعاد وأنه قد بين الأدلة العقلية الدالة على ذلك .

وحزب ثالث: قد عرف تفريط هؤلاء وتعدي أولئك وبدعتهم، فذمهم وذم طالب العلم الذكي الذي اشتاقت نفسه إلى معرفة الأدلة والخروج عن التقليد إذا سلك طريقهم، وقال: إن طريقهم ضارة، وإن السلف لم يسلكوها . وهذا كلام صحيح، لكنه إنما يدل على أمر مجمل لا تتبين دلالته على المطلوب، ولا يفتح أبواب الأدلة التي ذكرها الله في القرآن التي تبين أن ما جاء به الرسول حق، ويخرج الذكي بمعرفتها عن التقليد

وعن الضلال وعن البدعة والجهل .

فهؤلاء لم يتدبروا القرآن وأعرضوا عن آيات الله التي بينها في كتابه .

والمقصود أن هؤلاء الغالطين الذين أعرضوا عما في القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية لا يذكرون النظر والدليل والعلم الذي جاء به الرسول، والقرآن مملوء من ذلك، والمتكلمون يعترفون بأن في القرآن من الأدلة العقلية الدالة على أصول الدين ما فيه لكنهم يسلكون طرقا أخرى "[١] . أهـ مختصراً.

وهو كلام نفيس، لولا خشية الإطالة لسقته كاملا، يستفاد منه في ترشيد الدرس العلمي، وتقويم مسيرة البحث فيه، وبيان الأولويات التي يجب أن يعتنى بها .[٢]

رابعاً: ومن القضايا التي جلاها القرآن وأوضح دلائلها :نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فقد ساق عليها من الدلائل والبراهين العقلية، والحجج والبراهين والشواهد العقلية ما يعلم به كل منصف أنه رسول الله حقاً ونبي الله صدقا،

" فتقرير النبوات من القرآن هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبوية،

---

(١) الفتاوى (١٩/ ١٦٠-١٦٣)

(٢) والعجب من بعض الباحثين الذين اقتطعوا جزءاً كبيرا من أعمارهم وأعمالهم في مسائل علمية، لا يترتب عليها عمل، ولا ينبني عليها صحة اعتقاد، ولا تعود بالنفع على الأمة ولا أجيالها ولا مسيرتها العلمية والدعوية، في وقت تغفل كثير من المسائل الأصول والقضايا الهامة دون بحث ولا تجلية ، وقد أدى الإعراض عن هذه المباحث القرآنية إلى نتائج علمية غير محمودة.

وينبوع كل خير، وجماع كل هدى " [٣] .

يقول الشيخ السعدي في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم: " هذا الأصل الكبير قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه صلى الله عليه وسلم " .[١] أهـ.

خامساً: ومما يحسن الإشارة إليه أن الحجج والبراهين التي يسوقها القرآن لتقرير أصول الدين مع قطعيتها ويقينيتها سهلة التناول، قريبة الفهم، مباشرة الدلالة، عميقة الاستدلال، يفهمها كل مكلف، ويذعن لها كل عاقل .

وهذا بخلاف كثير من الحجج التي يسوقها الفلاسفة والمتكلمون فبالإضافة إلى كون بعضها غير دالٍ على المقصود أصلاً، إما لعدم صحته في نفسه أو لعدم صحته في الدلالة على المسألة المعينة، فإنها عسيرة الفهم، صعبة الإدراك. فهي كلحم جملٍ غثٍ على جبلٍ وعرٍ، لا سهلٍ فيرتقى ولا سمينٍ فينتقل .

والناس كلما اشتدت حاجتهم لأمر يسر الله أسباب الوصول إليه، "كما يتيسر ما كانت حاجتهم إليه في أبدانهم أشد، فلما كانت حاجتهم إلى النفس والهواء أعظم منها إلى الماء كان مبذولا لكل أحد في كل وقت، ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى القوت كان وجود الماء أكثر .

(٣) شرح الأصفهانية (١٥٤- ١٥٥) مختصرا .

(١) القواعد الحسان (ص ١٩)

وكذلك لما كانت حاجتهم إلى معرفة الخالق أعظم، كانت آياته ودلائل ربوبيته وقدرته وعلمه ومشيئته وحكمته أعظم من غيرها، ولما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرسل – بعد ذلك – أعظم من حاجتهم إلى غير ذلك أقام الله سبحانه من دلائل صدقهم وشواهد نبوتهم، وحسن حال من اتبعهم ، وسعادته ونجاته، وبيان ما يحصل له من العلم النافع والعمل الصالح، وقبح حال من خالفهم وشقاوتهم وجهله وظلمه، ما يظهر لمن تدبر ذلك"[٢] .

سادساً: أعود فأقول : إن القرآن حين بين للناس كل ما يحتاجون إليه، جاءهم فيه بأحسن طريق، وأقوم تنظيم لا يمكن أن تهتدي عقولهم إلى ما هو أحسن ولا أعظم منه ذلك أنه تنزيل الحكيم الحميد، الذي يعلم خلقه ويعلم ما يُصلحهم وما يصلح لهم : ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] .

ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

فالشريعة التي جاء بها القرآن لا يمكن أن يكون هناك ما هو أهدى منها.[١]

سابعاً: إن الله تعالى لم يحوجنا إلى غير القرآن وما جاء به محمد صلى الله

---

(٢) الجواب الصحيح (٥/ ١٤١) وانظر: (٥/ ٤٣٥-٤٣٦)

(١) انظر: أضواء البيان . فقد تكلم الشيخ الشنقيطي – رحمه الله – في تفسير هذه الآية بكلام جيد متين .

عليه وسلم في معرفة الحق والإيمان به، فهو كافٍ في بيان العلم النافع والعمل الصالح، يقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١] فهو كاف في بيان الحق والدعوة إليه، ولا يحتاج معه المسلم إلى غيره حتى ولو كانت الكتب السابقة، فعن جابر رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه النبي صلى الله عليه وسلم فغضب، فقال: " أمتهوكون(٢) فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها نقية ... والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني "(٣).

---

(٢) قال أبو عبيد: " يقول: أمتحيرون أنتم في الإسلام لا تعرفون دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى ." أهـ غريب الحديث لأبي عبيد (١/ ٣٩٠)
وانظر: غريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٥٠٤)

(٣) رواه الإمام أحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمي (١/ ١١٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٥/ ٢) .
والحديث جيد .
انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٨٤)، إرواء الغليل (٦/ ٣٤)

المبحث الثاني: عظيم حاجة الخلق إلى النبوة.

حاجة الخلق إلى النبوة فوق كل حاجة، وضرورتهم إليها تفوق كل ضرورة، وكل أمر يمكن أن يتصور فقده إلا الاهتداء بنور الرسالة؛ إذ بفقدها خراب الدنيا والآخرة، وكل شر وبلاء في الدنيا أو الآخرة فإنما سببه الإعراض عن الرسالة وترك اتباع الرسل عليهم السلام.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " والرسالة ضرورية للعباد، لابد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة؛ وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام:١٢٢] فهذا وصف المؤمن كان ميتا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات.

وسمى الله تعالى رسالته روحا، والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب ؛ فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتا لا ترجى الحياة معه أبدا، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبدا، فلا فلاح إلا باتباع الرسول، فإن الله خص بالفلاح أتباعه المؤمنين وأنصاره، كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الأعراف:١٥٧]، أي: لا مفلح إلا هم .

والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة .

ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف مننه عليهم: أن أرسل إليهم رسله ؛ وأنزل عليهم كتبه ؛ وبين لهم الصراط المستقيم . ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشر حالا منها .

وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر ؛ والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته ؛ ولا كحاجة العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب ؛ بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده " .[١]

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٩/ ٩٣-١٠١) مختصراً .

ويقول ابن القيم: " لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا، ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء، ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل، كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي "[2].

(٢) زاد المعاد (١/ ٦٩)

الفصل الثاني:
دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم :

المبحث الأول : بشارات الأنبياء السابقين عليهم السلام .

لقد قرر القرآن الكريم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بما ثبت عند الأنبياء السابقين عليهم السلام من البشارة به صلى الله عليه وسلم والإخبار عن مبعثه، كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام : (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦) [الصف:٦] .

يقول صلى الله عليه وسلم : " أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام " [(١)].

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن لي أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة، وقال ابن كثير : "إسناده جيد، وله شواهد من وجوه أخرى" أ.هـ تفسير ابن كثير (٨/ ١٣٦) .

قلت : وله شاهد من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه عند الإمام أحمد (٤/ ١٢٧) وابن حبان (٨/ ١٠٦) والبيهقي في الدلائل (١/ ٨٠)، والحاكم (٢/ ٤١٨) وصححه ووافقه الذهبي.

يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب"[١] .

وجاء في الآية بلفظ التبشير، وهو الإخبار بالأمر السار ؛ لأن إخبارهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم أمرُ خيرٍ يُسر به المؤمنون، ويعود عليهم بالنفع في الدنيا والآخرة .

والإتيان بقوله ﴿مِنۢ بَعۡدِي﴾ بعد قوله : ﴿يَأۡتِي﴾ إشارة ـ والله أعلم ـ إلى تراخي مبعثه صلى الله عليه وسلم عن مبعث عيسى، وقد كان الأنبياء من بني إسرائيل ربما بعث الواحد في حياة الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ " يحتمل معنيين، أحدهما : المبالغة في الفاعل، يعني أنه أكثر حمداً له من غيره . وثانيهما : المبالغة في المفعول، يعني أنه يُحمد بما فيه من الإخلاص والأخلاق الحسنة أكثر مما يحمد غيره "[٢].

ويقول سبحانه : (وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾)

---

(١) رواه البخاري، تفسير سورة الصف (٤٨٩٦)، ومسلم كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى اللهعليه وسلم (٦١٠٦).

(٢) التفسير الكبير (٢٩/ ٢٧٢)

[الأعراف:١٥٦-١٥٧] .

في هذه الآية إجابة الله تعالى دعاء نبيه موسى عليه السلام، وذكر أنه كتب رحمته للمؤمنين الذين يتبعون الرسول الأمي الذي أخبرت عنه التوراة والإنجيل وبشرت به.

ووصفه في البشارة بالنبي الأمي وصف لا يلتبس بغيره من أنبياء بني إسرائيل، لأنهم لم يكونوا أميين، وإنما اشتهر هو صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف، فهو أمي من أمة أمية .

ثم ذكر تعالى أنه مكتوب في التوراة والإنجيل بهذه الأوصاف التي ذكرت في الآية، وهي: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

فجملة ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بيان للمكتوب عندهم [١] .

ويقول جل في علاه : (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾) [الفتح:٢٩].

(١) انظر التحرير والتنوير (٩/ ١٣٤)

فهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصفة أصحابه رضي الله عنهم المذكورة في التوراة والإنجيل قصها الله تعالى علينا في كتابه .

وقد ذكر الله تعالى في غير موضع أن أهل الكتاب يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم و يعلمون صدقه ونبوته بما عندهم من العلامات والأمارات التي أخبرتهم بها رسلهم عليهم السلام .

يقول تعالى : (ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ) [البقرة:١٤٦].

وقال سبحانه : (ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ) [الأنعام:٢٠] .

فأخبر تعالى أنهم يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم وصدقه وصحة شريعته معرفة لا لبس فيها كمعرفة الأب لابنه، وهذه المعرفة إنما وصلت إليهم عن طريق أنبيائهم عليهم السلام[١] .

ويقول سبحانه : (وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ) [البقرة:١٠١].ويقول سبحانه : (وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ) [البقرة:٤١] .

قال أبو العالية : " يقول : يا معشر أهل الكتاب أمنوا بما أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لما معكم، يقول : لأنهم يجدون محمداً

(١) انظر المرجع السابق (٢/ ٣٩)

صلى الله عليه وسلم مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل "[١].

ويقول الطبري: "يعني بقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أن القرآن مصدق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة، فأوهم بالتصديق بالقرآن وأخبرهم أن في تصديقهم بالقرآن تصديقًا منهم للتوراة؛ لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه نظير الذي من ذلك في التوراة والإنجيل، ففي تصديقهم بما أُنزل على محمد ﷺ تصديق منهم لما معهم من التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة". أ.هـ[٢].

يقول السعدي : " ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ هو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه. وذكر الداعي إلى إيمانهم فقال : ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي : موافقا له لا مخالفا ولا مناقضا ...وأيضا فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به كذبتم ببعض ما أنزل إليكم ... الخ"[٣].

ويقول سبحانه : (وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ

---

(١) أخرجه ابن جرير (١/ ٦٠٠) قال ابن كثير : " وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك ". أهـ (١/ ١١٩) وانظر : التفسير الكبير (٣/ ٣٨ ، ١٨٣)

(٢) تفسير الطبري (١/ ٥٩٩).

(٣) تفسير السعدي (ص ٣٣)

كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ) [البقرة:٨٩].

عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل بعثته، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور، أخو بني سلمة : يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم : (وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ)(١).

لقد قص القرآن الكريم في العديد من المواضع علم أهل الكتابين بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وصدق دعوته وصحة رسالته وصحة القرآن الذي جاء به، وأعاد هذه القضية من وجوه متعددة كما قال سبحانه : ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧].

وهذه الآية في سورة الشعراء وهي مكية سيقت للاحتجاج على المشركين عبدة الأوثان في صحة القرآن وصحة ما جاء به وأنه من عند الله، يقول تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٧٨)

قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٧].

فإذا علم علماء بني إسرائيل صحة القرآن من خلال ما عندهم من كتبهم وأخبار أنبيائهم علموا صدق من جاء به صلى الله عليه وسلم وصحة ما دعا إليه .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] وعلماء بني إسرائيل يعلمون ذكر إرسال محمد، ونزول الوحي عليه، كما قال تعالى : ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف : ١٥٧] وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:١١٤].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:٥٢] .

وقال : ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:٥٣] .

ويعلمون المعاني التي فيه أنها موافقة لأقوال الرسل قبله في الخبر والأمر .

فإنه أخبر عن توحيد الله وصفاته وعرشه وملائكته وخلقه السماوات والأرض وغير ذلك بمثل ما أخبرت به الرسل قبله . وأمر بتوحيد الله

وعبادته وحده لا شريك له، وبالعدل والصدق والصلاة والزكاة، ونهى عن الشرك والظلم والفواحش ؛ كما أمرت ونهت الرسل قبله "[١].

ويقول سبحانه : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد:٤].

فلما حكى الله تعالى تكذيب الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يخبرهم بشهادة الله تعالى له بالرسالة وشهادة من عنده علم الكتاب، وهم علماء أهل الكتاب[٢].

يقول الحافظ ابن كثير : " والصحيح في هذا أن ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته في كتبهم "[٣]. أهـ .

ويقول السعدي : " وهذا شامل لكل علماء الكتابين، فإنهم يشهد منهم للرسول من آمن واتبع الحق، فصرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة .

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٤٠) وانظر التفسير الكبير (٢٤/ ١٤٥)، تفسير السعدي (ص٥٤٧)، التحرير والتنوير(١٩/ ١٩١)

(٢) قال به قتادة ومجاهد وغيرهما . انظر : تفسير عبد الرزاق (١/ ٢/ ٣٣٩) تفسير ابن جرير (١٦/ ٥٠٣)

وقيل: هو الله عز وجل .

انظر أيضا : معاني القرآن للزجاج (٣/ ١٥١)، تفسير البغوي (٤/ ٣٢٨) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٤)، وبنحوه قال البغوي في تفسيره (الموضع السابق)

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله، ومن هم أعلم به من غيرهم بخلاف من هو أجنبي عنه كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة من استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم "[1]. أهـ.

وقد أخبر سبحانه وتعالى عن علم أهل الكتاب بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة ما جاء به وأنه منزل من عند الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:١١٤].

يقول الحافظ ابن كثير: " ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: من اليهود والنصارى (يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين"[2]. أهـ.

ويقول تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٢-٨٣].

ويقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص (٣٧٥)

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٥)

﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [القصص:٥٢-٥٣] .

قال الرازي : " وذلك لما وجدوه في كتب الأنبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدمه " [١]. أهـ.

وإن هذه البشارات بنبوته صلى الله عليه وسلم الواردة عن الأنبياء السابقين عليهم السلام التي استدل بها القرآن وأخبر عنها لا يمكن لأحد إنكارها ولا جحودها، وقد ثبتت من عدة طرق، فمنها :

الأول : النصوص المتكاثرة الموجودة في كتب أهل الكتاب، التي فيها الدلالة على نبوته صلى الله عليه وسلم [٢].

الثاني : إخبار كثير من أهل الكتاب – الذين أسلموا والذين لم يسلموا- بهذه البشارات وأنها في محمد صلى الله عليه وسلم، كما ذكر ذلك هرقل عظيم الروم [٣]. والنجاشي ملك الحبشة [٤]. وغيرهما [٥].

وهي أخبار ليست ممن أسلم فقط – كما أسلفت – حتى يمكن

---

(١) التفسير الكبير(٢٤/ ٢٢٤)

(٢) انظر على سبيل المثال : الجواب الصحيح (٥/ ١٩٧)، هداية الحيارى ص (١١٥)، إظهارالحق (٤/ ١٠٧٨)

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم (٧)، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل رقم (١٧٧٣)

(٤) يأتي تخريجه (ص ٢٩)

((٥ انظر : الجواب الصحيح (٥/ ١٦٠)

الطعن فيها، وإنما هي ممن لم يسلم أيضا ممن عرف الحق، وصده عن الدخول فيه جاه أو سلطان أو حسد أو غير ذلك.

الثالث : أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك مرة بعد مرة، وتلاه على المشركين وأهل الكتاب مخبرا عنه ومستدلا به، ولو كان أمراً لا حقيقة له لكان هذا مغريا بتكذيبه والطعن في نبوته .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " فإنه لا ريب عند كل من عرف حال محمد –صلى الله عليه وسلم – من مؤمن وكافر، أنه كان أعقل أهل الأرض، فإن المكذبين له لا يشكون في أنه كان عنده من الخبرة والمعرفة والحذق ما أوجب أن يقيم مثل هذا الأمر العظيم، الذي لم يحصل لأحد مثله ؛ لا قبله ولا بعده، فعلم ضرورة أنه لا يفعله ولا يخبر به (بشارة الأنبياء السابقين به) وهو من أحرص الناس على تصديقه، وأخبرِهم بالطرق التي يُصَّدق بها، وأبعدهم عن أن يفعل ما يعلم أنه يكذب به .

فلو لم يعلم أنه مكتوب عندهم، بل علم انتفاء ذلك لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة، ويستشهد به، ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه، وأوليائه وأعدائه، فإن هذا لا يفعله إلا أقل الناس عقلا، لأن فيه إظهار كذبه عند من آمن به منهم ... وهو ضد مقصوده "[1] أهـ، يوضحه الوجه .

الرابع : أن المكذبين له صلى الله عليه وسلم والجاحدين لنبوته والمعادين له أشد عداوة لم يمكنهم إنكار البشارة ولا القدح فيها بوجه

[1] الجواب الصحيح (٥/ ١٨٦)

مقبول، ولم يدع أحد منهم أن هذا غير موجود في الكتب السابقة [1].

المبحث الثاني : ما يعرفه قومه من أحواله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة .

نشأ النبي صلى الله عليه وسلم بين ظهراني قومه بمكة التي ولد فيها، وشب وترعرع يتيما فرعاه جده عبد المطلب إلى أن مات، ثم كفله أبو طالب فنشأ في حجره، وقد كان صلى الله عليه وسلم مخالطًا قومه، مشاركا لهم في كافة مناشط الحياة إلا ما كان من طقوس الشرك والوثنية، ومظاهر الانحراف كشرب الخمر والزنا، فإنه كان مجانباً لها، حائدا عنها، ملتزما سنن الفضيلة متحليا بمكارم الأخلاق .

ولقد أتاحت هذه المشاركة والخلطة – في الحضر والسفر– لقومه أن يعرفوه، ويعلموا ما هو عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن السجايا، فعرفوا عنه الأمانة والصدق، وحسن العهد والوفاء بالوعد، فكان نعم الصاحب والمصاحب، وكان محل الأمانة ومستودع الوفاء .

وقد كان صدقه وأمانته محل إجماع من قومه، ومكان اتفاق من عشيرته، لا يمارون في ذلك ولا يشكون فيه، فقد ائتمنته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها واختارته قبل نبوته وقبل زواجه منها ليخرج في تجارتها لما بلغها عنه من الصدق والأمانة .

ولهذا استدلت رضي الله عنها بما تعلمه من حاله قبل النبوة على

(١) انظر : هداية الحيارى ص (١٠٥)

سلامته وصحة ما جاءه لما نزل عليه الوحي في غار حراء، فجاءها وهو خائف، وقال : " إني خشيت على نفسي " فقالت : " كلا والله لا يخزيك الله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق " . [1]

فاستدلت هذه اللبيبة العاقلة – رضي الله عنها وأرضاها – على صحة ما جاءه وما جاء به بما كانت تعرفه من أحواله قبل أن يأتيه الحق من السماء " فذكرت ما كان مجبولا عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال، وهو الصدق المستلزم للعدل والإحسان إلى الخلق، ومن جمع فيه الصدق والعدل والإحسان لم يكن مما يخزيه الله، وصلة الرحم وقرى الضيف وحمل الكل وإعطاء المعدوم والإعانة على نوائب الحق هي من أعظم أنواع البر والإحسان، وقد عُلم من سنة الله أن من جَبَلَه على الأخلاق المحمودة، ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه " [2].

ولما أراد قومه صلى الله عليه وسلم بناء الكعبة قبل الإسلام اختلفوا حين بلغوا موضع الحجر الأسود فيمن ينال شرف وضعه في مكانه حتى كادوا أن يقتتلوا، ثم رضوا بأن يحكموا أول داخل من باب البيت، فكان صلى الله عليه وسلم أول داخل فقالوا : " هذا الأمين، رضينا، هذا محمد" [3].

لقد لبث فيهم صلى الله عليه وسلم على هذا النحو أربعين سنة، لم

(١) رواه البخاري (١/ ٢٢) فتح الباري

(٢) شرح الأصفهانية ص (٩٣)

(٣) انظر : السيرة لابن هشام (١/ ٢٣٣ - ٢٣٤)

يأثروا عليه كذبا، ولم يعرفوا عنه غدرا، حتى إذا انقضت فترة شبابه وأقبل على الكهولة وسن الأشد أنزل الله عليه وحيه، وأمره بتبليغ الرسالة، فهل يعقل أن يلازم الصدق في طفولته وشبابه، ثم إذا أقبل على المشيب وبلغ أشده يقع في الكذب ويتحدث به ؟ .

وهل يعقل أن يدع الكذب على الناس حياته كلها، ثم يذهب ليكذب على الله تعالى ؟ هذا مما لا يُعرف في أحوال الناس وطبائعهم .

ولذا أخبر القرآن الكريم أنهم لا يكذبون محمدا صلى الله عليه وسلم ولا يقوون على ذلك، فإنهم لم يزالوا معترفين بصدقه وأنهم لم يجربوا عليه كذبًا ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام:٣٣] .

قال السدي: "التقى الأخفش وأبو جهل، فخلا الأخفش بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمدًا لصادق، وما كذب قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجاب والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام:٣٣] فآبان الله محمد"[1] .

وذكر ابن إسحاق في السيرة عن الزهري في قصة أبي جهل حين

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٨٣)، ورواه ابن جرير (٩/ ٢٢٢) مطولاً بعد قصة في أوله.

استمع إلى قراءة النبي ﷺ من الليل هو وأبو سفيان والأخفش بن شريق ... وفي آخره:

قال الأخفش لأبي جهل: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت عن محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه [1] .

قال الطبري: "﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ بمعنى أنهم لا يكذبون رسول الله إلا عنادًا لا جهلاً بنبوته وصدق لهجته".أ.هـ. [2] .

وقال السعدي: "﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ لأنهم يعرفون صدقك، ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك؛ حتى إنكهم كانوا يسمونه قبل بعثته الأمين"[3] .

وقال ابن عاشور: "والذي يستخلص من سياق الآية أن المراد: فإنهم لا يعتقدون أنك كاذب؛ لأن الرسول ﷺ معروف عندهم بالصدق، وكان يلقب بينهم بالأمين ... ولأن الآيات التي جاء بها لا يمتري أحد في أنها من عند الله، ولأن دلائل صدقه بينة واضحة ولكنكم ظالمون.أ.هـ.[4] .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣١٥). وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٦).

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٢٢٠)، وانظر: المحرر الوجيز (٢/ ٢٨٥)، التفسير الكبير (١٢/ ١٦٨).

(٣) تفسير السعدي (ص ٢١٧).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ١٩٩-٢٠٠).

ويقـول سـبحانه : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس:١٥-١٦] .

" فبين أنه لبث فيهم عمرا من قبله وهو لا يتلو شيئا من ذلك ولا يعلمه ولا يعلمهم به، فليس الأمر من جهته، ولكن من جهة الله الذي لو شاء ما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وتلاوته عليهم وإدراؤهم به هو من الإعلام بالغيوب الذي لا يعلمها إلا نبي "[١].

" ومحمد صلى الله عليه وسلم ما زال قومه يعرفونه بينهم بالصادق الأمين، لم تجرب عليه كذبة واحدة، ولما جاءه الروح بالوحي لم يخبر بخبر واحد كذب لا عمدا ولا خطأ "[٢].

قا ابن كثير: "﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: هنا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي فقد نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل، لا تنتقدون عليّ شيئًا تغمصوني به ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٣٥)

(٢) المرجع السابق (٥/ ٣٥٦).

الباطل ولهذا ... قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته... الخ"[1] .

وقال القرطبي: "﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من قبل القرآن تعرفونني بالصدق والأمانة، لا أقرأ ولا أكتب ثم جئتكم بالمعجزات ...

وقيل: معنى ﴿لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ أي: لبثت فيكم مدة شبابي لم أعص الله، أفتريدون مني الآن وقد بلغت أربعين سنة أن أخالف أمر الله، وأُغيّر ما ينزله عليّ"أ.هـ.[2] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " قام النضر بن الحارث فقال : " يامعشر قريش والله لقد نزل بكم ما ابتليتم بمثله، لقد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر، لا والله ما هو بسحر ... الحديث " [3].

لقد كان صلى الله عليه وسلم " من أكمل الناس تربية ونشأة، لم يزل معروفا بالصدق والبر والعدل، ومكارم الأخلاق، وترك الفواحش والظلم، وكل وصف مذموم، مشهودا له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة، وممن آمن به وممن كفر بعد النبوة، لا يعرف له شيئا يعاب به لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه ولا جرب عليه كذبة قط ولا ظلم ولا فاحشة " [4].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٢١).

(٣) رواه ابن إسحاق في السيرة . انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٢٠)

(٤) الجواب الصحيح (٥/ ٤٣٨)

وبهذا الأمر استدل العقلاء من أهل الكتاب وغيرهم على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما : أن أبا سفيان بن حرب رضي الله عنه حدثه قال : " انطلقت إلى الشام في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فبينما أنا بالشام إذ جيء بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، قال : وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقال هرقل : هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قالوا : نعم، قال فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال : أيكم أقرب نسبا إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قال أبو سفيان: فقلت أنا . فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، فدعا بترجمانه، فقال : قل لهم : إني سائل عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه . قال : فقال : " و أيم الله ! لولا مخافة أن يؤثر علي كذب لكذبت عليه ... ثم سأله مسائل، ومنها : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال أبو سفيان : لا ... وذكر الحديث وفيه : قال هرقل : وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

ثم قال في آخر الحديث : لئن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه "[١].

---

(١) سبق تخريجه .

وانظر كلامًا طويلاً في شرح الحديث، وبيان وجوه استدلال هرقل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الأمارات في شرح الأصفهانية (ص٩٣ وما بعدها) وقد سماه شيخ الإسلام : المسلك الشخصي .

المبحث الثالث : أنه صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب .

بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وكان هذا من الدلائل التي ساقها القرآن الكريم لإثبات صدقه، وأنه رسول من عند الله، أوحى الله إليه، ولم يختلق شيئا مما جاء به .

يقول الله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٨] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: "كان نبي الله أميًا لا يقرأ ولا يكتب"(١) .

قال البيضاوي: "إن ظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الشريفة من أمي لم يُعرف بالقراءة والتعلم خارق للعادة ...

﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أي: لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا لعله تعلمه أو التقطه من كتب الأولين الأقدمين"(٢) .

وقال ابن كثير: "﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ ﴾ أي تقرأ ﴿ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ لتأكيد النفي ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ ﴾ تأكيد أيضًا، وخرج مخرج الغالب، كقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام: ٣٨] .

وقوله: ﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أي: لو كنت تحسنها لارتاب

---

(١) رواه عنهما ابن جرير (١٨/ ٤٢٥)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٧١).

(٢) تفسير البيضاوي (٢/ ٢١١).

بعض الجهلة من الناس فيقول: إنما معكم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء". أ.هـ. [١] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :" بين سبحانه من حاله ما يعلمه العامة والخاصة، وهو معلوم لجميع قومه الذين شاهدوه، متواتر عند من غاب عنه وبلغته أخباره من جميع الناس: أنه كان أميا لا يقرأ كتابا، ولا يحفظ كتابا من الكتب، لا المنزلة ولا غيرها، ولا يقرأ شيئا مكتوبا، لا كتابا منزلا ولا غيره، ولا يكتب بيمينه كتابا ولا ينسخ شيئا من كتب الناس، المنزلة ولا غيرها، ومعلوم أن من يأخذ من غيره إما أن يأخذ تلقينا وحفظا، وإما أن يأخذ من كتابه، وهو لم يكن يقرأ شيئا من الكتب من حفظه، ولا يقرأ مكتوبا . والذي يأخذ من كتاب غيره إما أن يقرؤه، وإما أن ينسخه، وهو لم يكن يقرأ ولا ينسخ " [٢].

ويقول ابن عاشور : " هذا استدلال بصفة الأمية المعروف بها الرسول صلى الله عليه وسلم، ودلالتها على أنه موحى إليه من الله أعظم دلالة، وقد ورد الاستدلال بها في القرآن الكريم في مواضع كقوله : ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِى مَا ٱلۡكِتَـٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَـٰنُ﴾ [الشورى:٥٢] وقوله: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرًا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس:١٦] .

ومعنى ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ﴾ أنك لم تكن تقرأ كتابا

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩٥).

(٢) الجواب الصحيح (٥/ ٣٣٨)

حتى يقول أحد : هذا القرآن الذي جاء به هو مما كان يتلوه من قبل... ووجه التلازم بين التلاوة والكتابة المتقدمين على نزول القرآن، وبين حصول الشك في نفوس المشركين أنه لو كان ذلك واقعا لاحتمل عندهم أن يكون القرآن من جنس ما كان يتلوه من قبل من كتب سالفة، وأن يكون مما خطه من قبل من كلام تلقاه فقام اليوم بنشره ويدعو به .

وإنما جعل ذلك موجب ريب دون أن يكون موجب جزم بالتكذيب لأن نظم القرآن وبلاغته وما احتوى عليه من المعاني يبطل أن يكون من نوع ما سبق من الكتب والقصص والخطب والشعر، ولكن ذلك لما كان مستدعيا تأملا لم يمنع من خطور خاطر الارتياب على الإجمال قبل إتمام النظر والتأمل بحيث يكون دوام الارتياب بهتانا ومكابرة ... ووصف المكذبين بالمبطلين منظور فيه لحالهم في الواقع لأنهم كذبوا مع انتفاء شبهة الكذب فكان تكذيبهم الآن باطلا، فهم مبطلون متوغلون في الباطل "[١].

وفي المراد بالمبطلين في الآية قولان:

الأول: المشركون؛ قريش وغيرهم، حيث يقولون: إنما تعلم هذا وقرأه من كتبٍ قبله.

الثاني: أهل الكتاب؛ لأنهم يجدونن نعته ﷺ في كتبهم أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١١-١٠)

وانظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩٤)

قال البيضاوي: "﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أي: لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا لعله تعلمه أو التقطه من كتب الأولين الأقدمين، وإنما سماهم مبطلين لكفرهم أو لارتيابهم بانتفاء وبه واحد من وجوه الإعجاز المتكاثرة، وقيل لارتاب أهل الكتاب لوجدانهم نعتك على خلاف ما في كتبهم؛ فيكون إبطالهم باعتبار الواقع دون المقدر.أ.هـ. [(١)] .

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قال الزجاج: " ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ ﴾ أي: لبثت فيكم من قبل أن يوحى إليَّ؛ إذ كنتم تعرفونني بينكم، نشأت لا أقرأ كتابًا، وإخباري إياكم أقاصيص الأولين من غير كتاب ولا تلقين يدل على أن ما أتيت به من عند الله وحيٌ"[(٢)] .

وقال ابن عاشور: "﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ ﴾ تذكير لهم بقديم حاله المعروفة بينخم وهي حالة الأمية، أي قد كنت بين ظهرانكم مدة طويلة، وهي أربعون سنة، وتشاهدون أطوار نشأتي فلا ترون فيها حالة

---

(١) تفسير البيضاوي (٢/ ٢١١)، وانظر: تفسير الطبري (١٨/ ٤٢٦)، الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٩)، الكشاف (٤/ ٥٥٤).

(٢) معاني القرآن (٣/ ١١).

تشبه حالة العظمة والكمال المتناهي الذي صار إليه لما أوحى الله إليه بالرسالة ... الخ"[1] .

وقال السعدي: "﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ طويلاً، تعرفون حقيقة حالي بأني أمي لا أقرأ ولا أكتب ولا أدرس ولا أتعلم من أحد ... الخ"[2] .

والآية –فيما يظهر– احتجاج بعموم حاله ﷺ قبل النبوة على صدقه وصحة ما جاء به؛ فهي احتجاج بأميته التي تدل أنه لا يمكن أن يختلق ما جاء به ولا يقوى على ذلك لو أراده[3] ، واحتجاج بما كان عليه من الصدق والأمانة، واستقامة الحال، وحسن السيرة التي تدل على أنه لا يمكن أن يدع الكذب أول أمره حتى على الناس ثم يكذب آخر حياته على الله تعالى[4] ، واحتجاج –أيضاً– بمكثه الطويل أربعين سنة بين ظهرانيهم لا يدري ما الكتاب والإيمان ولم يخرج عليهم بشيء، ثم لم يفاجأهم إلا بهذا الكتاب يتلوه عليهم ويدعوهم إليه ولو شاء الله ما تلاه عليهم ولا أدراهم به.

فالآية على العموم استدلال بعموم حاله ﷺ على أنه صادق فيما جاء

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٢٠).

(٢) تفسير السعدي (ص ٣١٦). وانظر: تفسير البيضاوي (١/ ٤٣١)، روح المعاني (١١/ !٢٥).

(٣) قال البيضاوي: "قرأ عليهم كتابًا برزت فاصحته فصاحة كل منطق وعلا على كل منثور ومنظوم، واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع، وأعرب عن أقاصيص الأولين، وأحاديث الآخرين ... الخ" (الموضع السابق)، وراجع: المبحث السابع والثامن.

(٤) راجع ص ٢٧.

به، مرسل من عند الله جل وعلا [١] .

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٣٧)، المراجع السابقة.

المبحث الرابع : أنه صلى الله عليه وسلم لم يتصل بأهل الكتاب .

لقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم بما عجز الناس عن معارضته أو الإتيان بمثله، كما عجزوا عن القدح فيه، أو التماس العيوب له، فجاء القرآن الكريم الذي اشتمل على أنواع من دلائل نبوته وبراهين صدقه في العقائد والأحكام والشرائع التي لا يمكن أن يأتي بها إلا نبي أو من أخذ عن نبي .

كما أخبر بالعديد من القصص والغيوب الماضية ابتداء أو بعد سؤال المشركين وأهل الكتاب عنها ليمتحنوا صدقه فهي أخبار سبيلها الغيب فلا يعلمها إلا الأنبياء بالوحي من الله تعالى أو من تلقى عنهم .

ومن ذلك ما جاء به من قصة يوسف عليه السلام التي جاءت بكل تفاصيلها في سورة يوسف عليه السلام، وقال الله تعالى في خاتمتها: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف:١٠٢] إلى أن قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١٠٢-١١١]

وقال تعالى بعد ذكر زكريا وكفالة مريم، وذكر هبته الولد على الكبر واصطفاء مريم : ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ

يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران:٤٤].

وقال تعالى بعد قصة نوح عليه السلام :﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود:٤٩].

" فذكر سبحانه أن هذا الذي أوحاه إليه من أنباء الغيب ما كان يعلمه هو ولا قومه من قبل هذا، فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك لا من أهل الكتاب ولا من غيرهم، وهو لم يعاشر إلا قومه، وقومه يعلمون ذلك منه، ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك، ويعلمون أيضا أنه هو لم يكن تعلم ذلك، وأنه لم يكن ليعاشر غيرهم، وهم لا يعلمون ذلك صار هذا حجة على قومه وعلى من بلغه خبر قومه " (١).

لقد كان معلوما عند كل من اطلع على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم أنه جاء بأمر معجز لا يستطيعه أحد من الخلق، فقد كان معجزا من وجوه متعددة ؛ في ألفاظه ومعانيه وغيوبه وأخباره .

ومثل هذا المعجز لا يأتي به إلا الأنبياء عليهم السلام الذين يأتيهم الوحي من الله تعالى أو من نقل عن الأنبياء .

فجاء القرآن ليستدل على نبوته صلى الله عليه وسلم بأنه لم يتصل بأحد من أهل الكتب السابقة ولم يعاشرهم ؛ فضلا أن يأخذ عنهم .

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٢٣)

ولقد كان قومه – العارفون بحاله – يعلمون هذا من سيرته قبل أن يوحى إليه وبعد أن أوحي إليه .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل:١٠٣] .

وقد جاء في سبب نزول الآية أن قينا روميا كان بمكة فكان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس إليه، وفي بعض الروايات أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأتيه ويدعوه إلى الإسلام فقال بعض كفار قريش : إنما يتعلم محمد – صلى الله عليه وسلم – القرآن من هذا الأعجمي [(١)].

" وقد كشف القرآن هذا اللبس هنا بأوضح كشف إذ قال قولا فصلا دون جدال

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل : ١٠٣]، أي كيف يعلمه وهو أعجمي لا يكاد يبين، وهذا القرآن فصيح عربي معجز "[(٢)].

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم " لا يحسن أن يتكلم بلسان العجمي وذاك لا يحسن أن يتكلم بهذا الكلام العربي، فلما قالوا : إنه افترى هذا القرآن، وأنه علمه إياه بشر، قال تعالى : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾

(١) انظر تفسير الطبري (١٤/ ٣٦٤)، تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٣) . الدر المنثور (٩/ ١١٥)

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨٧)

أي يضيفون إليه هذا التعليم، وينسبونه إليه .

وعبر عنه بلفظ الإلحاد لما فيه من الميل، فقال : لسان هذا الشخص الذي قالوا إنه يعلمه القرآن لسان أعجمي، وهم لم يمكنهم أن يضيفوا هذا التعليم إلى رجل عربي، بل إلى هذا الأعجمي، لكونه كان يجلس أحيانا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك الأعجمي لا يمكنه التكلم بهذا الكلام العربي، بل هو أعجمي،ومحمد لا يعرف بالعجمية، لكن غاية ذلك الأعجمي ... أنه يعرف قليلا من كلام العرب الذي يحتاج إليه في العادة مثل الألفاظ التي يحتاج إليها في غالب الأوقات، كلفظ الخبز والماء والسماء والأرض، ولا يعرف أن يقرأ سورة واحدة من القرآن " [١].

وقد جاء الرد على زعمهم في الآية من وجهين:

الأول: أن هذا القرآن معجز بألفاظه العربية، فكيف يمكن أن يتلقاه من رجل أعجمي اللسان، لا يعرف العربية ولا يتقنها فضلاً أن يأتي بأرفع الكلام وأوضحه وأعلاه.

الثاني: أن العلوم العظيمة المفضلة التي جاء بها القرآن لا يمكن أن يتلقاها ﷺ على هذا التفصيل والبيان ممن لا يحسن العربية.

وقد جاء التعبير في الآية بقوله: ﴿بَشَرٌ﴾ ليجمل القول ويتضمن الرد عليه؛ إذ من عرف القرآن الكريم وخبر ما جاء به محمد ﷺ يدرك أنه لا يمكن أن يكون من تعليم بشر ولا تلقينه؛ كائنًا من كان؛ فجاء التعبير عن

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٣٢)

قولهم بما يشمل رده ودحضه وبيان بطلانه وكذبه.

وفي سياق الرد على كذبهم وشبهتهم لم يكتف السياق ببيان أن الذي يلحدون إليه أعجمي والقرآن عربي –مع أنه كان كافيًا في رد شبهتهم– ولكن جاء وصف القرآن بأنه ﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ فقد جاء بأحسن الألفاظ في أجود النظوم والتراكيب، كما جاء مبينًا عن المعاني العظيمة الجليلة التي يتضمنها بأحسن سبيل.

ولا يعرف شيء من الكتب –حتى السماوية منها– قد جاء ببيان ما يحتاج إليه الناس في عاجلهم وآجلهم كما جاء به القرآن الكريم [(١)] .

فهذا الدليل الذي أشار إليه القرآن هو من أعظم الدلائل على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم وأنه رسول من عند الله تعالى ليس بكاذب ولا ساحر ولا كاهن، فإن القرآن الكريم مملوء من أخبار الغيب، وقصص الماضين كقصة آدم عليه السلام وزوجه وإسكانه الجنة ثم إخراجه منها، وقصة نوح عليه السلام ودعوته قومه، وتكذيبهم له ولبثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما وإهلاكهم بالغرق، وقصة إبراهيم الخليل عليه السلام وما جرى له مع قومه، وخبر إلقائه في النار، ومجيء الملائكة إليه في صورة ضيفان، وذهاب الملائكة إلى لوط عليه السلام وما جرى له مع قومه، وكيف أهلكهم الله تعالى، وقصة مدين، وهود عليه السلام وقومه، وصالح عليه السلام وقصة الناقة وتكذيب قومه له، وقصص بني إسرائيل وما

---

(١) راجع ما يأتي في المبحث السابع والثامن.

جرى لهم مع أنبيائهم عليهم السلام، ومبعث موسى عليه السلام وأحواله مع قومه، وقصته مع فرعون وكيف أغرقه الله تعالى في اليم، ونحو ذلك من القصص التي ذكرها القرآن الكريم عن الأنبياء عليهم السلام كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف و داوود وسليمان و زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، وما قصه الله تعالى عن غير الأنبياء كقصة الخضر وأصحاب الكهف وذي القرنين وصاحب الجنتين، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، وغير ذلك من القصص والأخبار التي جاء سياقها في القرآن مفصلة مبينة بأحسن بيان، وهي أمور لا تدرك بالعقل ولا يعرفها الناس إلا من جهة الأنبياء الذين أوحى الله إليهم بذلك، فإما أن يكون هو صلى الله عليه وسلم نبيا تلقاه من الله تعالى، أو يكون أخذه من أتباع الأنبياء، وهذا الاحتمال الثاني نسوقه من باب التنزل وإلا فإن ما أخبر الله تعالى به في كتابه مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لا يوجد مثله على هذا النحو من التفصيل والبيان في كتب أهل الكتاب مع ما أتى عليها من التحريف والتغيير والتبديل، ومع ذلك فإن احتمال أن يكون أخذه عن أتباع الأنبياء من أهل الكتاب غير وارد لأنه صلى الله عليه وسلم بشهادة أعدائه وأوليائه لم يجتمع بأحد من أهل الكتاب لا قبل النبوة ولا بعدها، ولا كان عنده بمكة من يعرف هذه الأخبار لا من أهل مكة ولا غيرهم، ومما يشهد لذلك ويدل عليه أمور منها :

أولاً: أن أكثر قومه كانوا من أعظم الناس عداوة له، وحرصا على

تكذيبه والطعن فيه، وبحثا عما به يقدحون فيه، فلو كان تعلم هذا الأخبار من أهل الكتاب لطعنوا عليه بذلك وأظهروه واتخذوه ذريعة لرد دعوته، وتكذيب رسالته، فلما لم يفعلوا مع تمام علمهم بحاله وسيرته وحياته علم أن ذلك لم يقع .

ثانياً: أنه لو تعلم هذه الأخبار من أهل الكتاب لكانوا يخبرون بذلك ويظهرونه خصوصا مع شدة عداوة أكثرهم له، وحرصهم على انخفاض دينه، فلما لم يفعلوا دل على أنه لم يأخذ ذلك عنهم .

وكل من خبر سيرته مع أهل الكتاب، وما جرى بينه وبينهم من النزال ؛ تارة بالحجة والبرهان، وتارة بالسيف والسنان، وهو في كل مرة يظهر عليهم بالدليل والحجة، وبالسيف والقوة حتى سبى نساءهم وقتل مقاتلتهم وأجلاهم من أرضهم، ثم يعلمون أنه تلقى دينه عنهم ولا يظهرون ذلك ولا يحتجون به عليه، هذا من أمحل المحال وأظهر الباطل .

ثالثاً: أن أحواله وأخباره صلى الله عليه وسلم من حين مولده إلى حين وفاته معلومة مستفيضة مشهورة تناقلها الناس، وحكوا دقائقها في حياته العامة والخاصة، فلا يمكن لمثل هذا الأمر العظيم الذي له أثر على دعوته أن يحصل ثم لا ينقل، بل ولا يعرف به أحد .

وغير ذلك من الدلائل والبراهين التي تدل على أنه لم يتصل بأحد من أهل الكتاب ولم يأخذ عنهم شيئا من شريعته إلا ما أوحاه الله تعالى إليه [1] .

---

(١) انظر : الجواب الصحيح (٥/ ٣٨٧ وما بعدها)

المبحث الخامس: إتيانه ﷺ بمثل ما جاءت به الأنبياء عليهم السلام من أصول الدين.

ابتعث الله تعالى رسله عليهم السلام إلى الناس لدعوتهم إلى توحيده وإخلاص العبادة له، وتحذيرهم من الشرك وعبادة غير الله تعالى من الأشجار والأحجار، والكواكب والنجوم والبشر والجن، والأولياء والأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥].

كما ابتعث الرسل عليهم السلام بالدعوة إلى أصول الأخلاق التي فطر الناس عليها كالصدق والعدل والأمانة، وتحريم الكذب والظلم والفواحش. وهي أصول اتفقت عليها دعوات الرسل عليهم السلام ؛فكلهم يدعون إلى الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وإن اختلفوا في الشرائع والمنهاج ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة:٤٨].

يقول جل وعلا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن بدعا من الرسل عليهم السلام ،بل جاء بمثل ما جاءت به الرسل من قبله فدعا إلى توحيد الله وإخلاصه وإفراده بالعبادة والدعاء والتوكل والرغبة والرهبة، وأمر

بالصدق والعدل والكرم والوفاء ومكارم الأخلاق ، ونهى عن الشرك والظلم والفواحش والكذب والخيانة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه: "جميع ما يذكره الله تعالى من قصص الأنبياء يدل على نبوة محمد بطريق الأولى؛ إذ كانوا من جنس واحد، ونبوته أكمل، فينبغي معرفة هذا، فإنه أصل عظيم "[١].أهـ.

ولقد كان هذا التوافق بين دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ودعوة سائر الأنبياء عليهم السلام مما استدل به القرآن الكريم على صحة نبوته وصدق دعوته، يقول الله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات:٣٥-٣٧].فليس ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم شعرا ولا ضربا من الجنون، بل هو حق من الله تعالى موافق لما جاءت به الرسل الكرام عليهم السلام، يقول أبو حيان : " ثم أخبر أنه صدق من تقدمه من المرسلين ؛ إذ هو وهم على طريقة واحدة في دعوى الأمم إلى التوحيد وترك عبادة غيره "[٢].أهـ.

ويقول السعدي : " وصدق – أيضا – المرسلين بأن جاء بما جاؤوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصدق رسالتهم ونبوتهم وشرعتهم "[٣]. أهـ.

---

١)) النبوات (١/ ٢٠٣).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٧٤٣)

(٣) تفسير السعدي (ص ٦٤٨)

ويقول ابن عاشور : " وأتبع ذلك بتذكيرهم بأنه ما جاء إلا بمثل ما جاءت به الرسل من قبله، فكان الإنصاف أن يلحقوه بالفريق الذي شابههم دون فريق الشعراء أو المجانين .

وتصديق المرسلين يجمع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إجمالا وتفصيلا، لأن ما جاء به لا يعدو أن يكون تقريرا لما جاءت به الشرائع السالفة فهو تصديق له ومصادقة عليه، أو أن يكون نسخا لما جاءت به بعض الشرائع السالفة .

والإنباء بنسخه وانتهاء العمل به تصديق للرسل الذين جاؤوا به في حين مجيئهم به، فكل هذا مما شمله معنى التصديق، وأول ذلك إثبات الوحدانية له تعالى .

فالمعنى : أن ما دعاكم إليه من التوحيد قد دعت إليه الرسل من قبله "[1].أهـ.

ويقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة/ ١٠١] .

ويقول سبحانه: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة:٤١] .

يقول السعدي :"﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي موافقا له، لا مخالفا ولا

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٨)

مناقضا له، فإذا كان موافقا لما معكم من الكتب غير مخالف لها فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاء به المرسلون فأنتم أولى من آمن به وصدق به لكونكم أهل الكتاب والعلم .

وأيضا فإن قوله:(مصدقا لما معكم) إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم ؛ لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء فتكذيبكم له تكذيب لما معكم ... الخ "[١].

ويقول ابن عاشور: " ... أتى بالحال التي هي علة الصلة ؛ إذ جعل كونه مصدقا لما في التوراة علامة على أنه من عند الله، وهي العلامة الرئيسية المناسبة لأهل العلم من أهل الكتاب، فكما جعل الإعجاز اللفظي علامة على كون القرآن من عند الله لأهل الفصاحة والبلاغة من العرب ... كذلك جعل الإعجاز المعنوي، وهو اشتماله على الهدى الذي هو شأن الكتب الإلهية علامة على أنه من عنده لأهل الدين والعلم بالشرائع ... والمراد من كون القرآن مصدقا لما معهم أنه يشتمل على الهدى الذي دعت إليه أنبياؤهم من التوحيد، والأمر بالفضائل، واجتناب الرذائل، وإقامة العدل، ومن الوعد والوعيد والمواعظ والقصص ... الخ" [٢].

وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن أهل الكتاب يعلمون صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة ما جاء به لأنهم يجدونه مصدقا لما معهم

---

(١) تفسير السعدي (ص ٣٣)

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٥٨-٤٥٩)

من الكتاب، يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " وعلماء بني إسرائيل يعلمون ذكر إرسال محمد ﷺ، ونزول الوحي عليه، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:١١٤].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [القصص: ٥٢].

وقال: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص: ٥٣].

ويعلمون المعاني التي فيه أنها موافقة لأقوال الرسل قبله في الخبر والأمر.

فإنه أخبر عن توحيد الله وصفاته وعرشه وملائكته، وخلقه السماوات والأرض وغير ذلك بمثل ما أخبرت به الرسل قبله، وأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وبالعدل والصدق والصلاة والزكاة، ونهى عن الشرك والظلم والفواحش، كما أمرت ونهت الرسل قبله.

والسور المكية نزلت بالأصول الكلية المشتركة، التي اتفقت عليها الرسل التي لا بد منها، وهي الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من

الأولين والآخرين دينا غيره .

وأما السور المدنية ففيها هذا، وفيها ما يختص به الرسول صلى الله عليه وسلم من الشرعة والمنهاج ؛ فإن دين الأنبياء واحد كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إنا معشر الأنبياء ديننا واحد "[1]، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٣] ... "[2].

ويقول ابن عاشور: " ومعنى علم الذين أوتوا الكتاب بأن القرآن منزل من الله أنهم يجدونه مصدقا لما في كتابهم، وهم يعلمون أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يدرس كتابهم على أحد منهم ؛ إذ لو درسه لشاع أمره بينهم، ولأعلنوا ذلك بين الناس حين ظهور دعوته، وهم أحرص على ذلك، ولم يدعوه ... الخ "[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، قول الله: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ ...﴾، ومسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام رقم (٢٣٦٥)

(٢) الجواب الصحيح (٥/ ٣٤٠-٣٤٢)

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ١٦)

ويقـــول تعـــالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٦-١٩٧] .

أي أن الهدي الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم في كتب الأنبياء السابقين كالتوراة والإنجيل .

قال ابن عاشور: " المعنى: أن ما جاء به القرآن موجود في كتب الأولين ... ولا تجد شيئا من كلام المسيح عليه السلام المسطور في الأناجيل غير المحرف عنه إلا وهو مذكور في القرآن . والمقصود : أن ذلك آية على صدق أنه من عند الله، وهذا معنى كون القرآن مصدقا لما بين يديه " [(١)].

ثم قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء :١٩٧].

فعلماء بني إسرائيل يعلمون صدق القرآن، وصدق ما جاء به، ويعلمون أن ماجاء به مطابق لما عندهم من الكتب السماوية التي لم تحرف، ويعلمون أن ما جاء به من الأصول والعقائد والقواعد موافق لما جاءت به الرسل عليهم السلام [(٢)].

ولما كان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم موافق لما جاءت به الرسل عليهم السلام قبله، كان التكذيب له تكذيب لمن قبله من المرسلين على وجه الحقيقة ؛ لأن الدعوة واحدة.

---

(١) المرجع السابق (١٩/ ١٩٢)

(٢) انظر: الجواب الصحيح (٥/ ٣٤١)، تفسير ابن كثير (٦/ ١٧٣)، التحرير والتنوير (١٩/ ١٩٢)

يقول ابن القيم: " إنه لا يمكن الإيمان بنبي من الأنبياء أصلا مع جحود نبوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنه من جحد نبوته فهو لنبوة غيره من الأنبياء أشد جحدا، وهذا يتبين بوجوه: ...

الوجه الثاني: أن دعوة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه هي دعوة جميع المرسلين قبله من أولهم إلى آخرهم، فالمكذب بدعوته مكذب بدعوة إخوانه كلهم، فإن جميع الرسل جاؤوا بما جاء به، فإذا كذبه المكذب فقد زعم أن ما جاء به باطل، وفي ذلك تكذيب كل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله، ولا يمكن أن يعتقد أن ما جاء به صدق وأنه كاذب مفترٍ على الله "[١].

وقد استعمل العقلاء المنصفون والباحثون عن الحق هذا الطريق لمعرفة صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته وأنه ليس بكاذب ولا مجنون، فهذا ورقة بن نوفل لما أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما رآه وسمعه في غار حراء مبدأ نزول الوحي، وكان ورقة قد تنصر وكان يكتب الإنجيل بالعبرانية قال له: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى، وإن قومك سيخرجونك فقال صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ فقال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[٢].

---

(١) هداية الحيارى (ص ٣٥٩)

(٢) رواه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم رقم (٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم رقم (٤٠٣)

وبمثل هذا الطريق استدل النجاشي ملك الحبشة لما سمع القرآن من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة فقال: " إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة "[1].

فهؤلاء الكتابيين لما رأوا أحواله وسمعوا ما جاء به استدلوا على صحته بموافقة ما عند الأنبياء السابقين عليهم السلام .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " المدعي للرسالة في زمن الإمكان إذا أتى بما ظهر به مخالفته للرسل علم أنه ليس منهم، وإذا أتى بما هو من خصائص الرسل علم أنه منهم، لا سيما إذا علم أنه لابد من رسول منتظر ... الخ" [2].

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٠١)، وابن إسحاق في السيرة . انظر سيرة ابن هشام (١/ ٣٦٢) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٩٥) بألفاظ متقاربة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٤) " رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح " أهـ

(٢) شرح الأصفهانية (ص٩٣)

وانظر ص (٩١، ١٠٥، ١٥٠ وما بعدها) ففيها كلام نفيس يتعلق بهذا المبحث

المبحث السادس: ما أظهر تعالى على يديه صلى الله عليه وسلم من المعجزات والدلائل الباهرات.

ابتعث الله تعالى رسله عليهم السلام وأيدهم بالدلائل والآيات، والبراهين والمعجزات[1] التي تشهد بصدقهم، وتؤيد نبوتهم، وتحمل الناس

---

(١) الدلائل التي تشهد على نبوة الأنبياء تسمى في القرآن الكريم:

آية كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ [الإسراء / ١٠١].

وقوله: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾[الأعراف / ٧٣].

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ [المؤمنون / ٥٠].

وقوله: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر / ١-٢].

وتسمى بينة: كقوله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام / ١٥٧].

وقوله: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [الأعراف / ٧٣].

وقوله: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ [هود / ٥٣].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ [البقرة / ٩٢].

وتسمى برهاناً: كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء / ١٧٤].

وقوله: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [القصص / ٣٢].

وبعض أهل العلم يسميها معجزات، ويعرفونها بأنها:

الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدي، السالم عن المعارضة ... وزاد بعضهم: اقترانها بدعوى النبوة.

=

على الإيمان بما جاؤوا به، يقول صلى الله عليه وسلم: " ما من نبي إلا وأوتي على ما مثله آمن البشر "[٢] .

وقد قص الله تعالى في كتابه آيات الرسل عليهم السلام، فهذا صالح عليه السلام قال لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [الشعراء: ١٤٢-١٤٣].

فقالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤] فأيده الله ببرهان من عنده: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء/ ١٥٥].

فكانت آية بينة ومعجزة واضحة كما قال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ﴾ [الأعراف/ ٧٣]، وقال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء/ ٥٩] .

وهذا إبراهيم الخليل عليه السلام كانت النار التي كاده قومه بها بردا وسلاما عليه: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء/ ٦٩].

= والحق أنما ما جاء في النصوص أدل على المقصود ؛ إذ دلائل النبوة وآيات الأنبياء أعم من أن تكون مقرونة بالتحدي أو دعوى النبوة، فآيات الأنبياء قد تكون قبل إنبائهم وقد تكون بعده، فولادة عيسى عليه السلام من غير أب من آياته، ولم يكن بعد قد أوحي إليه. وكثير من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم تكون بين أصحابه رضي الله عنهم غير مقرونة بتحد كتكثير الماء والطعام .

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي (٤٩٨١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم (١/ ١٣٤)

وهذا موسى الكليم عليه السلام قال عنه : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝١٠١ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء/ ١٠١-١٠٢].

وقد كانت المعجزات التي أجراها الله على يد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أحد الدلائل التي ساقها القرآن للاحتجاج على نبوته .

يقول السعدي: " يقرر (القرآن) رسالته صلى الله عليه وسلم بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات الدال كل واحد منها بمفرده – فكيف إذا اجتمعت – على أنه رسول الله الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ".[1] أهـ.

ومن هذه الآيات التي ساقها القرآن لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، حادثة الإسراء والمعراج .

يقول تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء/ ١].

فذكر تعالى منته على عبده وأنه أسرى به بين المسجدين العظيمين، فأخبر قومه حين أصبح فسارعوا إلى إنكاره كعادتهم في التكذيب، وأخبرهم عن نعته وصفته، ولم يكن رآه قبل ذلك، وأخبرهم خبر عيرهم

(١) القواعد الحسان (ص٢٣)

التي كانت في الطريق، فكان هذا آية على صدقه، عن جابر رضي الله عنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا انظر إليه ". [٢]

وقد رفعه الله تعالى درجات في هذا الإسراء حيث أم الأنبياء بمسجد بيت المقدس، وأراه من آياته ما ثبّت به نبوته وازداد به هدى وبصيرة ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء / ١]، ثم عرج به إلى السماء وأراه من آياته جل وعلا كما قال سبحانه: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم / ١٢-١٨] .

فقطعه صلى الله عليه وسلم للمسافات الطويلة في المدة القصيرة، وإخباره بما رآه من الغيب والملائكة والأنبياء، وأحوال السماء، والجنة والنار، وجبريل عليه السلام والبيت المعمور وسدرة المنتهى ؛ كل ذلك من آيات الله الكبرى التي أراها عبده صلى الله عليه وسلم معجزة له وبرهانا على نبوته .

والذين آمنوا به صلى الله عليه وسلم قبل، وقبلوا رسالته يصدقونه

---

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة بني إسرائيل رقم (٤٧١٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم (١/ ١٠٩)

فيما أخبر به من الإسراء والمعراج، والذين لم يؤمنوا يدرك المنصف منهم صدق خبره فيما غاب بما أخبر به مما يعرفه كإخباره عن صفة بيت المقدس ونعته وهو لم يكن رآه من قبل .

كما يعلم أهل الكتاب صدقه لأن ما أخبر به من الآيات هو من جنس ما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام، وبعضه موجود في كتبهم .

وحادثة الإسراء والمعراج شأنها شأن بعض دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، هي من الفتن التي يبتلي بها الله عباده فتكون تثبيتا لأقوام وفتنة لآخرين كما قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء / ٦٠] .

قال ابن عباس: " هي رؤيا عين أريها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به "(١) .

ومن آياته التي ذكرها القرآن استدلالا على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم حادثة انشقاق القمر كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر / ١-٥] .

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً﴾ (٨/ ٣٩٨ فتح الباري) وبهذا فسرها مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبدالرحمن بن زيد وغيرهم .
انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٨٩)

عن أنس رضي الله عنه قال: " إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما "[(١)].

وفي رواية: فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ١-٢][(٢)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى فقال: " اشهدوا "[(٣)].

ولما تعنت هؤلاء المشركون وقالوا: سحرنا محمد، جاء السفار من كل جهة فأخبروا أنهم رأوا القمر تلك الليلة وقد انشق فرقتين[(٤)].

فبين جل وعلا أن انشقاق القمر آية من آيات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن هذا هو المقصود من انشقاقه ليعتبر الناس ويؤمنوا ويصدقوا، ولكن من طمس على قلبه وغلبت عليه الغفلة فإنه يعرض، ويرد هذه الآية بما يعلم أنه كذب وباطل .

فالمانع لهم من التصديق والإيمان بعد هذه الآية البينة هو أنهم ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾، وإلا فإنه قد جاءهم من الآيات والحوادث ما فيه

---

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر (٧/ ١٨٢ فتح الباري)،ومسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر (٤/ ٢١٥٩) رقم (٢٨٠٢).

(٢) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، سورة القمر، (٥/ ٣٩٧) رقم (٣٢٨٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر (٧/ ١٨٢ فتح الباري)، ومسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر، (٤/ ٢١٥٨) رقم (٢٨٠٠) .

(٤) رواه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٦٥-٢٦٦) وأبو نعيم في الدلائل (١/ ٣٦٩-٣٧٠) وأبو داوود الطيالسي في المسند (٣٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

واعظ وزاجر لهم عن التمادي في الكفر والإعراض ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ .

قال الخطابي: " انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء "[١].

وقال ابن كثير عن انشقاق القمر: ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وهذا أمر متفق عليه بين العلماء، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .[٢]. أهـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: " ذكر الله انشقاق القمر، وبين أن الله فعله، وأخبر به لحكمتين عظيمتين:

إحداهما: كونه من آيات النبوة، لما سأله المشركون آية فأراهم انشقاق القمر .

والثانية: أنه دلالة على جواز انشقاق الفلك، وأن ذلك دليل على ما أخبرت به الأنبياء من انشقاق السماوات " [٣].

فهذه الآيات والبراهين التي ذكرها القرآن لنبينا صلى الله عليه وسلم هي دليل على نبوته، لأن هذه المعجزات التي لم يعتد جنسها لغير الأنبياء ولا معارض لها هي من خصائص الأنبياء عليهم السلام، والله تعالى " لا يؤيد كذاباً بمعجزة لا معارض لها، لأن في ذلك من الفساد والضرر بالعباد

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٤٧) مختصراً.

(٣) الجواب الصحيح (٦/ ١٥٩).

ما تمنعه رحمته، وفيه من سوء العاقبة ما تمنعه حكمته، وفيه من نقض سنته المعروفة وعادته المطردة ما تعلم به مشيئته، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٧﴾ [الحاقة / ٤٤-٤٧]"[١].

والله أعلم .

---

(١) شرح الأصفهانية (ص١٦٠).

المبحث السابع: صدق القرآن وعجز الكفار عن معارضته .

اقتضت سنة الله تعالى في خلقه أن يرسل الرسل عليهم السلام مبشرين ومنذرين، ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ويدلوهم إلى الصراط المستقيم، ويحذروهم من طريق الغواية والشر الذي يوصل إلى الجحيم، فبهم تتبين المحجة، وتقوم الحجة على المكلفين ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء/ ١٥].

وكان من لوازم هذا الإرسال أن تقوم الدلائل والبينات على صدق هذا الرسول وأنه من عند الله تعالى ، حتى يتبين النبي الصادق من المتنبئ الكاذب وحتى تقوم الحجة على الخلق، يقول صلى الله عليه وسلم :(مامن نبي إلا وأوتي على مامثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" . [١].

ولقد كان أعظم ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، بل ما جاء به الرسل كافة كتاب الله ، القرآن الكريم ؛ الكتاب والآية والبرهان والذي وقع به التحدي دون سائر آيات محمد صلى الله عليه وسلم " [٢].

فإن آياته صلى الله عليه وسلم الدالة على نبوته كثيرة متعددة، و البراهين على صدقه متنوعة، حتى لقد عدها بعض من ألف في دلائل النبوة

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) انظر: النبوات (١/ ٥٤١)

فنافت على الألف آية ، وهي كلها تشهد له بصدق ما جاء به وصدق ما يدعو إليه ؛ إذ إن الدلائل على صدقه صلى الله عليه وسلم وأنه من عند الله لا تقتصر على القرآن الذي وقع به التحدي كما ذهب إلى ذلك المتكلمون [٣] بل كل ما يشهد على صدقه من الدلائل والبراهين كإخباره بالمغيبات وتكثير الطعام ، والماء ، وتأييده وظهوره على أعدائه ، واندحار من ناوأه وعاداه ، وما هو معروف من سيرته وخلقه من الصدق والأمانة والوفاء بالعهد ، ومن أعظم الدلائل على صدق النبوة صحة ما يدعو إليه من الخير والإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر، وبعده عن ضد ذلك وتحذيره منه، كل هذا وغيره من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم .

ويأتي في مقدمة هذه الدلائل هذا الكتاب المعجز، الذي أعجز الخلق أن يأتوا بمثله : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء/ ٨٨] .

لقد كان القرآن الكريم هو الدعوة وهو الحجة وهو المحجة .

فقد أخبر الله تعالى في غير موضع أن هذا الكتاب شاهد لصدق محمد صلى الله عليه وسلم وأنه رسول من عند الله تعالى ، وذلك لما اشتمل عليه من الحق والبرهان والهدى والنور، ولأنه فوق طاقة البشر، يعجزون أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا على ذلك .

---

(٣) انظر: المرجع السابق (١/ ٢٣٨)

وقد اختلف الناس في وجوه إعجاز القرآن، وعدوا لذلك أنواعا متعددة، فمنهم من قال: إنه معجز بفصاحته وبلاغته وبيانه .

ومنهم من قال: إعجازه في إخباره بالغيوب .

ومنهم من قال: إعجازه في المعاني التي اشتمل عليها ، ودعا إليها .

والحق أنه معجز في هذا كله .

وإن كان كثير من الباحثين يرى أن إعجازه في لغته وبيانه هو الوجه الأول الذي وقع به التحدي ، إلا أن الصواب - والله أعلم - أن إعجازه في معانيه أعظم من إعجازه في ألفاظه، وما الألفاظ إلا خادمة للمعاني .

ولئن كان هؤلاء يرون أن التحدي وقع في أقصر سورة منه ، مما عساها لايكون معه إخبار بالغيب ولا تشريع ولا كشف تجريبي ولا نحو ذلك، وإنما فيها تحقيق روعة البيان وحسن النظم ، فإننا نقول إن فيها علو المعاني وجلالتها وكمالها في كل باب ، وإن كل سورة من سور القرآن طالت أم قصرت فيها من المعاني العظيمة ما يعجز الجن والإنس ولو اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، كما أن فيها من جودة النظم وحسن السياق ما يعجزون عن إدراكه أيضا ، وهذا يظهر جليا لكل من تدبر في معانيه وعرف مقدار ما احتوته سوره وآياته من الدعوة إلى التوحيد والبر والخير، وتعريف الناس بربهم وما يجب له من الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وما ينبغي له من العبادة التي لا تجوز إلا له ، كما فيه الدعوة إلى الإيمان بالملائكة والرسل وما أنزل عليهم من الكتب ، والإيمان بالمعاد والقدر خيره وشره، وبيان سبيل المؤمنين ، وطريق الغاوين وما يحل بكل فريق منهما من الخير والشر، وغير

ذلك مما لا يعرفه الخلق إلا عن طريق الرسل عليهم السلام ، وهي من الأصول التي تكفل للناس سعادتهم في عاجلهم وآجلهم ، ولم يزالوا يعرفون ذلك من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا.

وهي قضايا لا يمكن أن يأتي بها إلا من أوحى الله تعالى إليه من الرسل الكرام، إذ المتنبئ الكذاب أو الساحر والكاهن لا يأتي بالخير أو يدعو إلى الفضيلة ، وهذا يعرفه الناس من أحوال الرسل وأحوال السحرة والكاذبين .

ولذا لا يلتبس حال هؤلاء بحال أولئك لعظيم ما بينهم من التمايز في أحوالهم وصفاتهم وما يدعون إليه ، وفي عاقبتهم ومآلهم في الدنيا ثم ما يتبع ذلك في الآخرة .

إذاً فإعجاز القرآن على الحقيقة لا يقتصر على إعجازه اللفظي بل يتعداه إلى إعجازه المعنوي .

قال ابن تيمية: "وكون القرآن معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط ، أو نظمه وأسلوبه فقط ، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط ،ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط ، ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضتهم فقط ، بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ، ومن جهة النظم ، ومن جهة البلاغة ، في دلالة اللفظ على المعنى ، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك .

ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي ، وعن الغيب

المستقبل ، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد .

ومن جهة ما يبين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية ، التي هي الأمثال المضروبة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٨٩﴾ [الإسراء/ ٨٩].

وكل ما ذكر الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه ولا تناقض في ذلك ، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له.

ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام : إنه معجز بصرف الدواعي مع تمام الموجب لها ، أو بسلب القدرة التامة ، أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً ...

فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه ، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثله أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه...الخ"[1].

وأظن أن أكثر ما وقف ببعض الباحثين المتقدمين في موضوع الإعجاز على الإعجاز اللفظي هو أنهم كانوا من المتكلمين ، فلم يستبينوا ما في القرآن الكريم – في سوره القصيرة والطويلة – من حسن المعاني التي دعا إليها في العقائد والشرائع والأخلاق ، وخصوصا في مباحث العقائد التي كانوا في جوانب منها على خطأ وزلل [2]، ولذا لم يقفوا عند جانب

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٢٨- ٤٣٤)

وانظر: النبوات (١/ ٥١٦) ، شرح الأصفهانية (ص١٦٧).

(٢) كانحراف المتكلمين في دلائل إثبات الخالق ووحدانيته وأسمائه وصفاته ، وإيجابهم أدلة منطقية لم =

المعاني كثيرا ، ولم يولوها ماتستحق من العناية والرعاية ، ولم يبرزوا ما في القرآن من تلك الجوانب، وقد كان من أسباب ذلك ما هم عليه من الانحراف في بعض أبواب العقا ئد ، ومناهج التلقي، وإثبات التوحيد والرسالة ، وغير ذلك ، فقصر بهم بحثهم وتوقفت معرفتهم عند المباحث اللفظية والبيانية ، وظنوا أن كثيرا من هذه الأصول والاستدلال عليها إنما يؤخذ من غير القرآن كالنظر والمقدمات العقلية التي سلطوها على النصوص[(١)] .

ولقد أحسنوا في بيان إعجاز القرآن الكريم في هذا الجانب ، وقد قدموا فيه جهداً مشكوراً نسأل الله أن يثيبهم عليه ، ولكن قصرت معرفتهم عن بيان ما في هذا الكتاب العظيم والمعجزة الباقية ، من المعاني الجليلة في العقائد والشرائع والأخلاق والغيوب وغير ذلك مما لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا عليه متظاهرين .

فالقرآن العظيم أكبر شاهد على صدق النبي صلى الله عليه وسلم

= ترد في الشرع ، ويعتبرون من لم يعرفها مقصرا في تحقيق الإيمان ، وكانحرافهم أيضا في طرق إثبات الرسالة ، وهم في كل ذلك يوجبون ويسلكون طرقا لم تأت بها الشريعة ؛ إما أنها غير موصلة للمقصود، أو أنها موصلة مع شيء من الضعف والوهن، ويعرضون عما في القرآن من الدلائل القطعية والأقيسة الصحيحة والأمثال المضروبة التي يفهمها كل أحد، وهي أبلغ في الوصول للمقصود والدلالة عليه . انظر للاستزادة : النبوات (١/ ٢٤٥ وما بعدها) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢) ، مجموع الفتاوى (٣/ ٢٩٣ وما بعدها).

(١) وهذا موضع يحتاج إلى مزيد بحث وتحرير، وجمع تحليل. لعل الله أن ييسر ذلك ، وهو مجال خصب للبحث .

وأنه رسول من عند الله وقد قرر الله تعالى هذا المعنى في كتابه في غير موضع، يقول سبحانه : ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [العنكبوت/ ٥٠-٥١] .

"فهو كاف في الدعوة والبيان ، وهو كاف في الحجة والبرهان" [(١)].

قال السعدي: "لما كان المقصود بيان الحق ذكر الله طريقه فقال: (أولم يكفهم) في علمهم بصدقك ، وصدق ما جئت به (أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) وهذا كلام مختصر جامع ، فيه من الآيات البينات والدلائل الباهرات شيء كثير، فإن إتيان الرسول به بمجرده ، وهو أمي من أكبر الآيات على صدقه .

ثم عجزهم عن معارضته ، وتحديهم إياه ، آية أخرى .

ثم ظهوره وبروزه جهرا وعلانية ، يتلى عليهم ، ويقال: هو من عند الله ، قد أظهره الرسول ، وهو في وقت قل فيه أنصاره ، وكثر فيه مخالفوه وأعداؤه ، فلم يخفه ، ولم يثن ذلك عزمه ، بل خرج على رؤوس

الأشهاد ، و نادى به بين الحاضر والباد بأن هذا كلام ربي فهل يقدر أحد على معارضته؟ أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته ؟ .

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة ، وتصحيحه للصحيح ، ونفي ما

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤١١) .

أدخل فيها من التحريف والتبديل .

ثم هدايته لسواء السبيل في أمره ونهيه ، فما أمر بشيء فقال العقل: ليته لم يأمر به .

ولا نهى عن شيء ، فقال العقل: ليته لم ينه عنه . بل هو مطابق للعقل والميزان، والحكمة المعقولة ، ثم مسايرة إرشاداته وهداياته وأحكامه لكل حال وكل مكان زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به .

فجميع ذلك ، يكفي من أراد تصديق الحق ، وعمل على طلب الحق ، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن ، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان ... الخ"[١].

ثم إن مما استدل به القرآن على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أنه جاءهم بهذا القرآن و نادى على رؤوس الأشهاد أن ائتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو بسوره مثله ، وأعاد عليهم التحدي مرة بعد أخرى ، وهو يقرعهم بذلك ، وينادي عليهم به ، ويطالبهم بالإيمان به أو بمعارضة ما جاء به إن كانوا لا يؤمنون ، وهم في كل مرة يعجزون بل ولا يحاولون ذلك لما انقدح في أذهانهم ووقع في قلوبهم أنه لا يمكن معارضته فقال سبحانه : ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور/ ٣٣-٣٤] .

فإن كانوا يزعمون أن محمدًا ﷺ اختلق القرآن من تلقاء نفسه فليأتوا

(١) تفسير السعدي (ص٥٨٣) باختصار يسير.

من عند أنفسهم بحديث مثله ، مادام أنه في مقدور البشر .

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فقال تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود/ ١٣] .

ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة فقال سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس/ ٣٧-٣٨] .

وكانت هذه الآيات قد نزلت والرسول صلى الله عليه وسلم بمكة ، ثم لما هاجر إلى المدينة أعاد التحدي مرة أخرى في سورة البقرة وأنزل الله : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة/ ٢٣-٢٤] .

وهذه معجزة أخرى له صلى الله عليه وسلم في هذا الكتاب، وهي إخباره بأنهم لا يفعلون ذلك أبد الدهر، لأنه ليس في مقدور البشر .

فتحديهم وعجز المعاصرين له عن معارضته هذه معجزة، وإخباره أنهم لا يفعلون ذلك ولا من يجيء بعدهم وجزمه بذلك معجزة أخرى[1] .

---

(١) انظر: الجواب الصحيح (٥/ ٤٢٥)

ولقد علم الناس وأصغى العالم – عربهم و عجمهم – من مبعثه صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا لهذا التحدي ولم يستطع أحد ؛ فردا كان أو جماعة أن يأتي بمثله أو قريب منه في حسن نظامه وجودة ألفاظه وعلو مكانته وجلالة ما يدعو إليه ، مع كثرة المعادين ووفرة المناوئين ، ومع ما جبل عليه البشر من حب الظهور والعلو ، فلو كان هذا في مقدور أحد من الخلق لما تأخر عن ذلك وهو يستطيعه ، ولكن صدق الله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة/ ٢٤].

ولقد كان العرب وهم أشد الناس حمية وأكثرهم عصبية لو يستطيعون إلى ذلك سبيلا لما تأخروا عنه أو تباطؤا عن الإتيان بمثله ، كيف وهو يقرعهم وينادي عليهم ، ويعلن بتحديهم في المحافل والمجامع الكبار ، بل أبلغ من ذلك قامت الحروب بينه وبينهم فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم وقسم أموالهم ، وهو يقول لهم :إيتوا بمثل هذا القرآن المعجز أو آمنوا بما جئت به ما دمتم معترفين بعجزكم، وأن ما جئت به فوق طاقة البشر، وأنه من عند الله تعالى الذي أرسلني إليكم ، وقد كانوا أهل اللسان وأرباب الفصاحة والبيان ، بل لم ينقل عن أحد منهم أنه حاول إلى ذلك سبيلا أو ابتغى إلى ذلك طريقا لما كانوا يعرفون - وهم أهل المعرفة – أنه ليس بمقدورهم الإتيان بمثله أو معارضته .

يقول سبحانه : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلٌّ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ

هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء/ ٨٢-٨٩] .

فالقرآن الكريم من أعظم الدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويظهر هذا على سبيل الإجمال وعلى سبيل التفصيل .

أما الإجمال: فإن القرآن الكريم فيه تحدي جميع الأمم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، أو بعشر سور ، أو بسورة مثله .

وهذا كما سبق تحد لجميع الخلق جنهم و إنسهم ، عربهم و عجمهم ، المعاصرين لنزوله والذين جاؤوا بعد ذلك ، وقد ذاع هذا التحدي وانتشر ، وعلم به العام والخاص ، وكان الكفار أحرص ما يكونون على إبطال دعوته ونقض قوله ، ولو كان في مقدورهم ؛ هم أو غيرهم الإتيان بذلك ما تأخروا عنه .

فهذا مما يورث علما يقينا أن هذا الكتاب العظيم ليس من البشر ، وإنما هو ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأما التفصيل: فما في القرآن من أوجه الإعجاز المتعددة ؛ في البلاغة والفصاحة وحسن النظم وعلو المعاني وغير ذلك من أوجه الإعجاز .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذه الأمور – وجوه إعجاز القرآن – من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة ظهر له إعجازه من هذا الوجه، ومن لم يظهر له ذلك اكتفى بالأمر الظاهر الذي يظهر له ولأمثاله، كعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله مع تحدي النبي وإخباره بعجزهم، فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد.

ودلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية، فيها الظاهر البين لكل أحد ... وفيها ما يختص به من عرفه ... فإن الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخلق والإقرار برسله، وما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا فإن الله يجود به على عباده جودا عاما ميسرا."أهـ[١].

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٣٥)

المبحث الثامن: اشتمال القرآن على التوحيد، وما يصلح الخلق .

الكلام هنا فرع عن الكلام في المبحث السابق، وإنما أفردته بمبحث مستقل لأمور، منها:

- أهميته وعظيم العناية به .
- أن كثيرا من الناس يغفل عن هذا الجانب العظيم من جوانب إعجاز القرآن وعظمته.
- ولذلك تراهم يطلبون الهدى في هذه المسائل من غير القرآن ؛ إما من أصول أصولها أو دلائل عقلية يرون أنها قطعية دون النصوص.
- أن التوحيد وإثبات ما يجب لله تعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلى هو أجل مقاصد القرآن وأعظم أغراضه .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " طرق العلم بالرسالة كثيرة جدا، ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علمنا علما يقينا أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة ...

ومن الطرق: أن من تأمل ما جاء به الرسل عليهم السلام - فيما أخبرت به وما أمرت به - علم بالضرورة أن مثل هذا لا يصدر إلا من أعلم الناس وأصدقهم وأبرهم . وأن مثل هذا يمتنع صدوره من كاذب متعمد للكذب مفتر على الله يخبر عنه بالكذب الصريح، أو مخطئ جاهل

ضال ؛ يظن أن الله تعالى أرسله ولم يرسله، وذلك لأن فيما أخبروا به وما أمروا به من الإحكام والإتقان وكشف الحقائق وهدى الخلائق، وبيان ما يعلمه العقل جملة ويعجز عن معرفته تفصيلا ما يبين أنهم من العلم والمعرفة والخبرة في الغاية التي باينوا بها أعلم الخلق ممن سواهم ... الخ"[١].

إن مما هو معلوم لكل من تدبر بإنصاف أن ما جاءت به الرسل عليهم السلام من الهدى والنور والأوامر والزواجر في الشرائع والعقائد لا يمكن لأحد من المخلوقين أن يأتي به من تلقاء نفسه ذلك أنه وحي من الحكيم الحميد الذي يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير جل وعلا [٢].

ثم إن ما جاء به القرآن الكريم أعظم مما جاءت به سائر الكتب السماوية، إذ ليس ما في الكتب مماثلا لما في القرآن من المعاني والأحكام والهدايات لا في الحقيقة ولا في الكيفية ولا الكمية [٣].

لقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الكتاب العظيم هدى ونورا للناس، يسعدون به وتصلح أحوالهم في العاجل والآجل، وكل طريق إلى الله تعالى، وإلى سعادة الدارين من غير هذا الكتاب فإنها طريق غير موصلة.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء/ ٩].

---

(١) شرح الأصفهانية (ص ١٠٤-١٠٥).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص١٥٣)

(٣) راجع (ص ٢٦)

فهذا القرآن يرشد ويدل لما هو أعدل وأعلى وأسد وأنفع من العقائد والأعمال والأخلاق والشرائع [(١)].

إن معرفة ما جاء به القرآن العظيم وما دعا إليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم طريق سديد لمعرفة صدقه وصحة ما جاء به وأنه رسول من عند الله تعالى، وبهذا استدل القرآن على نبوته صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان هذا الطريق من الطرق التي استدل بها هرقل – عظيم الروم – على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأنه رسول من عند الله تعالى، ففي حديث أبي سفيان الطويل أن هرقل سأل أبا سفيان: بم يأمركم؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة [(٢)].

لقد أكد القرآن الكريم في مواضع كثيرة على عظمة ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وما أوحي إليه في الكتاب العزيز من الهدى والنور والبينات والفرقان .

يقول سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة / ١-٢].

ويقول تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥)

تفسير أضواء البيان (٣/ ٤٠٩-٤٥٧) .

(٢) سبق تخريجه (ص٢٣) . وانظر كلام الحافظ ابن حجر في فتح الباري على هذا الحديث فإنه نفيس (١/ ٣١).

وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة/ ١٨٥] .

ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء / ١٧٤].

ويقول سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة / ١٥ – ١٦] .

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[الأعراف / ٥٢] .

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس / ٣٧] .

فغير ممكن ولا متصور أن يكون هذا الكتاب بما فيه من الإحكام والأحكام مختلقٌ، وأن يكون من جاء به كذب في نسبته إلى الله تعالى، ومن أجلى الأدلة على استحالة هذا الأمر ما فيه من تصديق الرسل السابقين عليهم السلام وما جاء به من تفصيل للأحكام والشرائع والعقائد التي تدل بلا شك ولا مرية أنه تنزيل رب العالمين .

ويقول تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود / ١].

أي: أتقنت وأحسنت، وإتقانها في ألفاظها ومعانيها وما دعت إليه

وما جاءت به[(١)].

ويقول تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود / ١٣-١٤].

ففي هذه الآيات تحدي المكذبين أن يعارضوا القرآن أو يأتوا بمثله هم ومن يظاهرهم ويعاونهم، " ثم قال تعالى: (فإن لم يستجيبوا لكم) أي: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن علمه وأمره ونهيه[(٢)]. ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ "[(٣)].

ونلحظ كيف جاء ذكر ما في القرآن من الحقائق والشرائع التي لا يمكن أن تكون إلا من عند الله تعالى في معرض الاستدلال على إعجازه، وصدق نبوة من جاء به صلى الله عليه وسلم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(١) انظر: تفسير السعدي (ص٢٣٢)

(٢) ذكر المفسرون في هذه الآية قولين :

أ – ما ذكره الحافظ ابن كثير أعلاه، وهو أن المراد: أنزله وفيه علمه .

ب– أنزله وهو عالم بإنزاله .

انظر: معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢)، تفسير البغوي (٤/ ١٦٥)، زاد المسير٠ (٤/ ٣٨) ، تفسير ابن كثير (٥/ ١٢٥) فتح القدير (٢/ ٤٨٦-٤٨٧)،

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٤)

يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النحل / ١٠١-١٠٢] .

فلما ادعى هؤلاء المكذبون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد افترى هذا القرآن من تلقاء نفسه جاء الرد عليهم بأنه منزل من عند الله وأن من جاء به رسول الله، والدليل على ذلك اشتماله على الحق الذي لا يلتبس، والنور الذي لا تعشى عنه إلا أبصار المعاندين .

قال السعدي: "﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: نزوله من عند الله بالحق،وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحا صحيحا ؛ لأنه إذا علم أنه الحق علم أن ما عارضه وناقضه باطل" [١]. أهـ.

ويقول سبحانه: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء / ١٠٥-١٠٦].

يقول ابن كثير: " يقول سبحانه مخبرا عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أي متضمنا للحق، قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء/ ١٦٦] أي: متضمنا علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه .

وقوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: ووصل إليك يا محمد محفوظا محروسا،

(١) تفسير السعدي (ص٤٠١)

لم يشب بغيره،ولا زيد فيه، ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى "[1]. أهـ

ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء/ ١٠].

فهذا الكتاب العظيم فيه دينكم [2]، وتذكير لكم فيما ينفعكم في العاجل والآجل[3]، وختمت الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تستخدمون عقولكم لتعرفوا ما فيه من الحق، وما دل عليه من الهدى فتعلموا صدق من جاء به وأنه رسول من عند الله تعالى .

وهذه الآية من صدر سورة الأنبياء جاءت في معرض محاجة المكذبين الذي جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوا رسالته، وأنكروا أن يكون الله تعالى قد بعثه إليهم ؛ فكانوا يستمعون الذكر ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء / ٢]، متهمين النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر، فقالوا لسفهاء قومهم: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء/ ٣]، واتهموه

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ١٢٥)

(٢) قاله الحسن . انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٦)

(٣) هذه الآية الكريمة وما شابهها كقوله تعالى: (وإنه لذكر لك ولقومك) الزخرف / ٤٤ ، للمفسرين فيها قولان:

الأول: ذكر لكم: أي تذكير لكم تتذكرون فيه وتهتدون.

الثاني: ذكر لكم: أي شرف لكم.

وعبارة بعض المفسرين تفيد جمعه بين القولين . انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٣٢٧)(٧/ ٢١٦) تفسير السعدي (ص٤٦٨، ٧٠٠)

بأنه شاعر قد افترى هذا القرآن ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء / ٥]، فجاء الرد عليهم بأنه قد جاءكم بكتاب فيه ما ينفعكم في العاجل والآجل وهذا لا يستقيم مع سيرة الساحر والشاعر الكذاب، كما أنه قد جاءكم بشيء يعجز عن مثله البشر، فأين يُذهب بعقولكم ؟ .

وهكذا نلحظ كيف يجيء الاستدلال بمضمون ما جاء في القرآن الكريم على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته .

ولقد وصف الله تعالى كتابه في مواضع متعددة من كتابه بأنه (هدى) كما قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة / ١-٢].

وقال سبحانه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف/ ٢٠٣].

وقال سبحانه: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [لقمان/ ١-٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت / ٤٤] .

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى / ٥٢] .

فسماه تعالى روحا ونورا يهدي به من يشاء ؛ لأن الروح تحيا به

الجسد، وكذلك القرآن تحيا به القلوب والأرواح، لما فيه من تحصيل مصالح الدنيا والآخرة،

" فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن، ولهذا من فقد الروح فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا : فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضنك، وأما في الآخرة : فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا " [1].

فليس سر إعجاز القرآن فقط في بلوغه الرتبة العليا في الفصاحة والبلاغة، وجودة النظم وحسن اختيار الألفاظ والتراكيب، وإنما فيما جاء به من النور والهداية التي لا تصلح أحوال الناس في معاشهم ومعادهم إلا به، لأن الذي خلقهم – وهو أعلم بهم – هو الذي أنزله تبيانا لكل شيء .

وعظمة ما جاء به القرآن تأتي من وجوه متعددة، منها: أنه حق لا يلتبس بالباطل، وصدق لا يتسلل إليه الكذب، وهذا كتاب الله قد مضى على إنزاله أكثر من أربعة عشر قرنا لم تثبت الوقائع ولا الدراسات ولا البراهين خطأ شيء منه أو ضلال بعض ما جاء فيه، بل لا يزيده مر الأيام إلا جلاء، ولا يضيف إليه إتيان الليالي إلا ثباتا وضياء، كما قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت / ٥٣].

أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقا منزلا من عند

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٥٨)، وانظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٠)

الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم بدلائل في الأفاق وفي أنفسهم[١].

والله تعالى هو الحق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الحج / ٦٢] ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [يونس / ٣٢] وفعله حق ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الروم/ ٨].

وقوله تعالى حق، وكتابه حق، وقد جاء بالحق : ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [يونس / ١٠٨] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الرعد/ ١] وقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣﴾ [السجدة / ١-٣] وقال سبحانه : ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [فاطر / ٣١] وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد / ١٦] .

فكتاب الله هو من عند الله حقا، وهو حق وقد جاء بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومن ذلك أنه لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ولا تضاد، ولا يكذب بعضه بعضا بل يؤيده ويصدقه، سواء في ذلك الأخبار أو الأحكام،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ١٧٥)، الجواب الصحيح (٥/ ٤٠٥ - ٤٠٨).

يقول سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء / ٨٢].

فحث تعالى على تدبر القرآن وإمعان النظر فيه إذ هو طريق لزيادة اليقين في القلب، وترسيخ الإيمان في الفؤاد حيث يتبين للمرء أنه من عند الله الذي قد أحاط بكل شيء علما، ولا يمكن أن يأتي بمثله البشر .

وسبحان الله فإن كلام المخلوقين إذا أعدت النظر فيه تبين لك مكامن النقص والخلل فيه، وازداد نقدك له، أما كلام الباري جل وعلا فإنه لا يزيدك التدبر فيه وترداد تلاوته إلا يقينا بمصدره وإيمانا بمنزله تعالى إذ ينكشف لك في كل مرة من جوانب عظمته ما لم يكن قد تبين لك أول مرة .

ولذا قال تعالى في الآية: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء / ٨٢] .

يقول السعدي " ومن فوائد التدبر لكتاب الله : أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله ؛ لأنه يراه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضا، فترى الحكم والقصة والأخبار تعاد في القرآن في عدة مواضع كلها متوافقة متصادقة لا ينقض بعضها بعضا فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلا ." [1] أهـ.

---

(١) تفسير السعدي (ص١٥٤).

إن الهدي الذي جاء به القرآن في شموله وثباته وواقعيته، وصلاحيته لكل زمان ومكان، وتلبيته لسائر احتياجات البشر الروحية والجسدية، في توازن محكم واعتدال منضبط، فلا يسمو بالروح مقابل ظلم الجسد، كما لا يحيف على الروح لترفيه الجسد .. إن هذا الهدي العلمي والعملي .. في العقائد والشرائع والمنهاج لمن أعظم الدلائل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته، إذ هذه الشريعة من الإحكام والإتقان والكمال بحيث لا يقدر عليها أحد إلا أن يكون نبيا يأتيه الوحي من الله جل وعلا .

المبحث التاسع: نصره وتأييده وعصمته من الناس .

جاء القرآن الكريم مقررا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بدلالته على حفظه وعصمته من الناس مع جدهم في الإيقاع به، وحرصهم على النيل منه، حيث وعد تعالى بحفظ نبيه وحمايته فلا ينال أعداؤه منه، ولا يصلون إليه كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧﴾ [البقرة:١٣٧] .

وجاء الوعد بالكفاية مقترنا بالسين (فسيكفيكهم) لتحقيق وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه يكفيه شرهم وسوء شقاقهم [١] .

ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة:٦٧].

" أي بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك، ومظفرك بهم ؛فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك " [٢].

إن الذي يقوم لدعوة الخلق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٧٤١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٣).

أن يواجه من الكافرين والجاحدين، ولذا أمر الله تعالى بالصبر في مثل قوله سبحانه : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر:١-٣].

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧].

إن الكفرة والمشركين لابد أن يعادوا الأنبياء والرسل عليهم السلام وخصوصا أهل الرياسة والجاه منهم، وان يقفوا في طريق دعوتهم، ويكيدوا لهم بكل سبيل وهي سنة من سنن الصراع بين الحق والباطل كما قال ورقة بن نوفل لما جاءه النبي صلى الله عليه وسلم مع خديجة حين نزل عليه الوحي في غار حراء : " ليتني فيها جذع... حين يخرجك قومك قال : أو مخرجي هم ؟ قال: نعم، إنه لا يأتي أحد بمثل ما جئت به إلا عودي "[١].

ولما كان الأمر على هذا النحو وعد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالحفظ والعصمة من كيد الكفار والمعتدين، وأكد هذا المعنى في الآية بعدد من المؤكدات :

١- الجملة الاسمية التي تفيد الاستمرار .

٢- التعبير عن الخبر بالجملة الفعلية التي تفيد التجدد والحدوث، فالله تعالى يعصمك مرة بعد أخرى، ويكلؤك بحفظه كلما كادك أعداؤك .

(١) سبق تخريجه (ص ٢٨).

٣- الابتداء باسم الجلالة بما فيه من التفخيم والتعظيم، فهو سبحانه الذي يتولى عصمتك دون أن يكلك إلى أحد سواه، ثم هو يعصمك (من الناس) فماذا ترى يصنع الناس الضعفاء أمام قوة الله وقدرته جل وعلا .

إن المقابلة في أول الجملة وآخرها بين متولي العصمة (الله) ومن ستعصم منهم .

(الناس) يظهر عظمة الركن الذي يأوي إليه الرسول صلى الله عليه وسلم، وجلالة الملجأ الذي يلوذ به .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فقال: " يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عز وجل" [(١)].

ويقول سبحانه في بيان حفظه لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر:٣٦] .

وهذه الآية جاءت بعد قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر / ٣٢].

فإذا كان لا أحد أعظم ذنبا، ولا أشد فرية ممن كذب على الله، ومن

---

(١) رواه الترمذي، كتاب التفسير، تفسير سورة المائدة (٨/ ٤١٠ تحفة الأحوذي)والطبري (١٠/ ٤٦٩)، والحاكم، كتاب التفسير (٢/ ٣١٣) وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه .
وانظر: تفسير ابن كثير(٣/ ١٤٥) فقد ذكر عددا من مظاهر حفظ الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، والأسباب التي خلقها سبحانه لذلك .

ذلك – بل من أعظمه – أن يزعم أن الله أرسله نبيا وليس كذلك، ومن كان على هذا النحو فإن الله يهلكه وينتقم منه، ثم قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ فهو عبده حقا ورسوله صدقا ليس بكاذب ولا مفتر فالكاذب يُهلك، والصادق يُحفظ ويُكفى، وهي سنة الله في أنبيائه ورسله عليهم السلام .

فإن كان محمد صلى الله عليه وسلم كاذبا في دعواه النبوة، مفتر للقرآن من تلقاء نفسه، فليُكَذِّب أعداؤه هذه الآيات التي في القرآن، وليأتوا بخيلهم ورجلهم فينالوا منه أو يصلوا إليه .

لقد كان أعداؤه صلى الله عليه وسلم من مشركي العرب والمنافقين وقبائل اليهود وسائر أهل الكتاب أشد ما يكونون حنقا عليه، وأعظم ما يكونون غيظا منه، وودوا لو أنهم وصلوا إليه بأي سبيل، ولقد سعوا في ذلك وبذلوا ما يستطيعون ولكن عين الله ترعاه، وحفظ الله يكلؤه، وكيف يستطيع المخلوق الضعيف أن ينال ممن وعد الخالق العظيم القدير بكفايته وعصمته وحفظه .

هذا وكما استدل القرآن الكريم على نبوته ﷺ بحفظه وعصمته من أعدائه؛ فقد استدل أيضًا بنصره عليهم وإظهاره ، وهي سنة الله تعالى في أنبيائه ورسله عليهم السلام كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر/ ٥١].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ

لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات / ١٧١-١٧٣] .

ويقول تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة / ٢١] .

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود/ ٤٩].

فأخبر تعالى في هذه الآيات وأمثالها أن سنته المستقرة هي نصر رسله وأوليائه وظهورهم على أعدائهم وأن تكون لهم الغلبة، وأكد هذا الأمر عناية به بعدد من المؤكدات كـ (إن) واللام في الآية الأولى، والقسم و (إن) واللام، والجملة الاسمية، وتعريف المسند في الآية الثانية .

وفي الآية الثالثة إخباره أنه كتب هذا الأمر فهو أمر قد قضي، وعطف الرسل عليه جل وعلا في الوعد بالغلبة، مع ما في الجملة من القسم المضمر واللام الموطئة والنون المشددة، ثم ختام الآية بقوله (إن الله لقوي عزيز) تأكيد لمضمون الجملة، وإشعار بالتعليل لما جاء فيها .

فإذا كانت هذه سنته في رسله وأنبيائه . فما حصل لمحمد صلى الله عليه وسلم من الظهور والنصر دليل على أنه رسول من عند الله ليس بكاذب ولا مفتر، يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفتح / ٢٢-٢٣] " فأخبر أن سنة الله التي لا تبديل لها نصر المؤمنين على الكافرين "[١].

(١) الجواب الصحيح (٦/ ٤١٩)

وهذه السنة التي أخبر عنها الكتاب العزيز يعرفها أهل الكتاب مما تلقوه من رسلهم

ولذا قال هرقل: " كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة " [(١)].

كما عرفت هذه السنة من واقع الناس وحياتهم، فلقد أهلك الله قوم نوح، ونجاه ونصره عليهم ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء / ٧٧].

ونصر هودًا وصالحًا وإبراهيم ولوطًا وإخوانهم، وأهلك أقوامهم المكذبين، وتلك آثار القوم المكذبين في الأرض معلومة يشاهدها الناس ويمرون عليها ويعرفونها، وقد لفت الله تعالى أنظار الخلق إليها، وأمرهم بالسير في الأرض للاعتبار بما حل بهم فقال سبحانه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج / ٤٢-٤٦].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٧)

وانظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤٩)

عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر / ٢١-٢٢].

ولما ذكر قصة قوم لوط قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات / ١٣٧-١٣٨] وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر/ ٧٥-٧٩].

فالمقصود أن سنة الله تعالى في أوليائه أنه ينصرهم ويظهرهم على عدوهم، فإذا أيد محمدا صلى الله عليه وسلم علمنا أنه منهم، سيما إذا علمنا أحواله، وما دعا إليه، وما جاء به .

ولو فرضنا أنه كاذب في دعواه – حاشاه صلى الله عليه وسلم – فإن الله تعالى أخبر في القرآن أنه ينصره ويؤيده – كما هي عادته في رسله – ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر / ٥١].

أقول: لو فرض أنه كاذب فلينل الأعداء منه إن كانوا صادقين، وليسعوا في هزيمة دينه إن كانوا على شيء .

وقد قص الله تعالى في الكتاب العزيز عددا من المشاهد التي نصر فيها رسوله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه كقوله تعالى في الهجرة: ﴿إِلَّا

تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة/ ٤٠].

وقوله تعالى في غزوة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنفال / ٩] .

وقوله جل وعلا: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأنفال / ١٢] .

وقوله سبحانه في غزوة الخندق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ ﴾ [الأحزاب / ٩] .

وقوله سبحانه في غزوة حنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة / ٢٦] .

ومما يزيد هذا الأمر ظهورا ما أشار إليه القرآن الكريم وأوضحته الشواهد من أن الله تعالى لا يؤيد المفترين الكاذبين الظالمين، وأي افتراء وظلم أعظم من الفرية على الله جل وعلا، يقول سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة / ٣٨-٤٦].

فهذا الرسول – صلى الله عليه وسلم – صادق فيما جاء به ؛ فليس بشاعر ولا كاهن بل هو من رب العالمين، وتقتضي ربوبيته لهم أن ينزل هذا الكتاب الهادي، ويرسل هذا الرسول البشير، ولا يترك عباده هملا، وإنما من ربوبيته لهم ورحمته بهم أن يدلهم على ما ينفعهم، وحاجتهم إلى الكتاب المنزل والنبي المرسل أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب الذي لا تقوم الأجساد إلا به، بل وأعظم من حاجتهم إلى النَفَس .

ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم تقول هذا الكتاب من عنده، و افتراه على ربه لعاجله بالانتقام، فأخذه بقوة منه تعالى وقدرة، وقطع منه نياط القلب، قال الطبري:" وإنما كان يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة، ولا يؤخره بها "[1] ؛ إذ هو تعالى عزيز حكيم لا يترك عباده يقوم فيهم من يضلهم عن سبيله، ويزعم أن الله أرسله، وأنزل عليه كتابا من عنده، وهو مع ذلك يؤيده وينصره، ويمكن له ممن عاداه أو كذب به [2]، يقول سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام/ ١٤٤] .

قال ابن الجوزي " قال ابن عقيل: ومن أكبر الدلائل على صدق نبينا صلى الله عليه وسلم أن الباري سبحانه إنما يمهل الكذاب يسيرا ثم يستأصله بالعذاب، أفيجوز أن يمهل من يكذب عليه سنين ثم يثبت

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٤٣) . وانظر: الدر المنثور (١٤/ ٦٨٤)

(٢) انظر: تفسير السعدي (ص٨١٩)

شريعته بعده ؟ وقد أقدم على نسخ شريعتين قبله، وحلل السبت، ثم ينصر أتباعه على الأمم، ويؤيد حكمته بالإعجاز !!

حاشاه أن يفعل ذلك، إذ لو فعله لم يتبين الصدق من المحال، ألم تسمعه تعالى يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة / ٤٤-٤٥].

فمن طعن في صدقه طعن في عدل الباري وحكمته، لأن الطعن يتوجه على المعين " [١].

إن الكذاب لا يجري على يديه آية لا معارض لها لأن هذا من خصائص آيات الأنبياء إذ في ذلك إضلال للخلق، ولبس الحق بالباطل [٢].

بل من قام من هؤلاء الكذابين المدعين للنبوة فإنه يعلم من حاله، وما يدعو إليه، وما يجري على يديه لكل ذي بصيرة أنه كذاب مفتر أو ساحر دجال .

إن من نظر إلى حال الكاذب المفتري، وحبه للدنيا، ودعوته إلى نفسه، وما يتصف به من الصفات السيئة، والأخلاق الخبيثة مما لا يستقيم مع دعوى النبوة، ثم ما يدعو إليه من الفجور والإثم والفواحش، واستحلال الحرام المعلوم في كل الشرائع، وما يجري على يديه مما هو من جنس الشعوذة والسحر، لا من جنس معجزات الأنبياء التي تمتاز بأنها غير معتادة ولا

---

(١) الوفاء بأحوال المصطفى (١/ ٥٢٤) . وانظر: الجواب الصحيح (٦/ ٤١٩)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص ١٥٣)

(٢) انظر: النبوات (١/ ١٩٧)

يمكن معارضتها ليدرك أنه ليس من الأنبياء، بل من أعدائهم [١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " وما من أحد ادعى النبوة من المكذبين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز ." أهـ [٢].

ثم بعد ذلك كله فإن الله لا يمكن له في الأرض، حتى ولو تمكن نوع تمكن أول الأمر كما جرى لمسيلمة والأسود العنسي ونحوهم ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة / ٤٤-٤٦].

ويقول تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء / ٧٣-٧٥].

إن مجرد الركون إلى هؤلاء المشركين – ولو كان شيئا قليلا – يعاقب عليه بضعف الحياة وضعف الممات [٣]. فكيف بأن يقوم في الناس كاذبا

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤١)

(٢) شرح الأصفهانية (ص٨٩)

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: " قوله: (ضعف الحياة وضعف الممات) يعني ضعف عذاب الدنيا والآخرة ." أخرجه الطبري (١٥/ ١٦)

وإنما كان العذاب مضاعفاً لو ركن صلى الله عليه وسلم لتمام نعمة الله عليه، وكمال علمه ومعرفته .

قال الشوكاني: " وقد ثبت في الشريعة في غير موضع أن تضاعف الشرف وارتفاع الدرجات =

مدعيا أن الله أرسله إليهم، مختلقا كتابا من عنده يقول: هذا كتاب الله . ثم يقاتل الناس على هذه الدعوة الكاذبة والافتراء الآثم فيقتلهم ويأخذ أموالهم، وهو يزعم أن الله يؤيده .. والله تعالى مع كل هذا الفجور والكفر والافتراء – بحكمته ورحمته وعدله وقدرته – يؤيده وينصره،ويبسط له في الأرض، ويمكن له من رقاب من عاداه أو كذبه، ولا يظهر على مدى الأعوام والقرون ما تنفضح به دعواه ويتبين به كذبه .. لله تعالى أحكم وأرحم جل وعلا .

وأي ظلم أعظم من ظلم هذا الكذاب، وأي بغي أشد من بغيه، والله تعالى قد بين أنه ﴿ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهو تعالى ﴿ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ و ﴿ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل/ ١١٦].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " إنه – تعالى – لا يؤيد كذابا بالمعجزة لا معارض لها ؛ لأن في ذلك من الفساد والضرر بالعباد ما تمنعه رحمته، وفيه من سوء العاقبة ما تمنعه حكمته، وفيه من نقص سنته المعروفة وعاداته المطردة ما تعلم به مشيئته.... الخ "[1].

= يوجب لصاحبه إذا عصى تضاعف العقوبات ." أهـ فتح القدير (٤/ ٢٧٦)

قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ الأحزاب / ٣٠

(١) شرح الأصفهانية (ص١٦٠)

وكذا وقعت الجملة الأخيرة في طبعة الكتاب ، ولعل فيها تحريفا، وقد يكون صوابها :

=

يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام / ٩٣].

وقد جاءت هذه الآية بعد قصة إبراهيم عليه السلام ومحاجته قومه، وظهوره عليهم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ

= وفيه من نقض سنته المعروفة وعادته المطردة ما تمنعه مشيئته. والله أعلم

عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [لأنعام / ٧٣/ ٨٣].

ثم ذكر الأنبياء من ذريته وغيرهم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنعام / ٨٤-٨٧] .

وبين تعالى أنه هداهم إلى صراط مستقيم، واضح موصل للمقصود، ولو مالوا عنه أو انحرفوا ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام / ٨٨] .

ثم بين تعالى أنه أنزل هذا الكتاب، ووصفه بصفتين تدلان أنه من عند الله تعالى:

الأولى: أنه ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ فما فيه وما يدعو إليه، وما يدل عليه: خير وهدى ورشد، وبركته ورحمته تنال من آمن به، واتبعه، وعمل بما فيه .

الثانية: أنه ﴿ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فهو يؤيد ما جاء به الأنبياء قبله، ويدعو إلى ما دعوا إليه .

ثم بين تعالى أنه لا أظلم ممن يفتري الكذب على الله، ويزعم أن الله أوحى إليه شيئا، ولم يوح إليه، وهذا مما يدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته لأنه لو كان كاذبا لكان ظالما، بل من أعظم الظالمين،

ومن كان كذلك فإنه لا يؤيد ولا يمكن له، وهذا محمد صلى الله عليه وسلم مؤيد منصور، ظاهر على أعدائه بالحجة والبيان، والسلاح والسنان .

وبعد: فكل ما سبق من إخبارات الكتاب العزيز ودلائله هي من الشواهد على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وثمة وجه آخر يدل على نبوته صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات والأخبار، وهو أن الأمر وقع كما أخبر، وكان كما قص الكتاب العزيز، فلقد انتصر على أعدائه، وبسط سلطان دينه على الأرض، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " طرق العلم بالرسالة كثيرة متنوعة ... منها:

أنهم – أي الرسل – أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم، وخذلان أولئك، وبقاء العاقبة لهم أخبارا كثيرة في أمور كثيرة، وهي كلها صادقة، لم يقع في شيء منها تخلف ولا غلط ... الخ" [1].

---

(١) شرح الأصفهانية (ص١٠٤)

وانظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص١٥٢)

المبحث العاشر: دلالة القرآن على حسن خلقه ﷺ ورفيع صفاته .

اصطفى الله تعالى من خلقه رسلا لتبليغ رسالته، ودعوة الناس إلى توحيده وعبادته، والنبوة اصطفاء من الله تعالى، والرسالة اجتباء منه جل وعلا ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج/ ٧٥] وإنما يختار الله تعالى لرسالته صفوته من خلقه وخيرته من عباده .

أحسن الناس خلقا، وأرفعهم أدبا، وأجملهم سيرة، وأزكاهم سريرة، وأعظمهم عبودية لمولاهم سبحانه وتعالى .

إذ هم رسل الله والمبلغون هدايته، والمكلفون بدعوة الخلق إلى الحق جل وعلا، ودعوتهم إنما تكمل وتجمل إذا تواطأ عليها القول والعمل، واتفق فيها لسان الحال مع لسان المقال .

فما عليه الأنبياء والرسل عليهم السلام من الصفات الحسنة والأخلاق الحميدة يعود إلى أمور منها:

- أن النبوة اصطفاء من الله، والله تعالى إنما يصطفي لنبوته أزكى خلقه وأكملهم .
- أنهم إذا كانوا على هذا النحو كان أتم لدعوتهم، وأكمل لتبليغهم، وأعظم لقيامهم بالمهمة الموكلة إليهم .
- أنه دليل على نبوتهم، وصدق رسالتهم، وأنهم مبعوثون من عند الله تعالى .

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين

وأفضلهم وسيدهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة "[(١)] وهو في الرتبة العليا في الفضائل والكمالات، والأخلاق الزاكية الحسنة وهذا من أعظم الدلائل والبراهين على أنه رسول رب العالمين، كيف لا وقد تولى ربه جل وعلا تأديبه فأحسنه[(٢)] يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته..."[(١)].

ولقد كان ما هو عليه صلى الله عليه وسلم من الآداب الرفيعة والشمائل الطيبة أحد الدلائل التي ساقها القرآن لتقرير نبوته صلى الله عليه وسلم والاحتجاج لصدقه إذ الكاذب المفتري، والساحر الدجال، والظالم الغشوم لابد أن يظهر عليه من الأخلاق السيئة والصفات الرديئة كالظلم والكذب والفحش والأذى وأكل أموال الناس بالباطل والكبر وحب الدنيا وطلب الرياسة ما يناسب حاله، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز." [(٢)] . أهـ.

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) روي في الحديث قوله: "أدبني ربي فأحسن تأديبي " . قال ابن تيمية: " معناه صحيح، ولكن لا يعرف له اسناد ثابت " أهـ مجموعة الرسائل الكبرى (٢/ ٣٣٦) نقلاً عن السلسلة الضعيفة (١/ ١٠١). وضعفه جمع من المحققين .

انظر: كشف الخفاء (١/ ٧٢)

(١) شرح الأصفهانية(ص ٨٩).

(٢) المرجع السابق (الموضع نفسه).

أما هو صلى الله عليه وسلم فقد كان له من كل كمال بشري أعلاه، ومن كل شأن رفيع أزكاه، ولست هنا بصدد تعداد صفاته الحسنة وأخلاقه الطيبة الزاكية، فقد حفلت كتب السيرة والشمائل والآثار بجمع ما يتعلق في هذا الباب (١)، وتعداد ما اتصف به صلى الله عليه وسلم وما كان عليه من المناقب، ولكني هنا أشير إلى استدلال القرآن الكريم بهذا الجانب على نبوته وصدق رسالته، يقول السعدي :" يقرر – القرآن – نبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم بما جمع له وكمله به من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خلق عالٍ سامٍ فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلاه وأكمله، فمن عظمت صفاته، وفاقت نعوته جميع الخلق التي أعلاها الصدق والأمانة أليس هذا من أكبر الدلائل على أنه رسول رب العالمين، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين ؟ " (٢) .

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم / ٤].

وهذه الآية من صدر سورة القلم التي كان الموضوع الأول فيها تثبيت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، والاحتجاج لنبوته والاستدلال لصدقه، حيث يقول تعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن

---

(١)انظر– مثلاً – كتاب المناقب من صحيح البخاري، كتاب الفضائل من صحيح مسلم، كتاب شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم للترمذي .

(٢) القواعد الحسان (ص٢١).

ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [القلم / ١ – ٨] .

فأقسم تعالى بالقلم وما يكتبون على رد فرية المشركين حين اتهموا رسوله بالجنون كما قال سبحانه عنهم في آخر السورة: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم / ٥١] فقال سبحانه هنا في أول السورة: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [القلم / ٢] ثم ذكر سبحانه أنه متصف بخلق عظيم، وهذا ينافي وصف الجنون الذي زعمه هؤلاء المشركون، وهي – لعمر الله – شكاة ظاهر عنك عارها .

وإلا فهل يقول أحد يحترم عقله أن محمدا صلى الله عليه وسلم مجنون، وهو النبي الذي دان له قومه، واعترفوا بفضله وصدقه واستقامته وخلقه وعقله حتى قبل أن يوحى إليه، وهو النبي الذي جاء بشريعة وهدي لم يطرق العالم مثله ؛ خيرا وهدى ورحمة وتسامحا، ولكن الأمر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " ولم ينقل عن أحد منهم (المشركين) أنه قال قولا (يتهم به النبي صلى الله عليه وسلم) يخفى بطلانه، بل ما يظهر كذبه لكل أحد " [١].

إنه الحقد الأعمى والحسد الآثم الذي يعمي ويصم، فيبلغ بصاحبه أن يقول قولة هو أول من يدرك أنها كاذبة .

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٣٢-٣٣٣)

والمقصود أن الله تعالى رد فرية هؤلاء الكفار، مؤكدا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ .

عن سعد بن هشام بن عامر في قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم / ٤] قال: سألت عائشة رضي الله عنها يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت: أتقرأ القرآن ؟ فقلت: نعم . فقالت: إن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن [٢].

وقال جمع من السلف: على أدب القرآن [٣].

يقول أبو عبدالله الرازي في تفسيره: " اعلم أن هذا كالتفسير لما تقدم من قوله:

﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وتعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كذب وخطأ ؛ وذلك لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه، ومن كان موصوفا بتلك الأخلاق والأفعال لم يجز إضافة الجنون إليه ؛ لأن أخلاق المجانين سيئة، ولما كانت أخلاقه الحميدة كاملة لا جرم وصفها الله بأنها

---

(٢) رواه ابن أبي شيبة (١٤/ ٢١٤) والحاكم (٢/ ٤٩٩) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي، وأصل الحديث في صحيح مسلم . كتاب صلاة المسافرين (رقم ٧٤٦).

(٣) عزاه أبو حيان في البحر المحيط إلى علي رضي الله عنه (٨/ ٣٠٣) وابن الجوزي في زادالمسير (٨/ ٤٢٨) إلى الحسن، ورواه عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الدلائل (١/ ٣١٠) عن عطية العوفي .

وانظر: الدر المنثور (١٤/ ٦٢٣) . تفسير ابن كثير (٨/ ٢١٤)

عظيمة " [٤].

وقد جاء تأكيد اتصافه بالخلق العظيم بعدة مؤكدات، وهي:

- حرف (إنَّ) .
- لام الابتداء .
- تقديم المجرور، مع ما يفيده (على) من الاستعلاء المراد به التمكن من الخلق العظيم في نفسه ودعوته .[١] .

إذاً فما هو عليه من الخلق العظيم دليل لكل من تأمل، وبرهان لكل من تدبر أنه رسول رب العالمين ليس بمجنون ولا ساحر ولا كذاب ؛ لأن الخلق الحسن بله العظيم يتنافى مع هذه الأحوال التي زعموها، وقد قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس/ ٤٣] .

قال السعدي: " ودل قوله: (ومنهم من ينظر إليك ... الآية) أن النظر إلى

حالة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه، وأخلاقه وأعماله، وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة [٢] . أهـ

ويقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ

---

(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٧١)

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٦٣).

(٢) تفسير السعدي (ص٣٢٢).

ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران / ١٥٩] .

قال الحسن البصري: " هذا خلق محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله به "(١) .

فما هو عليه صلى الله عليه وسلم من اللين والرحمة والعطف والشفقة إنما هو برحمة الله جل وعلا، جبله على ذلك وطبعه عليه، فليس هو خلق يتكلفه، ولا سجية يحاول التطبع بها فيظهر خلافها في أوقات الشدة والمضائق .

لقد كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم وسجاياه من الجمال والكمال بحيث لا يمكن أن تصدر من كاذب مدع للنبوة أو طالب رياسة متهالك عليها، بل ما هو عليه مناسب لما أعده الله تعالى له من حمل الرسالة وتبليغ الدعوة وهداية الخلق، ولما كان العبء الذي حمله صلى الله عليه وسلم ثقيلا والتبعة عظيمة أعده ربه جل وعلا بالكمالات الخلقية التي تناسب رعاية الخلق والصبر على أذاهم وتحمل نقصهم وجهلهم واستعجالهم، بل وفوق ذلك هيأه بالخصال التي تحبب الناس في الدين الذي يدعو إليه وترغبهم منه ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران / ١٥٩].

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٨).

وهذه الخصال التي أخبر عنها القرآن ذكرتها التوراة في صفته صلى الله عليه وسلم، " فعن عطاء بن يسار: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة . قال: أجل، والله إنه موصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا :لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا "[١] .

ويقول جل وعلا : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة/ ١٢٨].

لقد كان صلى الله عليه وسلم يعز عليه ما يشق عليهم، ويحزنه ما يضرهم، وكان أحرص عليهم من الوالد على ولده، يقول صلى الله عليه وسلم : " إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم ... الحديث"[٢] . وقد قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾

---

(١) رواه البخاري ، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق (٤/ ٣٤٢ فتح الباري).

(٢) رواه أبو داوود، كتاب الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (١/ ٣) والنسائي كتاب الطهارة، باب النهي عن الاستطابة بالروث (١/ ٣٨)، وابن ماجة، كتاب الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة (١/ ١١٤)، وحسنه الألباني. انظر: مشكاة المصابيح (١/ ١١٢)، صحيح ابن ماجه (١/ ٥٧).

[الأحزاب/ ٦] قرأ أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) [٢].

والآية تسوق هذه الصفات التي اتصف بها صلى الله عليه وسلم والأخلاق التي تحلى بها في سياق الامتنان على الأمة بهذا الرسول الكريم، كما تسوقها في معرض التدليل لنبوته والاحتجاج لرسالته، إذ من كان على هذا النحو لابد وأن يكون رسولا من عند الله غير كاذب ولا طالب رئاسة.

فمن كان شديد الحرص عليكم، عظيم الرحمة بكم، يعز عليه ما يشق عليكم، لا يدأب لنفسه ولا ينقم لها، ولا يجزي بالسيئة السيئة، لين غير فض ولا غليظ القلب فإذا ادعى النبوة فلا بد أن يكون كذلك لأن هذه الصفات لا تناسب الكذابين ولا المدعين، وإنما تناسب الصادقين، ولو حاول الكاذب أن يتطبع بغير أخلاقه ويظهر ما ليس فيه فإنه لا بد وأن يظهر على حقيقته مع طول الأيام وتعاقب الأحوال والمواقف كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد / ٣٠].

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء / ٢١٠- ٢١٢].

فما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحي من عند الله لم تتنزل به

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٧٧)، البحر المحيط (٧/ ٢٠٨)، تفسير القرطبي (١٤/ ١٢٣)، تفسير ابن كثير (٦/ ٣٨٢)

الشياطين، فهم لا يريدونه، لأنه مناف لمقصودهم وأحوالهم وأغراضهم " فليس في الأرض أمر أعظم منافاة ومناقضة لمراد الشياطين مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم " [1] . ولو أرادوا لما استطاعوا ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ .

ثم أمره تعالى بالتوحيد الخالص، والخلق الرفيع الذي يناسب أحوال الأنبياء عليهم السلام فقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء / ٢١٣-٢١٥] .

ثم بين سبحانه صفات الكذابين الذين تتنزل عليهم الشياطين، فهم حزب الشيطان فقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء / ٢٢١-٢٢٣] .

فالشياطين تتنزل على من يحصل مقصودها بنزولها عليه، وهو الأفاك الأثيم، وهما صفتا مبالغة من الأفك وهو: الكذب، والإثم وهو: الفجور[2]، وقد علم كل أحد من الموافق والمخالف أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان من أبر الناس وأصدقهم، وما زال قومه يعرفونه بالصادق الأمين لم تجرب عليه كذبه، ولم يعرف عنه فجور، قبل النبوة وبعدها .

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٤٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٨٣).

فالفرق بين النبي الذي يأتيه الملك، والكاذب الذي يتنزل عليه الشيطان يعرف من صفات كل منهما وأخلاقه وسجاياه .

ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وكريم خصاله، ورفيع خلقه ، وحسن سجاياه عرفت أن ما جاءه في حراء حق، وأنه ليس بكاذب ولا تنزلت عليه الشياطين ، لأن ما كان عليه من الصفات والأخلاق يناسب الأحوال الرحمانية لا التخبطات الشيطانية ، ولذا قالت له :

" كلا والله لا يخزينك الله " ثم استدلت على ما ذهبت إليه بقولها : " إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق" [(١)] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " فذكرت خديجة ما كان مجبولا عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال، وهو الصدق المستلزم للعدل، والإحسان إلى الخلق، ومن جمع فيه الصدق والعدل والإحسان لم يكن ممن يخزيه الله، وصلة الرحم وقرى الضيف وحمل الكل وإعطاء المعدوم والإعانة على نوائب الحق هي من أعظم أنواع البر والإحسان، وقد علم من سنة الله أن من جبله الله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه "[(٢)] .

وإذا كانت هذه أخلاقه صلى الله عليه وسلم التي يعلمها عنه أقرب

(١) سبق تخريجه (ص ٢٨).

(٢) شرح الأصفهانية (ص٩٣).

الناس إليه قبل النبوة، فإن النبوة أضافت إليها، ورسختها، ومكنتها ، ووظفتها ، وقد كان كل من صحبه صلى الله عليه وسلم أو خالطه أو عامله أو رآه يدرك ذلك بجلاء ويلمسه بوضوح، يقول عبد الله بن سلام رضي الله عنه لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة مهاجرا :" فلما استبنت وجه الرسول صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب " [١] .

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ٤٥١)، والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب حديث افشوا السلام بينكم رقم (٢٤٨٥) وقال حديث صحيح، والدارمي (١/ ٣٤٠)، وابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في قيام الليل رقم (١٣٣٤)، والحاكم (٣/ ١٣) وصححه ووافقه الذهبي .
وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٠٩).

الخـاتمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين وبعد /

ففي ختام هذا البحث أشير إلى أبرز ما توصلت إليه من نتائج :

- جاء القرآن الكريم ببيان أصول الدين كإثبات وحدانية الله تعالى وأسمائه وصفاته، وتقرير البعث والجزاء والحساب والنبوات وغيرها.
- سلك القرآن الكريم في إثبات هذه الأصول والاستدلال عليها الحجج القطعية والبراهين اليقينية والدلائل العقلية، وقد امتازت دلائل القرآن :
- بأنها قاطعة ويقينية، لا يسع أحداً ردها ولا التشكيك فيها .
- أنها واضحة وسهلة، يفهمها كل أحد، ويدركها كل عاقل .
- من لم يعتن بتلقي هذه الأصول والاستدلال عليها من القرآن، وسلك طرقاً أخرى، فهو لم يقدر القرآن حق قدره، ولم يعرف منزلته، ولعل هذا ما جعل بعض من تكلموا في إعجاز القرآن يرون أن إعجازه في ألفاظه لا معانيه .
- تنوع الأدلة والآيات التي ساقها القرآن لتقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتصديق رسالته، والمعجزات أحد هذه الأدلة .

- أن في القرآن جواباً على كثير من الشبه التي ذكرها منكرو النبوة، بل إن أجوبة القرآن هي أسد الأجوبة وأقطعها للنزاع .

- أن هذه المباحث هي أولى ما تصرف فيها الأوقات، وتنفق فيها الأعمار، فهي المقصد الأعظم من إنزال الكتاب وبعث الرسول، وهي ينبوع كل خير وجماع كل هدى .

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد و آله وصحبه أجمعين .

فهرس المراجع

- إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، أبو الحسين الهاروني، ت: عبدالله عوض العجمي رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم .
- إظهار الحق، رحمت الله الهندي، ت: محمد أحمد ملكاوي، دار الإفتاء، الرياض١٤١٠ هـ .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى١٤٠٨هـ .
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ت : عادل عبدالموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٣ هـ .
- تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي، محمد عبدالرحمن
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مكتبة العلوم والحكم، بيروت ط الأولى، ١٤٠٨ هـ .
- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، أبو جعفر بن جرير الطبري، ت: محمود شاكر، راجعه : أحمد محمد شاكر .
- تفسير القرآن، عبدالرزاق بن همام الصنعاني، ت : مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض ط الأولى ١٤١٠ هـ .
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير، ت : عبدالعزيز غنيم، محمد عاشور، محمد البنا، دار الشعب، القاهرة .

- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت الرياض ط الأولى ١٤١١ هـ .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن سعدي.
- جامع الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار السلام، ط الثانية، ١٤٢١ هـ .
- الجامع الصحيح، الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الرياض، ط الثانية، ١٤٢١ هـ .
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ت: علي حسن ناصر وآخرون دار العاصمة، الرياض، ط الأولى ١٤١٤ هـ .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، ت : عبدالله التركي، وآخرون، مركز هجر للبحوث، القاهرة، ط الأولى، ١٤٢٤ هـ .
- درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام، ط الأولى ١٤٠٣هـ .
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين البيهقي، توثيق وتخريج : عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٠٥هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، محمود الآلوسي، دار

الفكر، بيروت، ١٤١٤ هـ .

- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط الثالثة، ١٤٢٤ هـ .
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، دار السلام، الرياض، ط الثانية، ١٤٢١ هـ .
- السيرة النبوية لابن هشام، ت : مصطفى السقا وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الأولى ١٤١٥ هـ .
- شرح العقيدة الأصفهانية، ابن تيمية، تقديم : حسنين مخلوف، دار الكتب الإسلامية، مصر .
- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ت: عبدالله التركي، شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط الثانية، ١٤١٣ هـ .
- الصارم المسلول على شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم، شيخ الإسلام ابن تيمية، ت : محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨ هـ .
- صحيح الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار السلام، الرياض، ط الثانية ١٤٢١ هـ .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ .

- القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبدالرحمن بن سعدي مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٠هـ .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود الزمخشري، ت: عادل عبدالموجود، علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط الأولى، ١٤١٨ هـ .
- لسان العرب، جمال الدين بن منظور، دار صادر، بيروت.
- المباركفوري، دار الفكر، ط الثالثة، ١٣٩٩ هـ .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الثالثة، ١٤٠٣هـ .
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب : عبدالرحمن بن قاسم، إدارة المساحة العسكرية، القاهرة ١٤٠٤ هـ .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبدالحق بن عطية الأندلسي، ت : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١٣ هـ .
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ .
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله الحاكم، إشراف: يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت.
- المسند للإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، ط الأولى ١٤١٣ هـ .

- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ت: محمد النمر، وآخرون، دار طيبة، الرياض، ط الأولى ١٤١٤ هـ .
- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، ت: عبد الجليل شلبي، دار الوليد، جدة ط الأولى، ١٤١٤ هـ .
- النبوات، ابن تيمية، ت: عبدالعزيز الطويان، أضواء السلف، الرياض ط الأولى ١٤٢٠ هـ .
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، دار الريان .
- الوفاء بأحوال المصطفى، ابن الجوزي .

القواعد الذهبية للعلاقات الزوجية
في ضوء القرآن الكريم

إعـــداد

د/إبراهيم بن علي الحسن

د. إبراهيم بن علي الحسن

- أستاذ مساعد في قسم القرآن وعلومه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (جمال الدين القاسمي ومنهجه في التفسير).
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (تفسير البسيط للواحدي من أول سورة الأنفال إلى آخر سورة يونس) تحقيقاً ودراسة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم،وعلى آله وأصحابه .

أما بعد :

فإن القرآن الكريم هو النبع الصافي، الذي تستقي منه الأمة الإسلامية أفكارها، وتبني على ضوئه مجتمعها، وتؤسس عليه قواعد حضارتها، وتعالج به ما يطرأ عليها من أدواء وانحراف .

ومن عجائب القرآن أن علماء الأمة – ومنذ صدرها الأول – قد أولوه عناية فائقة، تعليماً وتفسيراً واستنباطاً، وتتابعت الأجيال جيلاً بعد جيل، تبين أوجه هدايته، وطرائق إرشاده، ومع ذلك ظل لطالب الهداية غضاً طرياً، يفتح له طرائق ومسالك، تتواءم مع الجديد، ولا تتصادم مع القديم ﴿**تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[1] فلا تنقضي عجائبه، ولا تفنى روائعه، ولا يسبر غوره، وصدق من نزّله إذ قال: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾[2] وهذا عام بعموم الزمان والمكان، فهدايته مناسبة للعقول والفهوم، مهما تغيرت الثقافات، أوتلاقحت

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.

الحضارات .

إن هداية القرآن، وأثره البارع في بناء مجتمع فاضل، واحتواءه مشاكل كل عصر ومصر، إذا تُقُبِّل بقبول حسن، وسُلِّمت له راية القيادة، هذه الهداية، وهذا الأثر والاحتواء، من أبرز وجوه إعجاز القرآن، ومن أكثر ما حير الألباب، وأدهش من لا يؤمن بتنزيله من رب الأرباب، فكيف بمن آمن به ، ورضيه قائدا وهاديا ..

وهذه الهداية باقية ما بقي هذا الكتاب، ولا تختلف باختلاف العصور، وتعاقب الأجيال، وتعدد البيئات، لكن أثرها محصور فيمن صدَق في تلمسها، وجدَّ في طلبها، واستشفى بها من علله وأدوائه،قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[1].

ومن أبرز هدايات القرآن بناء الأسرة المسلمة على أساس متين، وإحاطتها بسياج قوي، يدرأ عنها زوابع الخلاف، وأعاصير تقلب الأمزجة.

ولا يخفى أن الحياة الزوجية الهنية نعمة ورحمة وسكن، ومتى ما قامت وفق شرع الله، وعرف كل طرف حقوقه وواجباته، ورضي بقدر الله وحكمه وحكمته، أثمرت السعادة والمحبة والطمأنينة، ورفرفت على المنزل أعلام الهناءة، وراحة البال، وطمأنينة النفس، وصار أهله يحيون

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٤ .

حياة مستقرة، هادئة هانئة، بل صار المنزل واحة غناء، يتفيأ ظلالها المتعب فيزول تعبه، والمهموم فتندفع همومه، والمحزون فتنجلي أحزانه .

أما إذا حل التنافر بدل التواؤم، والجفوة بدل المودة، والبغضاء بدل المحبة، والقطيعة بدل التواصل، والعبوس والتكشير وبذاءة المقال، بدل إشراقة الوجه، وبسمة الروح، وعذوبة اللسان، فحينئذ لا تسأل عن الجحيم الذي يصطلي بها أفراد ذلك البيت، والعذاب الأليم الذي يحيط بتلك الأسرة، إضافة إلى العواقب السلوكية والأخلاقية والنفسية .

ولقد تأملت واقع مجتمعنا، فرأيت أن الأسرة فيه تقاذفتها أمواج، وهبت عليها عواصف وأعاصير، فتفككت بعض روابطها، واهتزت ثقة أطرافها، وصار بعضها على شفا جرفٍ هارٍ، بل وصل بعضها إلى حضيض المشاكل والمناكدة ؛ بل إلى الفرقة والطلاق .

وبحكم علاقتي الكبيرة بالمجتمع ،كمستشار أسري، فإني أقول: إن بعضاً من بيوتات مجتمعنا ظاهرها الرحمة، وباطنها من قبله العذاب، وجُلُّ ذلك يعود إلى الجهل بتعاليم ديننا، أو التفريط فيها .

ولهذا طفقت أبحث في كتاب الله، عما يعيد للأسرة المسلمة استقرارها، ويدفع عن بيوت المسلمين الشقاء والنكد، ويدرأ الفرقة والطلاق، ويعيد إليها البسمة والهناء، والسعادة والبهجة، كما أراد الله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[(١)].

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

وقد خص القرآن جانب الأسرة بمزيد اهتمام، واعتنى بها عناية فائقة، وهو يسمو بأتباعه، ويهذب طباعهم، ويرقق حواشيهم، ويقيم علاقاتهم الاجتماعية على أسس ثابتة، وقواعد راسخة، لا تزعزعها الرياح، ولا تجرفها التيارات .

ومن هذا المنطلق، وبحكم تخصصي في القرآن وعلومه، رأيت أن أدرس الأسرة في الكتاب والسنة، فكانت نتيجة الدراسة انبثاق ثلاثة موضوعات مترابطة هي:

١- القواعد الذهبية للعلاقات الزوجية، في ضوء القرآن الكريم.

٢- من وسائل علاج المشاكل الزوجية في ضوء القرآن والسنة .

٣- درء الطلاق في ضوء الكتاب والسنة .

وقد جعلت المنطلق والمورد والمصدر كتاب الله، وسنة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لأن المسلمين جميعاً يتفقون على وجوب العمل بهما، ويدينون بطاعة الله ورسوله، ولأنني لم أرد تكرار ما تعج به المكتبات، من فنون العلاقات الزوجية، المعتمدة على الإنشاء، أو الترجمة من لغات أخرى.

ولهذا الغرض حرصت أن تكون عناوين المباحث من القرآن نفسه، أو مستوحاة منه ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

وما بين أيدينا هو الموضوع الأول، وقد جعلته على هيئة مباحث، يحمل كل مبحث عنوان قاعدة قرآنية؛ لأن ذلك أقرب إلى طبيعة هذا البحث، الذي لم أرد إثقاله بالفصول والأبواب .

خطة البحث :

يتكون هذا البحث من مقدمة، وتمهيد، وسبع قواعد، وخاتمة، وثبت بالمراجع، وفهرس للموضوعات، وإليك التفصيل:

المقدمة: وقد ذكرت فيها هداية القرآن، وطبيعة الموضوع، وأهميته، وسبب اختياره، وخطة البحث.

التمهيد: وكان لبيان مكانة الأسرة في الإسلام، وأهميتها، وأثرها على الزوجين والناشئة، والمتطلبات الأساسية حتى تؤدي دورها.

القاعدة الأولى : حسن اختيار الزوجين

القاعدة الثانية : " وليس الذكر كالأنثى ".

القاعدة الثالثة : " الرجال قوامون على النساء ".

القاعدة الرابعة : " وعاشروهن بالمعروف ".

القاعدة الخامسة : " لينفق ذو سعة من سعته ".

القاعدة السادسة : " ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل" .

القاعدة السابعة : الحذر من الاختلاط والخلوة بالأجنبية .

الخاتمة : وقد ذكرت فيها خلاصة البحث وأهم النتائج .

ثبت المراجع والمصادر .

فهرس الموضوعات .

منهجي في البحث:

يمكن تلخيص المنهج الذي سرت عليه بأنه استقرائي وصفي، وفق النقاط التالية:-

١ - حرصت أن يكون البحث معتمداً على ما ورد في الكتاب والسنة، وما خرج عنهما فهو شرح وتوضيح، وبيان للمقصود .

٢ - اعتمدت على الأحاديث الصحيحة والحسنة، ولم أذكر حديثاً ضعيفاً إلا في موضوعين أو ثلاثة، مع الإشارة إلى ذلك، وقد خرجت الأحاديث، مقتصراً على ما يحقق المقصود، وهو بيان درجة الحديث، فإن كان في الصحيحين، أو في أحدهما اقتصرت على ذلك، وإلا ذكرت بعض من خرّجه، مفضلاً من نص على صحته .

٣- التزمت ترقيم الآيات، وعزوها إلى سورها .

٤- سلكت منهج التفسير الموضوعي في بحث كل جزئية، ولم أقصد استيفاء كل ما ورد في ذلك؛ بل اقتصرت على ما يحقق الغرض والاستشهاد.

٥- اعتمدت في مجمل البحث على مصادر أصيلة، وأمهات كتب معتبرة عند العلماء، ويستثنى من ذلك ما تقتضيه طبيعة البحث، في قضايا معاصرة أو نحوها .

٦ - قد أطنب في بعض المباحث؛ لاعتقادي أن حاجة الناس تقتضي ذلك؛ وأن تمام البيان يستلزم الاستطراد والتفصيل .

٧- لم أترجم للأعلام؛ لأن أكثرهم مشاهير، لا يجهلهم القارئ المثقف، والقلة القليلة من المعاصرين مجاهيل بالنسبة لي، وليس بين يدي ترجمة لكثير منهم.

٨- حرصت أن يكون هذا البحث مرتبطاً بالواقع، وعلاجاً لقضايا

معاصرة، وخطابا لكافة القراء، وليس للنخبة المثقفة، وأسأل الله أن أكون حققت بعض ما حرصت عليه .

وبعد:

فقد اجتهدت في إخراج هذا البحث، المرتبط بكتاب الله، مع ما يكتنف ذلك من حرج، ووجوب تحرٍّ للصواب؛ حتى لا يقال على الله بغير علم، ثم هو مرتبط بحياة الناس، وبيوتهم وأسرهم، مع ما في ذلك من حساسية، وما عسى أن يكون له من أثر إيجابي، أو سلبي .

وحسبي أني بذلت جهدي، نصحاً لكتاب ربي، وبرًّا بأبناء ملّتي، فإن كنت وفِّقت فمن الله، وله الحمد، وإلا فمن نفسي والشيطان، واستغفر الله.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه .

تمهيد

مكانة الأسرة في الإسلام

الأسرة هي اللبنة الأولى لبناء المجتمع، وعلى قدر إحكام بناء الأسرة، وإحاطتها بسياج من الدين والخلق والتعليم، وتزويدها بالمهارات المفيدة، والعادات الطيبة، والتقاليد الحسنة، يكون تشكُّل المجتمع، وتتميز علاقة أفراده، وتظهر أهدافه في الحياة، ويكون تأثره وتأثيره بما سواه من مجتمعات وأمم .

وفي الفقرات التالية ما يميط اللثام عن أهمية الأسرة ومنافعها وضرورة الاعتناء بها، وحمايتها من التصدع والانهيار .

١- تنويه القرآن بشأن الأسرة :

لقد عظم القرآن شأن الأسرة، وجعلها الله آية من آيات قدرته، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١) كما جعل الله الأسرة منّةً من أعظم مننه، ونعمةً من أجلِّ نعمه، فقال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾(٢) .

ومن أدلة تعظيم القرآن شأن الزواج والأسرة، أن الله جعل العلاقة

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١ .

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٢.

الزوجية لا تضاهيها علاقة، وجعل عقدها ميثاقاً غليظاً لا يدانيه عقد، فقال سبحانه: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[1].

كما نوه القرآن بشأن الأسرة الأولى على وجه الأرض، وعظم شأن الأرحام، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[3] وقال جل جلاله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[4].

ومن الأدلة الجلية على أهمية الأسرة في الإسلام، إخبار رسول الله – ﷺ– أن الشيطان لا يفرح بشيء فرحه بهدم بيت من بيوت المسلمين، وتشتيت أسرة من أسرهم، ففي الحديث: "إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت!"[5].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٥.

(٤) سورة محمد، الآيتان، ٢٢، ٢٣.

(٥) رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين، ح (٢٨١٣) (٤/ ٢١٦٧).

٢ – أهمية الأسرة :

الأسرة من أعظم مظاهر تكريم الإنسان، وتميزه عن الحيوان، فهي رباط وثيق، وميثاق غليظ، يمتد أثرها امتداد الحياة، وتبقى روابطها وصلاتها بعد الوفاة، وقد اقتضتها مصلحة الإنسان، بل لا تتم رعاية الضرورات الخمس – في أغلب الأحيان –وهي الدين والنفس والعقل والعرض والمال ، إلا بوجود الأسرة الحانية، ومن الفوائد الجلية للأسرة ما يأتي :

تحقيق السكن النفسي والروحي، وإيجاد بيئة مغمورة بالمحبة والرحمة، والبر والتآلف، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[1].

ب– إنجاب الأولاد الشرعيين، والمحافظة على الأنساب، وفي هذا كرامة للولد، وتخليد للوالد، وكل مولود يأتي من غير طريق الأسرة يكون لقيطاً طريداً منبوذاً، لا يقبله حتى من كان سبباً في وجوده .

ج– حاجة الطفل إلى جو من الحنان، والحب، والعطف، حتى ينشأ نشأة سوية، فيها تفاؤل، ورغبة في الحياة والعطاء، وشعور بأن هناك من يرعاه، ويحوطه ويقبله، فينشأ نشأة سوية، ويشتد عوده رويداً رويداً .

د– الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي تطول طفولته، ولا يضارعه في ذلك غيره[2] فهو لا يستقل تمام الاستقلال عن أسرته إلا بعد سنوات كثيرة، وقد

(١) سورة الروم، الآية:٢١

(٢) انظر: النظام الاجتماعي والخلقي في الإسلام، ص:١٩٨

اقتضت حكمة الله ذلك لحاجة الإنسان إلى تعلم اللغة والدين والعادات، واختزان النتاج الحضاري الذي سبقه إليه آباؤه وأجداده، والأسرة تؤمن له شيئا كثيرا من ذلك .

هـ- الأسرة هي المحضن الأول، والمدرسة الأولى، التي يتلقى فيها الطفل الحق والصواب، وأصول الأخلاق، وطريقة التعامل، فيتهيأ للخروج إلى المجتمع وقد أحاط بجملة صالحة، من عادات مجتمعه ودينه وأخلاقه، وأسلوب التعامل الذي يبعده عن المزعجات، ويجنبه المهلكات .

و - حاجة الطفل إلى التعلم عن طريق المحاكاة، والأسرة تؤمن له ذلك، فهو يرى والديه الذين يغمرانه بالحب والعطف يقيمان الصلاة، ويصومان رمضان، ويقرآن القرآن، ويعجبهما السلوك الحسن، ويسوؤهما السلوك السيئ، فتنطبع في ذهنه هذه الصورة، ويترسم خطاها فيما بعد، وتصبح جزءاً من حياته [١] .

ز- حاجة الكبار إلى الأسرة، فالإنسان مدني بالطبع يحب الاجتماع، ويكره الوحدة، والأسرة أعظم مظهر حضاري وديني يؤلف بين مجموعة، وهي أروع مثل عرفته البشرية في التعاون والوفاء، والحماية والتكافل، مع ما يغشاهم من الرحمة، ويحفهم من المحبة .

ح- لا تكتمل رجولة الرجل، ولا أنوثة الأنثى إلا بهذا الرباط الوثيق، الذي سماه الله "ميثاقاً غليظاً"، ففي الرجال فجوات تسدها النساء، وفي

---

(١) انظر: محاضرة في الأسرة د.محمد عبد الله عرفة، ص: ٣٧.

النساء نواقص يكملها الرجال، وباجتماعها يكتمل الاثنان، قالت أمامة بنت الحارث التغلبية وهي توصي ابنتها:(أي بنية! لو استغنت امرأة عن زوج بفضل مال أبيها لكنت أغنى الناس عن ذلك، ولكنا للرجال خلقنا كما خلقوا لنا)[1].

ط- سلامة الأفراد والمجتمع من الانحلال الخلقي، وانتشار الأوبئة، والأمراض الجنسية، التي تنتج من السفاح، والعلاقات غير الشرعية، قال- صلى الله عليه وسلم- في حديث طويل: **" لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا "**[2].

ي- من بركات الزواج، وتكوين الأسرة، كمال دين العبد، وإعانته على التقوى، وتيسير غض بصره، وحفظ فرجه، قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- **" إذا تزوج العبد فقد كمل نصف الدين، فليتق الله في النصف الباقي "**[3] وقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-:**" يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج "** متفق عليه[4].

---

(١) أحكام النساء، لابن الجوزي، ص:٧٤

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن، ح(٤٠١٩) (٢/ ١٣٣٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح(٧٩٧٨)(٢/ ١٣٢١).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، ح(٥٤٨٦) (٤/ ٣٨٣) وحسنه الألباني، انظر:صحيح الجامع الصغير ، ح(٤٣٠) (١/ ١٣٦) .

(٤) رواه البخاري كتاب النكاح، ح(٤) (٧/ ٤) ومسلم، كتاب النكاح، ح(١٤٠٠) (٢/ ١٠١٨).

وفوائد الأسرة وأهدافها أكثر من أن تحصر، والمقصود الإشارة إلى ذلك؛ لحمل كل فرد من أفرادها على الذود عنها، وحمايتها من زوابع الاختلاف، وأعاصير الأهواء .

٣- متطلبات أساسية حتى تؤدي الأسرة وظائفها :

الأسرة في الإسلام أقيمت على أساس ثابت ودقيق ، مستمد من الواقع والحاجة ، ومطابق للفطرة، وحتى تؤتي الأسرة ثمارها، وتحقق المأمول منها، لابد من وعي الزوجين ، وإحاطتهما بثقافة إسلامية جيدة، مع الصدق في التطبيق .

ومما يؤسف له أن الواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية اليوم، والانفتاح الإعلامي والمادي، وعمق تأثيره على الكبار والصغار، والانبهار بمعطيات الحضارة الغربية، قد أدى إلى تفكك كثير من أواصر المجتمع، وأسباب ارتباطه، ونال الأسرة المسلمة من ذلك الشيء الكثير، وصار بعض الأسر مبنية على شفا جرفٍ هارٍ، فتتعرض للانهيار عند أدنى زلزال خلاف ، أو عاصفة أنانية وشح .

وقد رأيت أن أجلي قواعد قيمة، وتوجيهات نيرة، ومهذبات سلوك مؤثرة، يقرؤها الزوجان في كتاب الله، ويطلعان عليها في سنة رسول الله، لكن الغفلة عن التدبر، تحرمهما الاستفادة، وتمنعهما من التأثر، فلعل في جمعها وشرحها، وتقريب معانيها بأسلوب ميسر، وعبارة لا تنبو عن الأذهان، ما يحقق سعادة الزوجين، ويحمي أسرتهما من التصدع والانهيار، والشقاء ونكد الحياة، فإليك هذه القواعد الذهبية، التي استُنبِطت من نص

الكتاب والسنة، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[1].

وعلى قدر تمسك الزوجين بهدي الكتاب والسنة، تكون سعادتهما في الدنيا، وفلاحهما في الآخرة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧

القاعدة الأولى
حسن اختيار الزوجين

عقد الزواج يقصد به الديمومة، ويرجى من ورائه تحقيق الرحمة والمودة والسكينة، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[1].

كما أن من أعظم أهدافه إنشاء أسرة، يستظل بها الزوجان أولاً، والأولاد ثانياً، ومن وراء ذلك العائلة والمجتمع والأمة، ولذا ينبغي حسن اختيار الزوجين، ومراعاة مواصفات معينة، على قدر الجهد والطاقة، حتى يحقق الزواج أهدافه، ويجني الطرفان، ومن له علاقة بهما ثماره، وسأذكر بعض ما جاء في الكتاب والسنة، من الصفات الحسنة، التي ينبغي مراعاتها عند الاختيار وقبل العقد :

١- صفات الزوجة[2] :

جاء في الكتاب والسنة مواصفات معينة للزوجة الصالحة، المؤهلة للارتباط بها، حتى تقوم الحياة الزوجية على الهناءة والتعاون، والصبر

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٢) في لسان العرب،مادة (زوج) :" أما الزوج فأهل الحجاز يضعونه للمذكر والمؤنث وضعاً واحداً... وبنو تميم يقولون: هي زوجته، وأبى الأصمعي فقال: زوج لا غير ...وكانت من الأصمعي في هذا شدة وعسر"أ.هـ وفي كنز الحفاظ لابن السكيت(١/ ٣٥٦) (ويقال : هي زوجته وزوجه)أ.هـ. والجواز لا يعني أنه الفصيح انظر معجم مقاييس اللغة، مادة (زوج) (٣/ ٣٥) ولذا لم يرد في القرآن الكريم إلا التذكير.

والتحمل، وعمق المودة والرحمة، وصدق المحبة، فإن غابت فحسن المجاملة، وجميل المعاشرة، ومما جاء في الكتاب والسنة في هذا الشأن:

أولاً:- قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[1] :

مسلمات: أي خاضعات لله بالطاعة.[2]

مؤمنات: مصدقات بالله ورسوله[3].

قانتات: القنوت في اللغة: الطاعة، هذا هو الأصل[4]، ويرد بمعان متعددة[5].

أما معنى القنوت في الآية: فهو لزوم طاعة الله مع الخضوع له[6]، ويندرج في ذلك لزوم طاعة الزوج؛ إذ إن طاعة الزوج من طاعة الله، بل إن المقصود من الخبر في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾[7] الأمر بطاعة الزوج والقيام بحقه[8].

تائبات: أي: راجعات إلى ما يحبه الله منهن من طاعته عما يكره

(١) سورة التحريم، الآية: ٥.

(٢) تفسير الطبري (٢٨/ ١٦٤).

(٣) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٤) انظر: معجم مقاييس اللغة (قنت) (٥/ ٣١).

(٥) انظر: لسان العرب: (قنت) (٢/ ٧٣).

(٦) المفردات: (قنت) ص: ١٤٣.

(٧) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٨) انظر الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٧٠).

منهن[1]، ومن ذلك ندمهن على ما فرط منهن في حق أزواجهن، إذ إن ذلك مما يسخط الله، كما في الحديث: **" إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت، فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح "**[2] متفق عليه.

عابدات: متذللات لله بطاعته[3]،كأن العبادة امتزجت بقلوبهن حتى صارت ملَكَة لهن[4].

سائحات: أي صائمات، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وجمهور المفسرين[5] تشبيهاً للصائم بالسائح من بني إسرائيل وغيرهم، الذي يقلل من الطعام والشراب والنساء[6].

وقيل: السياحة هي السير في الأرض، والمراد به سير خاص محمود شرعاً، وهو السفر الذي هو قربة لله وامتثال لأمره ، مثل سفر الهجرة والجهاد والحج[7].

ثانياً:- قوله تعالى: ﴿ **فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ** ﴾[8] والصلاح

---

(١) تفسير الطبري (٢٨/ ١٦٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح (١٢٣)، (٧/ ١٥٣) ومسلم، كتاب النكاح، ح(١٤٣٦) (٣/ ١٠٦٠).

(٣) تفسير الطبري (٢٨/ ١٦٤).

(٤) محاسن التأويل (١٦/ ٥٨٦٤).

(٥) تفسير الطبري (١١/ ٣٨).

(٦) المصدر السابق، الصفحة التالية.

(٧) انظر : التحرير والتنوير (١١/ ٤١).

(٨) سورة النساء: الآية:٣٤.

والقنوت يندرج فيما ذكر في الآية السابقة، أما معنى قوله تعالى: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ أي: حافظات لفروجهن في غيبة أزواجهن[١]، وفرج المرأة أعظم وديعة عندها، وعفتها أعظم دعامة تقوم عليها الأسرة المسلمة، ولهذا أعلى الله شأن العفة والإحصان للذكر والأنثى، فقال تعالى: ﴿مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾[٢] وقال: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٍ﴾[٣] وحرم الله تعالى على المؤمنين نكاح الفاجرة، وإنكاح الفاجر فقال: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٤].

ثالثاً:- قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾[٥] ومعنى "بعضهم أولياء بعض": أي يتناصرون ويتعاضدون، من الولاية ، وهي النصرة والأخوة والمحبة[٦].

وإذا كانت هذه سمة أفراد المجتمع المسلم الكبير، الذين تربط بينهم رابطة العقيدة، فمن باب أولى أن تكون سمة أفراد المجتمع الصغير، وهو الأسرة ، وأن يكون أفرادها - ذكوراً وإناثاً - متناصرين متناصحين، تسود

---

(١) معالم التنزيل (٢/ ٢٠٧).

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٤) سورة النور، الآية: ٣.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٦) انظر التفسير المنير (١٠/ ٣٠٢).

بينهم الألفة والمحبة، والتعاون على البر والتقوى، كما قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- : **" مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "**(١)، ومعلوم أن الأقربين أولى بالمعروف، والشريعة تجعل للقريب حقوقاً لا تجعلها لغيره .

وشاهد المقال: إن على الزوجين أن يتصفا بما ورد في الآية، حتى تتم سعادتهما، ويجنيا ثمرة الرابطة بينهما في الدنيا والآخرة .

رابعاً: قوله – صلى الله عليه وسلم -: **"تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"**(٢) .

وهذا الحديث خبر عن رغبات الرجال في النساء، وأسباب تفضيلهن، وقد حث على الظفر بذات الدين، فإن الدين يجبر نقص المرأة في الأمور المذكورة؛ لحسن تبعلها، وحرصها على مرضاة زوجها، طمعاً في ثواب ربها، إذ إن المشاهدة تدل على أن مال الزوجة وحسبها وجمالها ليست أسباباً لسعادة الزوج على الدوام، بخلاف الدين .

والجدير بالتنبيه أن الحديث لا يلغي هذه الصفات، بل يجعل الدين مقدماً عليها عند التعارض، قال الحافظ ابن حجر:(قوله: **"ولجمالها"** يؤخذ منه استحباب تزوج الجميلة إلا إن تعارض الجميلة الغير ديّنة والغير

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس بالبهائم، ح(٤١) (٨/ ١٧) ومسلم، كتاب البر، باب تراحم المؤمنين ح (٢٥٨٦) (٤/ ١٩٩٩) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، ح (٢٨) (٧/ ١٢).

جميلة الديّنة، نعم لو تساوتا في الدين فالجميلة أولى، ويلحق بالحسنة الذات الحسنة الصفات)[١].

ومما ينبغي التنويه به أن الإسلام لا يعارض الفطرة في طلب الجمال، فالنبي- عليه السلام-يقول:"خير النساء التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره"[٢].

خامساً: الحرص على الأبكار؛ لحديث جابر، قال: قلت يا رسول الله إني حديث عهد بعرس، قال: تزوجت؟! قلت: نعم، قال: أبكر أم ثيباً؟ قال: قلت: بل ثيباً، قال: فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك؟! "[٣].

ويروى عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: **"عليكم بالأبكار، فإنهن أعذب أفواهاً، و أنتق أرحاماً[٤]، وأرضى باليسير "**[٥].

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٣٥).

(٢) رواه أحمد في المسند(٢/ ٢٥١) والحاكم في المستدرك،كتاب النكاح(٢/ ١٦١) وقال:صحيح على شرط = = البخاري، وقال الذهبي: على شرط مسلم، وصححه الألباني، أنظر صحيح الجامع الصغير ،ح (٣٢٩٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب تستحد المغيبة ح (١٧٦) (٧/ ٧١).

(٤) قوله:أنتق أرحاما:أي: أكثر أولادا، انظر: السنن الكبرى للبيهقي،كتاب النكاح،ح(١٣٤٧٤)(٧/ ١٣٠) .

(٥) رواه البيهقي في السنن الكبرى ،كتاب النكاح ،ح(١٣٤٧٤) (٧/ ١٣٠)مرسلا، وضعفه ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١٤٥) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٩٣) وحسنه الألباني،وعزاه إلى ابن السني وأبو نعيم عن ابن عمر مرفوعا ، انظر صحيح الجامع الصغير ، ح (٤٠٥٣) (٢/ ٧٤٨).

٢- صفات الزوج :

وكما أن على الرجل أن يبحث عن صفات معينة في المرأة، فكذلك على المرأة وولاة أمرها أن يبذلوا جهدهم في اختيار الزوج المناسب، ذي الصفات الحسنة، بل إن شأن الزوج أشد، وحسن اختياره أهم، إذ إن العصمة بيد الرجل، فهو متى شاء أنهى عقد النكاح، بخلاف المرأة، فقد تعاني كثيراً، ولا يتيسر لها الخلاص من رجل سوء، ثم إن المرأة تتضرر كثيراً من الطلاق، بل قد تحرم الزواج والأسرة والولد بسببه .

وما ذكر من صفات المرأة في الفقرة السابقة ، ينبغي مراعاتها في حق الرجل من الإسلام، والإيمان، والقنوت، والتعبد، والتوبة.....الخ ، وثمت صفات أخرى للرجل وردت في الكتاب أو السنة، وقد يندرج بعضها ببعض، أو فيما سبق، ولكن نذكرها لمزيد عناية بها ، ومن ذلك :

أولاً:- ما ورد في قوله تعالى: ﴿**ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ**﴾[1] فقد أشارت هذه الآية إلى ثلاث خلال ينبغي
أن يتحلى بها الزوج :

أ – قوله تعالى: "الرجال" ومن معاني الرجولة في لغة العرب: الكمال والاتصاف بصفات تخرجه عن الصغر والسفه والتخنث، ففي لسان العرب: (ابن سيده: وقد يكون الرجل صفة يُعنى بذلك الشدة والكمال،

---

(١) سورة النساء: الآية: ٣٤.

قال: وعلى ذلك أجاز سيبويه الجر في قولهم مررت برجل رجل أبوه، والأكثر الرفع ، وقال في موضع آخر: إذا قلت هذا الرجل، فقد يجوز أن تعني كماله ...وفي معنىً تقول: هذا رجل كامل، وهذا رجل: أي فوق الغلام)[١]، وبهذا نعرف سر التعبير بقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ ولم يقل الذكور قوامون على الإناث، ففي هذا إثارة لمكامن الرجولة فيهم تجاه هذه المسؤولية العظيمة، إذ لا يقوم بهذه القوامة حقاً، إلا من كانوا رجالاً حقاً[٢].

ب - قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي بما خصهم به من خصائص تميزهم عن النساء، فليس أهلاً للتزويج من تشبه بالنساء ،وتخلى عن صفات الرجولة .

ج- قوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ فالنفقة من ضرورات الحياة الزوجية، وقد نهى النبي-صلى الله عليه وسلم-فاطمة بنت قيس-رضي الله عنها- عن التزوج بصعلوك لا مال له[٣]، والفقير الترب يؤمر بالاستعفاف، وحفظ الفرج والصوم، دون الزواج، قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٤].

وفي الحديث: **"يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛**

---

(١) لسان العرب (رجل) (١١/ ٢٦٦) باختصار.

(٢) انظر: تفسير آيات الأحكام في سورة النساء، د: اللاحم (١/ ٦٠٠).

(٣) رواه مسلم، كتاب الطلاق ح(١٤٨٠) (٢/ ١١١٤).

(٤) سورة النور: الآية: ٣٣.

فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء"[1].

قال الحافظ ابن حجر-رحمه الله-:(وفي الحديث إرشاد العاجز عن مؤن النكاح إلى الصوم)[2]، وذكر ابن دقيق العيد عن بعض العلماء تحريم النكاح في حق من يخل بالزوجة
في الوطء أو الإنفاق[3].

نعم ، لو كان الزوج فقيراً لكنه قوي مكتسب، يستطيع أن يقيت امرأته ، ويحصل نفقة كل يوم بيومه، ورضيت الزوجة به، فلا محظور شرعاً في تزويجه؛ لقوله تعالى: ﴿**وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ**﴾[4]، وفي صحيح البخاري: باب تزويج المعسر، ثم ساق حديث الذي لم يجد مهراً، ولو خاتماً من حديد، وتزويج النبي له امرأة بما معه من القرآن[5].

ثانياً:- الدين، إذ هو الحصن الحصين، الذي يحمي المرأة من ظلم بعلها، ومن تفلته مادياً أو معنوياً، أو سلوكياً، وصِدْق التدين يشع على الحياة الزوجية الأمن النفسي، والصحي، والاستقرار العاطفي .

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح(٣) (٧/ ٣) ومسلم كتاب النكاح، ح(١٤٠٠) (٢/ ١٠١٨).
(٢) فتح الباري (٩/ ١١١).
(٢) المصدر السابق، الموضع نفسه.
(٤) سورة النور، الآية: ٣٢.
(٥) انظر: صحيح البخاري، كتاب النكاح، ح (٢٥) (٧/ ١٠).

ويمكن الاستدلال على الترغيب بإنكاح ذي الدين الحي بقول الله تعالى في ثنايا آيات الطلاق والرجعة: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾(١)، فمن لا يقبل وعظ الله في أحكامه عامة، وفي أمور النكاح والنفقة والعشرة والطلاق والرجعة خاصة، فليس أهلاً للتزويج .

ويؤكد هذا قول النبي - صلى الله عليه وسلم - **"إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض، وفساد عريض"**(٢).

ثالثاً:- حسن الخلق، وهو شعبة من الدين، لكني أفردته لأهميته، ولأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أفرده في قوله: **"إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه"** ولا يخفى أنه من باب عطف الخاص على العام ، تنويهاً بالخاص ، وتنبيهاً على أن الحياة الزوجية لا تستقر بدونه ، ومن حسن الخلق: بذل الندى، وكف الأذى .

ومنه: التحلي بالفضائل، و التخلي عن الرذائل .

ومنه: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك (٣) .

وإذا كان أفراد البشرية لا تستقيم حياتهم، ولا تستمر صلاتهم، إلا بخلق قويم، وتعامل كريم، فإن أفراد الأسرة الواحدة أشد حاجة لذلك، لكثرة الاحتكاك، وقلة الانفكاك . وسيأتي مزيد بيان لهذه المزية في القاعدة الرابعة .

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢.

(٢) رواه الترمذي، كتاب النكاح، ح(١٠٨٥) (٣/ ٣٨٦) وحسنه الألباني، صحيح الجامع الصغير،ح (٢٧٠) (١/ ١١٢).

(٣) انظر: رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، د/ محمد الحمد :ص: ٥٠٧.

القاعدة الثانية

"وليس الذكر كالأنثى"

إن الإحاطة بهذه القاعدة القرآنية من أعظم أسباب هناءة الزوجين، والتفافهما، ودوام الإلفة والمحبة بينهما، ومعرفة النوازع والدوافع للسلوك البشري، ومن ثم القدرة على تجنب مواطن التدابر والتقاطع، وتقدير كل طرف للآخر عند الاختلاف .

لقد سوى الإسلام بين الرجال والنساء في أمور كثيرة، كالتكريم، وأصل التكليف، والمسؤولية، والجزاء، وحق التملك والإرث، وأهلية التعاقد... الخ.

ومع تلك المساواة ثمت فوارق جسدية، وعقلية، وفكرية، وعاطفية، وتصورية .

هناك اختلاف الطبع والفطرة، وتباين القوى العقلية، والمشارب النفسية، والاستعدادات العصبية .

هناك فوارق جلية، وأخرى خفية، وهي بمجموعها تؤدي إلى وجود جنسين، يتشابهان في أشياء، ويختلفان في أشياء، وقد قدر الخالق الحكيم هذه الفوارق ليشعر كل طرف بنقص لا ينجبر إلا بالطرف الآخر، ومن ثم تقوم الأسرة، ويؤدي كل جنس ما نيط به من مسؤوليات، وينقاد بزمام الفطرة إلى تنفيذ ما كلف به من مهمات .

وقبل أن أسترسل في شرح هذه القاعدة القرآنية، أنبه إلى أن الرجل والمرأة في أصل الفطرة متوادان لا متباغضان، ومتآلفان لا متضادان،

ومتكاملان لا متناقضان، فالرجل لا يستغني عن المرأة، ولا يستطيع أن يؤدي وظيفتها أو يقوم بدورها !!.

وكذلك المرأة لا تسعد بعيداً عن الرجل، ولا تستغني عنه !!.

والفوارق بينهما لا تعني عيباً في أحدهما، بل إن العيب فيما لو تشبه أحدهما بالآخر، أو أراد أن يخالف الفطرة فيقوم بدور أنيط بغيره !!.

إن الرجل والمرأة كالشمس والأرض، فلا حياة بلا شمس، ولا ثمرة للشمس بلا أرض، ولا يعيب الأرض كون الشمس أكبر، وأرفع، وأكثر حرارة، فكل ميسر لما خلق له .

وقضية عدم مساواة الجنسين ما كانت لتحرر وتقرر، لولا الاضطراب الفكري الذي يعيشه العالم الإسلامي، والانهزام النفسي أمام حضارة الغرب، وشهوة تقليدها، بل وعبودية البعض لهذه الحضارة، مما جعلهم يبصرون الأشياء بمقاييسها، ويملؤون الجو ضجيجاً، بل نعيقاً، مطالبين بالمساواة، وإلغاء الفوارق !!.

إن الفوارق بين الرجال والنساء أكثر من أن تحصر، ولعل الفقرات التالية تميط اللثام عن شيء من ذلك :

أولاً:- النصوص الشرعية :

قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[2]، وقال جل جلاله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ

(١) سورة آل عمران: الآية: ٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ ﴾[1].

وقد صح أن سبب نزول هذه الآية تمني النساء بعض خصائص الرجال[2]، قال السعدي تعليقاً على هذه الآية:(ينهى الله تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره، من الأمور الممكنة، والأمور غير الممكنة، فلا تتمنى النساء خصائص الرجال...)[3].

ومن النصوص البينة الدالة على الفرق بين النساء والرجال قوله تعالى: ﴿ **أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ** ﴾[4]، فالمرأة بوحي من الفطرة، وتوجيه من الغريزة والطبع، تميل إلى التحلي والتزين، وزخرفة الثياب والأثاث !.

وكذلك المرأة – عند الغضب والانفعال وشدة الخصام– لا تكاد تبين عما في خاطرها، أو تنهض بحجتها.

ثانياً :– هل هن ناقصات عقل ودين ؟! :

عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: **"ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن!** قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟! قال:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨ / ٣٦٢) (تحقيق شاكر)، وتعليق أحمد شاكر على الأثر.

(٣) تفسير السعدي: ص: ١٧٦.

(٤) سورة الزخرف الآية: ١٨.

أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى، قال: **فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟!** قلن: بلى، قال: **فذلك من نقصان دينها"**[(١)].

أما نقصان الدين فبين من ظاهر الحديث، فمن ترك شيئاً من الفرائض - ولو لعذر - نقص دينه، إذ إن الدين مجموعة أقوال وأعمال واعتقادات، فما نقص منها كان نقصاً في دين المرء.

وأما نقصان العقل فيحتاج إلى بيان المراد بالعقل في الكتاب والسنة؛ لأن الله خاطب جميع بني آدم بقوله: ﴿**وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[(٢)]، وبقوله: ﴿**وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ**﴾[(٣)]. وخاطب جميع المؤمنين بقوله: ﴿**إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[(٤)] وبقوله﴿**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ وخص بالعقل أقواماً فقال: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ**﴾[(٥)] وبقوله: ﴿**كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[(٦)] كما أن الله تعالى نفى العقل عن قوم عرفوا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيض، ح(٩)(١/ ١٣٧)، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، ح (١٣٢)(١/ ٨٦) بنحوه.

(٢) سورة غافر: الآية: ٦٧.

(٣) سورة يس، الآية: ٦٢.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٢

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣

(٦) سورة الروم، الآية: ٢٨.

بالذكاء، والدهاء، وسعة الحيلة، وعظيم المكر،كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾[1] مع قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2]، وهل العهد يبرم إلا مع علِّية القوم ودهاتهم، لا مع سفلتهم وسفائهم، ومثل هذا يقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3]، مع أن القوم الذين نزلت فيهم هذه الآية- لو صح سبب النزول[4]- من دهاة العرب وعظمائها، وأظهر من هذا وصف جميع الكفار بقوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[5]، وفيهم نوابغ وأذكياء، ودهاة وحكماء، وأصحاب مكر يكاد يزيل الجبال .

إذن ، ما المراد بالعقل في لسان العرب، وفي كتاب الله؟! وعلى ضوئه يتضح المراد بالنقصان الوارد في سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن الفقرات التالية تكشف الحقيقة، وتنير البصيرة :

أ – يخطئ من يقصر العقل على ما يضاد الجنون، فالعقل في لغة العرب

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٤.

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول، ص: ٣٨٧، بسند فيه داود الطفاوي، قال الذهبي في الكاشف (١/ ٢٢٠)(لينه ابن معين، وقد وثق) وقال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب (٣/ ١٦٥):(قال ابن معين ...ليس بشيء ، وذكره ابن حبان في الثقات) أ.هـ وقد رواه الترمذي في سننه كتاب التفسير ح(٣٢٦٧) وحسنه، لكن لم يعين المنادي .

(٥) سورة البقرة الآية : ١٧١.

أوسع من ذلك، قال ابن فارس:(عقل : العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مطرد، يدل عُظمه على حبسة في الشيء، أو ما يقارب الحبسة، من ذلك العقل وهو الحابس عن ذميم القول والفعل، قال الخليل: العقل: نقيض الجهل[١] يقال:عقل يعقل عقلاً: إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما كان يفعله...ورجل عقول:إذا كان حسن الفهم)[٢].

وقد ذكر ابن منظور مرادفات العقل وهي:الحِجر، والنهى، والحبس، وجمع الأمر، والرأي،

والتثبت، والقلب، والتمييز، والفهم ، وقمع النفس عن الهوى ، ولم يذكر مضاداً

للعقل سوى الحمق[٣]، بينما لم يذكر ابن فارس مضاداً له سوى الجهل[٤].

وبناء على ذلك فإنه يصح لغة أن يقال: عند فلان نقص في العقل، إن كان فيه حمق، أو جهل، أو تشتت رأي، أو ضعف تمييز، أو عجلة، أوقلة تثبت، أو عدم قدرة على قمع النفس عن الهوى .

وإذا قارنا بين الرجال والنساء – من حيث الجملة – علمنا أن النساء ينقصن عن الرجال في كثير من هذه الأمور .

ب– القرآن نزل بلغة العرب، ولم أر أحداً من المفسرين ذهب إلى أن نفي العقل في

---

(١) كتاب العين، (عقل) (١/ ١٥٩).

(٢) معجم مقاييس اللغة، (عقل) (٤/ ٦٩).

(٣) لسان العرب، (١١/ ٤٥٨).

(٤) معجم مقاييس اللغة، (عقل) (٤/ ٦٩).

القرآن يعني الجنون، أو البله، أو نقص الذكاء، وإليك ما قاله بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[1]، كمثال لسائر الآيات :

قال ابن جرير: (وقال الفوج الذي ألقي في النار للخزنة : "لو كنا" في الدنيا "نسمع أو نعقل" من النذر ما جاؤونا به من النصيحة، أو "نعقل" عنهم ما كانوا يدعوننا إليه ما كنا اليوم "في أصحاب السعير" يعني :أهل النار)[2].

وقال البغوي: ("وقالوا لو كنا نسمع" من الرسل ما جاؤونا به " أو نعقل " منهم، وقال ابن عباس: لو كنا نسمع الهدى، أو نعقله فنعمل به)[3].

وفي التفسير المنير:(لو كنا نسمع" سماع تفهم " أو نعقل " عقل تفكر ... فلوكنا نسمع ما أنزل الله من الحق سماع من يعي، وسماع هداية، أو نعقل عقل من يميز، وينظر وينتفع ، وعقل هداية، ما كنا من أهل النار)[4].

ولعل الراغب الأصفهاني خير من يوضح العقل في القرآن حيث قال: (العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل، ولهذا قال أمير المؤمنين -رضي الله عنه-: "العقل

(١) سورة الملك، الآية: ١٠.

(٢) تفسير الطبري، (٢٩/ ٥).

(٣) معالم التنزيل، (٨/ ١٧٧).

(٤) التفسير المنير، (١٧/ ١٥) باختصار.

عقلان: مطبوع ومسموع"...وهذا العقل- يعني الثاني المسموع- هو المعني بقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول،نحو: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ إلى قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[(١)] ونحو ذلك من الآيات، وكل موضع رفع فيه التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأول، وأصل العقل: الإمساك والاستمساك)[(٢)].

وخلاصة القول: إن العقل المسموع يتجزأ ويزيد وينقص بناء على العلم والتجربة ، والتفكر في عواقب الأمور ، وكذلك العقل المطبوع درجات بعضها أرفع من بعض ، والرجال من حيث الجملة أوفر حظاً من النساء في العقل المسموع وفي العقل المطبوع .

ثانياً:- أقوال علماء الاجتماع :

يقول د/ محمد أحمد حسن ود/ أحمد فؤاد محمود:(...فالمطالبة بالمساواة التامة للمرأة مع الرجل في كل شيء، أمر لا يتفق مع واقع الحياة، إن الله – سبحانه- خلق الرجل والمرأة من نفس واحدة، وجعل في طبيعتهما خصائص جنسية مشتركة، وأخرى نوعية، للرجل منها ما ليس للمرأة، وللمرأة ما ليس للرجل، ليتحقق الغرض من الزوجية... ذلك أن الله- جلت قدرته – خص كلاً من الرجل والمرأة بخصائص معينة يتعذر على

(١) سورة البقرة: الآية: ١٧١.

(٢) المفردات، (عقل) ص: ٣٤١، باختصار.

الجنس الآخر القيام بها...وسوف يبقى الرجل رجلاً مهما حاول محاكاة المرأة فيما خصها الله به من وظائف الحياة، وسوف تبقى المرأة امرأة مهما حاولت محاكاتها الرجل فيما خصه الله به من وظائف الحياة...ومن هنا كان طلب المساواة التامة للمرأة مع الرجل أمراً لا مبرر له، ولا يمكن تحقيقه، لأنه يسير في خط معاكس لما أراد الله)[١].

وقال توفيق علي وهبة: (إن الذين يتشدقون بدعاوى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل، إنما يدعون إلى طريق خطر؛ لأن الله الذي خلق كلاً من الرجل والمرأة من نفس واحدة، يسر كلاً منهما لما خلق له، فالمرأة بحكم تكوينها الجسماني تحمل، وتضع، وترضع، وتربي أولادها، ووضع في قلبها الحنان، والرحمة، وأعطى الرجل قوة في الجسم؛ ليستطيع العمل والكدح في الحياة)[٢].

وقال الأستاذ عبد العزيز بن ناصر العبد الله:(إن الرجال والنساء يختلفون في طريقة الحوار، والكلام، والتفكير، والشعور، والإدراك، وردود الأفعال والاستجابات، والحب ،والاحتياجات، وطريقة التقدير والتعبير عن الحب .

إن جهل هذه الفروق والسنن الإلهية في العلاقات الإنسانية هو سبب

---

(١) النظام الاجتماعي والخلقي في الإسلام،د/ محمد أحمد حسن وشريكه ص: ٢٤٨-٢٥٠ باختصار.

(٢) دور المرأة في المجتمع الإسلامي،توفيق علي وهبة ص: ٢١٠.

نشوء التوتر والاستياء، والصراعات بين الزوجين)[١].

ثالثاً:- شهادة العلم الحديث :

يقول العلم الحديث:(طبيعة تكوين الرجل وكيماويته وخشونته تختلف تماماً عن طبيعة تكوين المرأة وكيماويتها ورقتها؛ لأن التكوين المقَنَّع تدخلت فيه الهرمونات الجنسية التناسلية في كل منهما، وهي المسؤولة عن غلظة الذكر، وهي كذلك المسؤولة عن رقة الأنثى...هرمون التستوستيرون في الذكر يقوي العضلات، ويبني الجسم...ويقوي العظام ...وهذا الهرمون تفرزه خصيتا الرجل، وهو مسؤول عن ظهور العلامات الجنسية... مثل ظهور شعر الشارب، واللحية ،وغلظة الصوت، وبناء الهيكل العضلي والعظمي...يقابله في المرأة أو الأنثى هرمون البروجسترون، وهذا الأخير مسؤول عن السمات الجنسية في الأنثى مع هرمون الإستروجين منظهور الثديين، وتكوين المبايض وتطورها، وبناء الرحم والمهبل...) [٢].

كذلك لهذه الهرمونات آثارها على الأنثى من نعومة، ورقة صوت، واستدارة جسم، إضافة إلى التأثير على العواطف والمزاج .

وقد أثبت الدكتور روجرز سبراي - الحائز على جائزة نوبل في الطب- وجود فروق بين مخ الرجل ومخ المرأة، مما يمنع المساواة بينهما في المشاعر، والعواطف، وردود الأفعال، ويمنع الذكر والأنثى من القيام

---

(١) الزوج والزوجة ما لهما وما عليهما،تأليف: عبد العزيز العبدالله ص: ١٥٩.

(٢) المرأة في ميزان الطب والدين،تأليف:د/ السيد الجميلي ص: ٣٩، باختصار.

بنفس الأدوار[1].

كما أجرى طبيب أعصاب في جامعة (بيل) الأمريكية تجارب عديدة، فأثبت أن نصف مخ الرجل يقوم بعمل مخ الأنثى كاملاً[2].

وهذا ما اكتشفه البروفسور ريتشارد لين المنتسب إلى جامعة (أليستر) البريطانية حيث قال: (إن عدداً من الدراسات أظهرت أن وزن دماغ الرجل يفوق مثيله النسائي بحوالي أربع أوقيات).

وأضاف لين: (إنه يجب الإقرار بالواقع، وهو أن دماغ الذكور أكبر حجماً من دماغ الإناث)[3].

ولعل هذا يفسر نبوغ الذكور في جوانب الاكتشافات، والاختراع، والرياضيات والفيزياء، والكيمياء، والفلسفة، والشعر، من جهة الإبداع والاختراع، وإن نبغت أنثى في شيء من ذلك ففي جانب التلقي والاختزان، ومحاكاة ما سبق اختراعه .

إن المسلمين ليسوا بحاجة إلى مثل هذه الشهادات،فعندهم شهادة الذي خلق الزوجين ،قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ وإنما ذكرت ذلك لأن دعاة المساواة بين الجنسين إنما هم مقلدة لحضارة الغرب، فشهادتها تقع لديهم موقعاً حسناً .

---

(١) رسائل في أبواب متفرقة،تأليف د/ محمد الحمد٠ ص: ١٩٩.

(٢) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٣) المصدر السابق، ص: ٢٠٠.

رابعاً:- شهادة الواقع :

قديماً قيل :

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل[١]

إن الواقع المشاهد، وعلاقة الذكر بالأنثى على مدار تأريخ البشرية ، ومجمل الميول والاهتمامات، تؤكد الفوارق الهائلة، بين الذكر والأنثى، وبما أن توضيح الواضح فاضح فسوف اقتصر في شهادة الواقع على بعض ماله مساس بحياة الزوجين، وإعانتهما على التفاهم والتواؤم:

أ - تختلف المرأة عن الرجل عند شدة الغضب والخوف، فالمرأة - إلا من شذ - تفقد السيطرة على أعصابها، وتختفي رؤيتها للماضي والمستقبل، وتنحصر الرؤية في اللحظة الحاضرة، ولذا تكرر المرأة عند غضبها كلمتين تزعجان الزوج الجهول بطبائع النساء، وهما: ما رأيت منك خيراً قط، ولا أستطيع الحياة معك في المستقبل، أو أنت رجل لا يطاق .

فإذا هدأت ندمت وتأسفت، وأيقنت أنها كادت أن تهدم بيتها، وتدمر مستقبلها، ومع ذلك تكرر الخطأ نفسه، عند شدة الانفعال والغضب .

وعلى الزوج الوقور أن يتوقع سماع تلك الكلمتين مراراً وتكراراً، وأن لا يأخذ الأمر مأخذ الجد، بل ينتظر ساعة هدوء ومرح، ثم يبحث عن الحقيقة الغائبة ساعة الانفعال .

ب - تختلف اهتمامات المرأة عن اهتمامات الرجل، فالرجل يهتم

---

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي ، انظر شرح ديوانه للواحدي (١/ ٢٤٩).

بالثروة والمال، والأعمال، والدين، والعلم، والسياسة، بينما يغلب على المرأة الاهتمام بالجمال، والزينة، وتلطيف الحياة، بالإضافة إلى عنايتها بالأولاد .

والرجل يركز كثيراً على المستقبل، بينما ينصب اهتمام المرأة على الحاضر .

والمال عند الرجل ثروة وقيمة، بينما الزينة شيء ثانوي، أما المرأة فتنظر للمال على أنه زينة، وقيمته كثروة وعدة مستقبل، تأتي في المرتبة الثانية .

إن هذه الاختلافات مثار صراعات عند الزوجين الجهولين بطبعهما، وقد يستسلم أحدهما لنظرة الآخر على مضض، ولو عرفا هذه الفروقات، وعذر أحدهما الآخر، وتلطف في الوصول إلى بغيته، واختار الظرف المناسب، لزالت كثير من المشاكل الزوجية، وعاش الزوجان في هناءة ترفرف عليهما أعلام السعادة، وتُجَمِّلهما ورود التوافق والتكامل، ومتى ما انفجرت صراعات، عرفا كيف يديران الدفة بأمان .

ج – تختلف – غالباً – طريقة الرجل والمرأة عند الجدال، فالرجل يبدأ جداله على أن الصواب معه، ثم يبدأ بالمراوغة لئلا يظهر خطؤه، وهذا يشعر المرأة بالامتعاض، لتوقعها أن الرجل مثلها، يقر بالخطأ، ويقبل التوجيه .

وتكمن مشكلة المرأة عند الجدال رفضها الكليات، عند عدم موافقتها على الجزئيات، فإذا جادلت الزوج في خطأ وقع فيه فإنها تشعره – من حيث لا تدري – أنه غير مقبول لها كلياً، فينتقل الزوج إلى الدفاع عن ذاته، وتكبر المشكلة، وهي في بداية الأمر صغيرة .

ويُنصح الزوجان أن يقللا من الجدال، وأن يبتعدا عنه كلية عند

الغضب، وأن لا يستمرا فيه إذا حدث، خاصة إذا كانت الزوجة عالية الثقافة، أو ممن تسممت أفكارها بدعوات التغريب والمساواة .

د- تختلف طريقة الرجل في التكيف مع ما أشكل من الأمور، فهو بطبعه يميل إلى التفكير، والبحث عن حل عملي، وقد ينعزل بنفسه، أو يتشاغل بشيء بين يديه ، وباله مشغول بالمشكلة، ويحب في هذه اللحظة الصمت، بينما تميل المرأة بطبعها إلى الحديث عما أشغل بالها، ويُهوّن عليها وقع المشكلة سماع الآخرين لها .

وهذا موطن خلاف وشجار، خاصة إذا لم يع الزوجان طبع كل منهما، فالمرأة تظن أن الرجل يهرب من مواجهة المشكلة، والرجل يرى أن المرأة تشغله بحديثها عن المشكلة، ويحاول قطع حديثها، أو عدم الإنصات إليها، فتبرز مشكلة أخرى .

القاعدة الثالثة

" الرجال قوامون على النساء "

هذه القاعدة من أهم دعائم الأسرة المسلمة، ومن أعظم أسباب استقرارها مادياً ومعنوياً، وإحاطتها بالرعاية والحفظ والتوجيه .

وقد قرر الله تعالى هذه القاعدة في قوله: ﴿ **ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ** ﴾(1) وأمر الله بتأديب المرأة المناهضة لمقتضاها فقال سبحانه: ﴿ **وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ** ﴾(2).

وكذلك قررها رسول الله – صلى الله عليه وسلم– في قوله : " **لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة** "(3) .

وإليك بعض الوقفات التي توضح هذه القاعدة، وتبين فوائدها للمرأة، ولأولادها، قبل الزوج، وتكشف الزيف والشبه التي أحيطت بها :

أولاً:– معنى القوامة :

القوَّام : صيغة مبالغة، وقام الرجل على غيره: إذا تكفل به، واعتنى

---

(1) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(2) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(3) رواه البخاري، كتاب الفتن، ح(٤٧) (٩/ ١٠٠). وقد جاء في أول الحديث مناسبة قول النبي عليه السلام هذا الحديث، وهي أن فارس ملّكوا ابنة كسرى بعد هلاكه، وانظر سبب تملكها في فتح الباري (٨/ ١٢٨) .

بشأنه،[١] والقيِّم: السيد وسائس الأمور، وقيّم القوم: الذي يُقوِّمهم ويسوس أمرهم[٢]. وعبارات المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ تحوم حول المعنى اللغوي وتشرحه، روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس- رضي الله عنهما -قال:" قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: أمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرها به من طاعته"[٣].

---

(١) انظر: لسان العرب (قوم) (١٢/ ٥٠٣).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (قوم) (٩/ ٣٥٨) ولسان العرب (قوم) (١٢/ ٥٠٢).

(٣) تفسير الطبري (٨/ ٢٩٠) تحقيق: شاكر، ورواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هي الصحيفة التي قال عنها الإمام أحمد: (إن بمصر صحيفة في التفسير، رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً) واعتمد عليها البخاري فيما يعلق عن ابن عباس من تفسير، انظر فتح الباري (٨/ ٤٣٨) .

وقد أجمعوا على أن ابن أبي طلحة لم يلق ابن عباس، واختلفوا في صحيفته، فالجمهور يرون أنها منقطعة، ويرى السيوطي في الإتقان (٢/ ١٨٧) أنها من أصح الطرق عن ابن عباس، ويؤكد هذا أبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ (١/ ٤٦١) فيقول: (والذي يطعن في إسناده يقول: إن ابن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد وعكرمة، وهذا القول لا يوجب طعناً) وقال الطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ١٢٩): (واحتملنا حديث علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وإن كان لم يلقه لأنه عند أهل العلم بالأسانيد إنما أخذ الكتاب الذي فيه هذا الحديث عن مجاهد وعن عكرمة) ويقول الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ١٣٤): (روى معاوية بن صالح عنه – يعني ابن أبي طلحة – عن ابن عباس تفسيراً كثيراً ممتعاً) .

وقال السيوطي في الإتقان (٢/ ١٨٨):(وقال قوم لم يسمع ابن أبي طلحة من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد وسعيد بن جبير، قال ابن حجر: بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير في ذلك) .

ويظهر مما سبق أن كتاب ابن أبي طلحة وجادة، كما في قول الإمامين أحمد والطحاوي، والوجادة فيها شوب اتصال، كما في تدريب الراوي(٢/ ٦١) وأما حكم العمل بها فقد قال الإمام =

وقال الزمخشري: (﴿قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ يقومون عليهن، آمرين ناهين، كما يقوم الولاة على الرعايا)[1].

وقال أبو بكر ابن العربي:(قوله "قوامون": يقال: قوّام وقيّم، وهو فعّال وفيعل، من قام، والمعنى: هو أمين عليها، يتولى أمرها، ويصلحها في حالها... وعليها له الطاعة... فعليه أن يبذل المهر والنفقة، ويحسن العشرة، ويحجبها، ويأمرها بطاعة الله...وعليها الحفظ لماله، والإحسان لأهله، والالتزام لأمره)[2] وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:(الزوج سيدها في كتاب الله[3]، وهي عانية عنده بسنة رسول الله[4]-صلى الله عليه وسلم-)[5]. وقال ابن كثير:(يقول الله تعالى :"الرجال قوامون على النساء" أي: الرجل قيِّم على المرأة، أي:

= النووي:(وقطع بعض المحققين الشافعيين بوجوب العمل بها عند حصول الثقة بها، وهذا هو الصحيح الذي لا يتجه هذه الأزمان غيره) المصدر السابق(٢/ ٦٣) .

وبناء على ما سبق أقول: إن أثراً يعلقه البخاري في صحيحه جازماً به، ويصححه الطحاوي والذهبي وابن حجر والسيوطي، وغيرهم من الأعلام ، لهو جدير بالقبول، وعدم الرد، ويمكن استنباط هذا الحكم من صنيع البخاري، فالتعليق إشارة إلى الانقطاع، والجزم إشارة إلى القبول . والله أعلم .

(١) الكشاف (١/ ٥٢٣).

(٢) أحكام القرآن (١/ ٤١٦) مختصراً.

(٣) يشير إلى قوله تعالى: "وألفيا سيدها لدى الباب" يوسف: ٢٥.

(٤) يشير إلى قوله -صلى الله عليه وسلم- : " ألا استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان لكم " رواه الترمذي، كتاب الرضاع ،ح (١١٦٣) (٣/ ٤٥٨) وقال : (حديث حسن صحيح ومعنى قوله "عوان عندكم" يعني : أسرى في أيديكم . أ.هـ

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٤/ ٩٠).

هو رئيسها، وكبيرها، والحاكم عليها، ومؤدبها إذا اعوجت)[١].

ثانياً:- مظاهر القوامة :

قوامة الرجل على امرأته تكليف يترتب عليه تشريف، فمن مظاهر التكليف :

١- المهر :

وهو مال تستحقه الزوجة بسبب العقد عليها، وهو رمز تكريم ، ودلالة صدق، وتوثيق عرى محبة بين الزوجين، ولذا أسماه الله تعالى نحلة وصداقاً، قال تعالى: ﴿ **وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ** ﴾[٢] . وقد جاء التأكيد على إعطاء المرأة مهرها، والنص على أنه فرض وأجر، فلا تجوز المماطلة فيه، أو بخس شيء منه، قال تعالى : ﴿ **فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ** ﴾[٣] وقال سبحانه : ﴿ **وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔا** ﴾[٤] .

٢- الحفظ والرعاية :

فالرجل مسؤول عن حفظ المرأة ورعايتها ، وصونها من المخاطر الدينية والدنيوية، قال تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا** ﴾ [٥] وقال-صلى الله عليه وسلم-: **" الرجل راع على أهله، وهو مسؤول عن رعيته "**[٦] وهو

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٠٣).

(٢) سورة النساء، الآية: ٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢٠.

(٥) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) رواه البخاري ،كتاب النكاح ،ح (١١٨)(٧/ ٤٧)ومسلم،كتاب الإمارة =

مطالب بالدفاع عنها، ولو ترتب على ذلك قتله، كما في الحديث: **"...ومن قتل دون أهله فهو شهيد"**[1]، والتفريط في هذه الرعاية خيانة يترتب عليها عقوبة، كما قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: **" ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت، وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة"**[2] ويدخل في ذلك منعها من التبرج والسفور والاختلاط بالأجانب .

٣- التعليم والإلزام بطاعة الله:

قال تعالى: ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ﴾[3]، والأمر بالصلاة يستلزم تعليم أدائها، كما أن عموم قوله تعالى: ﴿ **قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** ﴾[4]يدخل فيه تعليم ما يحقق ذلك، والإلزام به .

٤- حماية الأسرة من الترف :

إن الترف والمبالغة في التنعم، والعيش على هامش الحياة، مدمر للفرد وللأسرة، وقد ذم الله الترف فقال: ﴿ **وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ** ﴾[5] وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : **" إياي والتنعم، فإن عباد الله**

ح(١٨٢٩)(٣/ ١٤٥٩).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الديات، ح (١٤٢١) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح (٦٤٤٥) (٢/ ١١٠٠).

(٢) رواه البخاري،كتاب الأحكام، ح(١٥)(٩/ ١١٥)ومسلم كتاب الإيمان، ح(١٤٤)(١/ ١٢٥) واللفظ له.

(٣) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٤) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٥) سورة : هود الآية، ١١٦.

ليسوا بالمتنعمين"[١] .

نعم ! لا مانع من التمتع بالطيبات، وظهور أثر النعمة على العبد؛كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم-: **" إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"**[٢] لكن المحذور هو المبالغة في ذلك حتى الوصول إلى حال التبذير والإسراف، والترف القاتل، ومعلوم أن الأمة المترفة تخور قواها، وتضعف عزيمتها، ولاسيما في الحروب، وأزمات الحياة .

٥- النفقة :

فنفقة المرأة واجبة على زوجها بالإجماع[٣]، فلها عليه تأمين جميع حاجاتها ، من مأكول ، ومشروب، وملبوس، ومسكن،[٤] قال تعالى: ﴿**وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿**فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ** ﴾[٦] فنسب الشقاء لآدم وحده؛ لأن الرجل هو المسؤول عن كفاية زوجته، وهو الذي يسعى[٧] ، وقال –صلى الله عليه وسلم-: **" ولهن**

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٤٣، ٢٤٤) وحسنه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير، ح (٢٦٦٨) (١/ ٥٢٠) ولكنه ذكر رواية غير المسند ولفظها :"إياك" .

(٢) رواه الترمذي،ح(٢٨١٩)(٥/ ١٢٣)وحسنه، وكذلك الألباني، انظر:صحيح الجامع الصغير،ح(١٨٨٧)(١/ ٣٨٣).

(٣) انظر: المغني (١١/ ٣٤٧)

(٤) المصدر السابق.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٦) سورة طه، الآية : ١١٧.

(٧) انظر: التفسير المنير (١٦/ ٢٩٤).

عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف "[1] ، وهي مقدرة بقدر الكفاية، مع مراعاة حال الزوج؛ لقوله تعالى: ﴿ **لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** ﴾ مع إرشاد الرسول – صلى الله عليه وسلم – لهند، لما ذكرت له أن زوجها أبا سفيان رجل شحيح، فقال : **" خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف "** [2] متفق عليه .

٦- السكن :

فيجب لها مسكن يليق بأمثالها، وعلى قدر يسار الزوج وإعساره، بدليل قول الله تعالى : ﴿ **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ** ﴾ [3] فإذا وجبت السكنى للمطلقة طلاقاً رجعيا فلغيرها من باب أولى .

٧- التأديب :

فمتى ما اعوجت المرأة، وخشي على الأسرة من التصدع، والانهيار،كان من حق الزوج تأديبها، وردها إلى رشدها، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ** ﴾[4].

أما مظاهر التشريف المترتبة على القوامة فهي كثيرة منها :

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، ح (١٢١٨) (٢/ ٨٨٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب النفقات،ح(٩٩)(٧/ ١١٧) ومسلم، كتاب الأقضية،ح (١٧١٤)(٣/ ١٣٣٨).

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.

١ - حق الطاعة :

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [١] وقال الرسول-صلى الله عليه وسلم-: **"إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح"** [٢] .

٢ - الخدمة بالمعروف :

فخدمة الزوج واجبة فيما جرى به العرف، إن كان مثلها يَخدِم، قال شيخ الإسلام: (...وقيل- وهو الصواب-: وجوب الخدمة ، فإن الزوج سيدها في كتاب الله، وهي عانية عنده بسنة رسول الله ... ولأن ذلك هو المعروف ، ثم من هؤلاء من قال: تجب الخدمة اليسيرة، ومنهم من قال تجب الخدمة بالمعروف، وهذا هو الصواب، فعليها أن تخدمه الخدمة المعروفة من مثلها لمثله، ويتنوع ذلك بتنوع الأحوال، فخدمة البدوية ليست كخدمة القروية، وخدمة القوية ليست كخدمة الضعيفة ..) إلى أن قال:(والمعروف فيما له ولها هو موجب العقد المطلق، فإن العقد المطلق يرجع في موجبه إلى العرف)[٣]. وبناء على ذلك يعرف الحكم الشرعي فيما إذا طلبت المرأة خادمة ورفض الزوج، وأن ذلك يعود إلى العرف، وعادة البلد، وهل مثلها يَخدِم أم يُخدم، وهل ذلك من المعاشرة بالمعروف في بلدها، وعند قومها .

---

(٤) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح،ح (١٢٤)(٧/ ٥٤) ومسلم ،كتاب النكاح،ح (١٤٢٠) (٢/ ١٠٥٩) واللفظ له.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٤/ ٩٠) .

٣- القرار في البيت، وعدم الخروج إلا بإذنه :

قال تعالى: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ** ﴾[١] وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: " **إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها**"[٢] متفق عليه، فإذا كان الخروج للعبادة يحتاج إلى إذن الزوج، فالخروج إلى غيرها من باب أولى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:(فليس لها أن تخرج من منزله إلا بإذنه، سواء أمرها أبوها، أو أمها، أو غير أبويها، باتفاق الأئمة)[٣].

٤ - حسن التبعل :

ويندرج في ذلك حسن الخلق، وتحسين الخلقة، بالتزين والتعطر ونحوها، والصبر على الأذى، وحفظ مال الزوج، ورعاية ولده، فعن أم سلمة -رضي الله عنها- قالت : سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : " **أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة**"[٤]وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " **خير النساء التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها، ولا**

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح (١٦٧) (٧/ ٦٨) ومسلم كتاب الصلاة، ح (٤٤٢) (١/ ٤٢٦).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٢/ ٢٦٣).

(٤) رواه الترمذي، كتاب الرضاع (٣/ ٤٥٧) وحسنه، والحاكم في المستدرك كتاب البر والصلة (٤/ ١٧٣) وصححه، ووافقه الذهبي .

مالها بما يكره"[١]، وعن عبد الله بن أبي أوفى -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله، أمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده، لا تؤدي المرأة حق ربها، حتى تؤدي حق زوجها كله، حتى لو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه"**[٢] .

ويؤكد عظم حق الزوج، والنهي عن مغاضبته، قوله -صلى الله عليه وسلم- :**" ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم: العبد الآبق حتى يرجع، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وإمام قوموهم له كارهون"**[٣] .

٥- المطاوعة لقضاء الحاجة :

فقد جاء في الحديث: **" إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته، وإن كانت على التنور"**[٤] وفي حديث آخر: **" إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجئ فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح"**[٥] متفق عليه.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٥١) والنسائي، كتاب النكاح، باب أي النساء خير (٦/ ٦٨) وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير، ح (٣٢٩٨) (١/ ٦٢٤).

(٢) رواه أحمد في المسند (٦/ ٧٦) وصححه الألباني، انظر:صحيح الجامع الصغير ح(٥٢٩٥) (٢/ ٩٣٧) والقتب: رحل صغير على قدر سنام البعير .انظر الصحاح للجوهري (قتب) (١/ ١٩٨).

(٣) رواه الترمذي، أبواب الصلاة،ح(٣٦٠) (٢/ ١٩٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير ح(٣٠٥٧)(١/ ٥٨٦).

(٤) رواه الترمذي كتاب الرضاع ،ح(١١٦٠)(٣/ ٤٥٦).

(٥) سبق تخريجه انظر : ص :١٣.

وفي هذين الحديثين لفتة نبوية كريمة، قلّ من النساء من تتفطن لها، وهي أن العملية الجنسية لها علاقة عميقة بالناحية النفسية، وكثير من الرجال تتحرك شهوته في ظرف معين، فإذا لم تطاوعه زوجته في هذا الظرف، أو شعر بعدم رغبتها لهذا الشأن انطفأت شهوته، وخمدت همته، وتكرار مثل هذا له أثر عميق على حالته النفسية، وعلاقته بامرأته .

٦- **النهي عن هجره** ؛ لقوله -صلى الله عليه وسلم-: **" إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها، لعنتها الملائكة حتى تصبح"** متفق عليه[١] .

٧ - النهي عن الصوم تطوعاً إلا بإذنه ؛ لقوله -صلى الله عليه وسلم-: **" لا تصم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه"**[٢].

٨- النهي عن إدخال أحد بيته إلا برضاه؛ لقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **" فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لم تكرهون"**[٣] وهذا عام في منعهن عن الإذن لأحد في الدخول إلى البيوت، ولو كان مَحْرماً أو امرأة إلا بعلمه ورضاه .

٩ - حق السفر:

فللزوج حق السفر بها متى كان مأموناً عليها في الطريق وفي بلد

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح (١٢٤) (٧/ ٥٤) ومسلم، كتاب النكاح، ح(١٤٣٦) (٣/ ١٠٥٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح (١٢٢) (٧/ ٥٣) ومسلم، كتاب الزكاة، ح (١٠٢٦) (٢/ ٧١١).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الرضاع، ح (١١٦٣)(٣/ ٤٥٨) وصححه، وابن ماجه، كتاب النكاح، ح (١٨٥١) (١/ ٥٩٤).

الإقامة[١]، وإن كان له أكثر من زوجة أقرع بينهن، كما كان يفعل النبي – صلى الله عليه وسلم –[٢] .

١٠ – تربية الأولاد :

فمن أعظم الحقوق على الزوجة رعاية أولادها ، وتربيتهم ، وتعليمهم ، والوقوف مع الزوج في سبيل تنشئتهم تنشئة سوية؛ لقول النبي –ﷺ–: **"والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها"**[٣].

١١ – التسرية عن الزوج:

فمن حقوقه عليها التسرية عنه ، وإدخال السرور عليه، وتخفيف أعباء الحياة عنه، وإشاعة روح التفاؤل والأمل في نفسه، والوقوف بجانبه في البأساء والضراء، وتصبيره حتى يواجهها في شجاعة وحزم[٤].

ثالثاً:– حدود القوامة:

مقاييس الإسلام وتعاليمه تؤسس علاقة الرجل بامرأته على الاحترام، والتقدير ، والمودة المتبادلة، والتربية على العدل: ﴿**كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ**﴾[٥]، والشورى بينهم : ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ**

(١) انظر: مجموعة محاضرات، د.محمد الصالح، ص: ١٩٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب القرعة بين النساء،ح(١٤٠) (٧/ ٥٩).

(٣) رواه البخاري،كتاب النكاح، ح(١١٨) (٧/ ٤٧) ومسلم،كتاب الإمارة ح(١٨٢٩)(٣/ ١٤٥٩).

(٤) انظر: منهج السنة في الزواج، ص: ٤٢٠.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

﴿بَيْنَهُمْ﴾[1]، والرحمة : **" من لا يرحم لا يُرحم"**[2]، والتسامح : **"رحم الله رجلاً سمحًا"**[3] ، والرفق : **"إن الله رفيق يحب الرفق"**[4] بل إن الشريعة الإسلامية جعلت معيارًا للخيرية هو :**"خيركم خيركم لأهله"**[5] ، وفي رواية: **"خيركم خيركم للنساء"**[6] .

إن الثقافة الإسلامية المتغلغلة في أعماق الطرفين، تجعلهما متحابين، متآلفين، متعاونين على البر والتقوى، وفِيِّين لبعضهما، صابرين في معترك الحياة، راضيين بقدر الله في اختلاف خلقه، مسلِّمين لحكمه وحكمته في هذا التفاوت، وبناء على ذلك فإن قوامة الرجل على المرأة ليست مطلقة، وليست تسلطًا وسلبا لجميع سلطات المرأة، وإلغاء لمكانتها؛ بل هي "راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة"[7] وقوامة الرجل محدودة بضابط ﴿وَلَهُنَّ

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب،ح(٢٧)، (٧/ ١٢) ومسلم،كتاب الفضائل، ح(٨/ ٢٣) (١٨٠٨/٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب البيوع، ح (٢٨)، (٣/ ١٢١).

(٤) رواه أبو داود،كتاب الأدب،ح (٤٨٠٧) وهو صحيح، انظر:صحيح الجامع الصغير، ح(١٧٧١)(١/ ٣٦٤).

(٥) رواه الترمذي، كتاب المناقب ح(٣٨٩٥) (٥/ ٧٠٩) وصححه، وكذلك الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير، ح(٣٣١٤)(١/ ٦٢٦).

(٦) رواه الحاكم،كتاب البر والصلة (٤/ ١٧٣) وصححه، ووافقه الذهبي،وكذلك الألباني في صحيح الجامع الصغير،ح (٣٣١٦)(١/ ٦٢٦).

(٧) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح(١١٨)(٧/ ٤٧).

مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾[١].

ولفظة: "بالمعروف" حددت الشريعة أسسها، وتركت مساحة كبيرة للعرف والعادة.[٢]، قال ابن عاشور: (والعرب تطلق المعروف على ما قابل المنكر، أي: وللنساء من الحقوق مثل الذي عليهن، ملابسا ذلك دائماً للوجه غير المنكر شرعاً وعقلاً، وتحت هذا تفاصيل كبيرة تؤخذ من الشريعة، وهي مجال لأنظار المجتهدين، في مختلف العصور والأقطار... وقوله: "للرجال" خبر عن "درجة" قدم للاهتمام بما تفيده اللام من معنى استحقاقهم تلك الدرجة... وفي هذا الاهتمام مقصدان :

أحدهما: دفع توهم المساواة بين الرجال والنساء في كل الحقوق. وثانيهما: تحديد إيثار الرجال على النساء بمقدار مخصوص ، لإبطال إيثارهم المطلق، الذي كان متبعاً في الجاهلية)[٣].

رابعاً:- لماذا القوامة للرجل !؟:

يطرح هذا السؤال- غالباً - من في قلوبهم مرض، أو من يرون أن الحضارة هي استيراد مفاهيم، وقيم حضارة، تختلف في جوهرها ومظهرها عن حضارة الإسلام!. وللجواب على هذا السؤال :

أولاً: ما من اجتماع بشري إلا ويتوقع فيه حصول خلاف ونزاع، لاختلاف المفاهيم، وتعارض المصالح، وتفاوت العقول والمدارك،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٤/ ٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٤٠٠) باختصار.

وتأرجح الأولويات. ونحو ذلك من أسباب الخلاف؛ ولذا لابد من تعيين مرجع، يفصل في الأمر عند الحاجة، وهذا ما فطرت عليه البشرية، فما من أمر ذي بال، يقوم على اجتماع وتعدد، إلا ويُعيّن له مرجع.

ثانيًا: إما أن يقال: لا قوامة لأحد في الأسرة، أو القوامة للرجل والمرأة على السواء، أو للمرأة وحدها، أو للرجل وحده.

ولا يقول عاقل: إن الأسرة لا تحتاج إلى قيّم، فإن العقلاء يضعون قيِّماً لكل مشروع ذي بال، والأسرة أعظم تجمع عرفته البشرية، وإذا كان الهدف من المؤسسات والشركات والمصانع إنتاج ماديات، فإن الهدف من الأسرة إنتاج بشر، وتنمية عقول، وتربية نفوس، وإيجاد سكن وملاذ للإنسان، كلما أرهقه الكدح ، أو التعامل مع الماديات، وكذلك لا يقول عاقل : إن الشراكة في إدارة الأسرة هي الأقوم؛ فإن أي نظام أو دولة أو أمر ذي بال، لا ينتظم إلا بتوحد الإدارة العليا.

إذاً، من الأولى بأن يكون قيِّماً على الأسرة؟!

والجواب: إن الأولى بداهةً هو الرجل، للمبررات التالية :

أ- أن الرجل هو المؤسس للعائلة، فهو أحق بإدارتها .

ب- قوة الرجل العقلية والجسمية .

ج- تفوق الرجل على المرأة في الإدارة، خاصة عند حدوث أزمات .

د- ضعف المرأة الجبلي ، وزيادة هذا الضعف عند حدوث العوارض المتكررة، كالعادة الشهرية، والحمل، والنفاس، وانشغال البال بالمولود الجديد، قال تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [1] .

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤.

هـ- حاجة قيِّم الأسرة إلى مواجهة قوى، وأوضاع خارج نطاق الأسرة، وتفوّق الرجل في هذا المجال لايخفى على ذي بصيرة .

والخلاصة: إن العقل والمنطق والفطرة وواقع الحال ، تشهد بما شهد به الشرع ، من ضرورة القوامة، وأنها لا تصلح إلا للرجل، قال الله تعالى: ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ** ﴾[١] ثم إن القوامة في ضوء الشريعة الإسلامية قوامة رعاية، وحسن تنشئة، وجلب مصالح، ودرء مفاسد، وتحصيل خيرات، ودفع شرور ومنكرات، وهي قوامة تكليف قبل التشريف، وقوامة غرم قبل الغنم، على ضوء قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **"كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"**[٢] .

(١) سورة الملك، الآية: ١٤.

(٢) هذا جزء من حديث متفق عليه ، سبق تخريجه ص:٣٣

القاعدة الرابعة

"وعاشروهن بالمعروف"

السعادة مطلب لكل إنسان، ومن أعظم أسباب السعادة البشرية المعاشرة الحسنة، بما يكتنفها من طيب المقال، وحسن الفعال؛ ولهذا أمر الله تعالى بالإحسان لكل من له علاقة بالفرد،فقال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[1] وكلما كان المعاشَر أقرب وألصق، ظهرت شدة الحاجة إلى ذلك، وأقرب الناس للمرء، وألصقهم به امرأته،كما بين الله ذلك بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[2] .

إن من أعظم مقاصد الإسلام جلب السعادة الدنيوية والأخروية، وقد نبَّه أفراده إلى قيام الحياة الزوجية على السكن والمودة والرحمة، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[3] فهذه الآية ترشد إلى ثلاث دعائم للحياة الزوجية المستقرة، التي تفيض حناناً وحباً:

الأولى: السكن والإلف[4] والميل[5]، والأنس، وفرح النفس، وزوال

(١) سورة النساء، الآية:(٣٦).

(٢) سورة البقرة، الآية:(١٨٧).

(٣) سورة الروم، الآية:(٢١).

(٤) انظر: البحر المحيط: (٨/ ٣٨٢).

(٥) انظر: الكشاف: (٣/ ٢١٨).

الوحشة[١] .

الثانية: المودة،وهي المحبة، قال البغوي: (وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر ، من غير رحم بينهما)[٢] .

الثالثة: الرحمة، وتعني الشفقة[٣]، والرأفة[٤]، وما يقتضي الإحسان إلى المرحوم[٥]، قال ابن كثير -رحمه الله-: (الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمته بها. أو للإلفة بينهما)[٦]. ولا تترعرع هذه الدعائم، ولا يتحقق الاستقرار الأسري، إلا بتهيئة الأسباب، ومن ذلك تحقيق مقتضى الحكمة، وتنفيذ أمر الشرع ، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[٧] .

ولعل النقاط التالية تميط اللثام عن هذه القاعدة الزوجية، وتبين آثارها ومظاهرها:

أولاً:- معنى المعاشرة بالمعروف :

المعاشرة : المخالطة، عاشرته معاشرة، واعتشروا وتعاشروا: تخالطوا...وعشير المرأة: زوجها لأنه يعاشرها وتعاشره[٨]، وفي الحديث أن

(١) انظر: التحرير والتنوير:(٢١/ ٧٢).

(٢) معالم التنزيل:(٦/ ٢٦٦).

(٣) التفسير المنير (٢١/ ٦٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٤٣٩).

(٥) المفردات (رحم) ص: (١٩١).

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٤٣٩) باختصار.

(٧) سورة النساء ، الآية : ١٩.

(٨) انظر: لسان العرب (عشر) (٤/ ٥٧٤).

النبي – صلى الله عليه وسلم – قال للنساء: **"إنكن تكثرن اللعن، وتكفرن العشير"**[1] متفق عليه، قال ابن الأثير: (يريد الزوج ، والعشير: المعاشر، كالمصادق في الصديق؛ لأنها تعاشره ويعاشرها)[2] .

أما المعروف :فقد قال ابن الأثير:(هو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والتقرب إليه، والإحسان إلى الناس.وهو من الصفات الغالبة:أي: أمر معروف بين الناس، إذا رأوه لا ينكرونه، والمعروف: النَّصفَة، وحسن الصحبة مع الأهل، وغيرهم من الناس)[3] . وقال ابن كثير –رحمه الله–:(وقوله: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾أي: طيِّبوا أقوالكم، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم، بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله... وكان من أخلاقه – صلى الله عليه وسلم – أنه جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقة، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – يتودد إليها بذلك)[4] .

وقال ابن عاشور:(حسن المعاشرة جامع لنفي الإضرار والإكراه، وزائد بمعاني إحسان الصحبة، والمعاشرة: مفاعلة من العشرة، وهي المخالطة...و"المعروف" ضد "المنكر" وسمي الأمر المكروه منكرًا لأن

---

(١) البخاري، كتاب الحيض، ح(٩)(١/ ١٣٦) ومسلم كتاب الإيمان، ح(٧٩)(١/ ٨٦).

(٢) النهاية في غريب الحديث (عشر) (٣/ ٢٤٠).

(٣) المرجع السابق (عرف) (٣/ ٤١٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٤٧٧) .

النفوس لا تأنس به، فكأنه مجهول عندها نكرة، إذ الشأن أن المجهول يكون مكروهًا، ثم أطلقوا اسم المنكر على المكروه، وأطلقوا ضده على المحبوب؛ لأنه تألفه النفوس، والمعروف هنا: ما حدده الشرع ووصفه العرف)[١].

ثانياً:- فضل حسن الخلق مع الأهل :

من أعظم مظاهر المعاشرة بالمعروف حسن الخلق، وقد جاء تأكيد ذلك في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿**وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾[٢] وقال عز وجل: ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [٣] ، وفي الحديث: "**إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل، صائم النهار**"[٤] بل إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جعل حسن الخلق أفضل المنح الربانية، فقال: " **خير ما أعطي الناس خلق حسن** "[٥].

ويتأكد حسن الخلق مع الأهل؛ لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - " **خيركم خيركم لأهله** "[٦].

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٢٨٦) باختصار.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

(٤) رواه أبو داود، كتاب الأدب،ح (٤٧٨٩) (٤/ ٢٥٢) والحاكم المستدرك، كتاب الإيمان (١/ ٦٠) واللفظ له وصححه، ووافقه الذهبي، وكذلك الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير، ح(١٦٢٠)(١/ ٣٣٤).

(٥) رواه أحمد (٤/ ٢٧٨) وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير،ح(٣٣٢١) (١/ ٦٢٧).

(٦) سبق تخريجه، انظر ص: ٣٩.

ولعل تفسير قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[1] كفيل ببيان حقيقة حسن الخلق، فهذه الآية أجمع آية في هذا الموضوع.

خذ العفو: قال ابن جرير:("خذ العفو" من أخلاق الناس، وهو الفضل، وما لا يجهدهم) ثم سرد ابن جرير أقوالاً، ثم قال: (وأولى هذه الأقوال بالصواب، قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم...فيكون - وإن كان من أجلهم نزل- تعليماً من الله خلقه صفة عِشْرة بعضهم بعضاً)[2].

وقال الراغب مبينًا معنى "العفو":(أي ما يسهل قصده وتناوله)[3]، قال البغوي: (وذلك مثل قبول الاعتذار، والعفو، والمساهلة، وترك البحث عن الأشياء، ونحو ذلك)[4].

وأمر بالعرف: أي المعروف، وهو كل ما يعرفه الشرع[5]، وكذلك المعروف بالعرف وتواطؤ الناس، واستحسان كافة العقلاء[6].

وأعرض عن الجاهلين: وذلك بعدم مقابلة الجهال والسفهاء بمثل فعلهم، وعدم مماراتهم، مع الصبر على سوء أخلاقهم ، وغض الطرف عما

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٣٢٦ـ ٣٣٠)، تحقيق: شاكر، باختصار.

(٣) المفردات (عفو) ص: ٣٣٩.

(٤) معالم التنزيل (٣/ ٤١٦).

(٥) المصدر السابق، الموضع نفسه .

(٦) انظر: التفسير المنير، (٩/ ٢١٧).

يسوء منهم[١].

وهذه المبادئ الثلاثة، هي أصول الفضائل ومكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان غيره، وبها تدوم العلاقة، وتزداد الإلفة، وتتوطد المحبة .

قال السعدي: (هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس ، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم...ويتجاوز عن تقصيرهم، ويغض طرفه عن نقصهم... وأمر بالعرف: أي بكل قول حسن، وفعل حسن، وخلق كامل، للقريب والبعيد... ولما كان لابد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه، وعدم مقابلته بجهله)[٢].

وماذا ستكون بيوت المسلمين لو امتثلوا أمر الله، وأطاعوه بتحسين أخلاقهم، وتقويم طباعهم، وقبول الآخرين بواقعهم وعيوبهم؟!.

لاشك أن ذلك سيشع على الحياة الزوجية ظلالاً وارفاً من السعادة، والحياة الطيبة، ودوام العلاقة، وعمق المحبة، ويبعد عنها منغصات الخلاف، ونكد الشحناء .

ثالثاً:- إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان :

المعاشرة بالمعروف ليست خياراً للأزواج، فمن شاء فعلها، ومن شاء

---

(١) انظر: معالم التنزيل (٣/ ٣١٦) والمصدر السابق، الموضع نفسه.

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ص: ٣١٣. باختصار.

تركها، بل أمرت بها الشريعة على وجه اللزوم والحتم في الجملة ، ويظهر هذا جلياً في قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [1] وليس ثمت خيار ثالث .

وقوله: ﴿فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ في آيات الطلاق، بمعنى قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[2] في آيات النكاح، وكلاهما يدلان على وجوب المعاشرة الحسنة، والمعاملة الطيبة، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في رواية علي بن أبي طلحة، عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ قال:(فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحبتها ﴿أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ قال: يسرحها، ولا يظلمها حقها)[3].

وفسَّر أبو جعفر الطبري قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ﴾بقول الضحاك: (المعروف أن يحسن صحبتها) [4]وفسّر ابن عطية الإمساك بالمعروف بقوله:(حسن العشرة ، والتزام حقوق الزوجية)[5] وقال الهراسي:(وإنما أباح الله تعالى إمساكاً على وصف، وهو أن يكون بمعروف، وهو وقوعه على وجه يحسن ويجمل، ولا يقصد به الإضرار بها، على ما ذكره في قوله:﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ فإنه إنما أباح الرجعة

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٣) رواه ابن جرير (٤/ ٥٤٨) طبعة شاكر، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٢٩٧).

(٤) تفسير الطبري(٤/ ٥٤٨).

(٥) المحرر الوجيز (١/ ٣٠٦).

على هذه الشريطة، ومتى راجع بغير معروف كان عاصياً) [١] .

ولكي نعلم تأكد إمساك المرأة بمعروف، وتحتم ذلك، نذكر أن بعض العلماء جعل ذلك شرطاً في صحة رجعة المطلقة، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ [٢] .

قال السعدي بعد أن ذكر الخلاف في مفهوم الشرط: (والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك - يعني الرجعة -كما هو ظاهر الآية)[٣]، وهذا ظاهر عبارة ابن العربي فإنه قال: (إن قصد بالرجعة إصلاح حاله معها، وإزالة الوحشة بينهما، لا على وجه الإضرار ...فذلك له حلال، وإلا لم تحل له ...ولو تحققنا نحن ذلك المقصد منه - يعني عدم إرادة الإصلاح - لطلقنا عليه)[٤].

وقال الشنقيطي :(فالرجعة بقصد الإضرار حرام إجماعاً، كما دل عليه مفهوم الشرط المصرح به في قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ﴾ الآية، وصحة رجعته حينئذ باعتبار ظاهر الأمر، فلو صرح للحاكم بأنه ارتجعها بقصد الضرر لأبطل رجعته)[٥].

---

(١) أحكام القرآن للهراسي (١/ ١٧٢) .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٣)تيسير الكريم الرحمن(ص:١٠٢) ومذهب الجمهور صحة الرجعة مع الإثم، انظر نفس المصدر، وتفسير الطبري(٤/ ٥٢٩)،والجامع لأحكام القرآن(٣/ ١٢٤).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي(١/ ١٨٨)، باختصار.

(٥) أضواء البيان(١/ ٢١٩).

رابعاً:- مظاهر المعاشرة بالمعروف :

للمعاشرة بالمعروف مظاهر شتى، بعضها واجب،وبعضها مندوب،وبقيتها من كمال المروءة ، وجمال الرجولة ، وقد سبق بيان شيء من مظاهر المعاشرة بالمعروف، كالنفقة والسكنى والتعليم وحسن الخلق، ومن ذلك أيضاً :

١- الشعور بكرامتها، فهي تنتسب إلى أصل كريم،كما بين الله ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [1] والمرأة ترجع في أصلها إلى الرجل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [2]وفي الحديث: **" النساء شقائق الرجال "**[3] فليكن التكريم، وما ينضوي تحته من الاحترام والتقدير، والحب والوفاء، منطلق المعاملة، وأسلوب القول والفعل، وإطار ما هو مطلوب من أحدهما للآخر، والإنسان ذكراً كان أو أنثى يتفاعل مع التكريم، ويجتهد معه في الوفاء والإخلاص .

٢- امتثال قول الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فلها من الحقوق والواجبات مثل التي عليها، وعلى الزوج مراعاة ذلك، قال الضحاك في تفسير هذه الآية :" إذا أطعن الله ، وأطعن أزواجهن، فعليه أن

---

(١) سورة الإسراء ، الآية: ٧٠.

(٢) سورة النساء، الآية :١.

(٣) رواه أحمد(٦/ ٢٥٦) والترمذي، كتاب الطهارة ،ح(١١٣)(١/ ١٨٩)وصححه محققه أحمد شاكر.

يحسن صحبتها ، ويكف عنها أذاه ، وينفق عليها من سعته"[١] .

وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-:" إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي؛ لأن الله -تعالى ذكره- يقول: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾[٢] وعلى الزوج أن يأتي ما يحب أن تأتيه امرأته، وأن يذر ما تحب أن تتركه، امتثالاً لقول النبي-صلى الله عليه وسلم- **" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"**[٣] متفق عليه، ويندرج في هذا: التزين، وتجميل الهيئة، والتعطر، والبعد عن الروائح الكريهة ...الخ .

٣- العمل الدائب على كسب قلب الزوجة، وجعلها تحن إليه كلما أبعد، وتخشى عليه كما تخشى على نفسها أو أشد .

ويتحقق هذا إذا كان الزوج مصدر إسعاد، وعامل أنس، ومكمن عطاء، ومنبع فيض، وفي الحديث: **" أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سروراً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطعمه خبزاً "**[٤] والقاعدة الشرعية التي ينبغي أن يراعيها كل مسلم هي **" ابدأ بمن تعول"**[٥].

---

(١) رواه ابن جرير (٤/ ٥٣١) طبعة شاكر.

(٢) المصدر السابق، الصفحة التالية، من رواية عكرمة بسند صحيح.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، ح (١٢)، (١/ ١٧) وسلم كتاب الإيمان، ح(٤٥) (١/ ٦٧).

(٤) رواه ابن أبى الدنيا في كتاب قضاء الحوائج،ح(١١٢) ص: ٩٥ ، و البيهقي في شعب الإيمان ، ح(٧٦٧٨)(٦/ ١٢٣)بنحوه، وهو حديث حسن، انظر:صحيح الجامع الصغير، ح(١٠٩٦) (١/ ٢٤٧) ، وقال العجلوني في كشف الخفاء ح(٤٥١)(١/ ١٥٢) :ضعفه المنذري ، لكنه حسن لشواهده .

(٥) رواه البخاري، كتاب الزكاة، ح(٣٠) (٢ / ٢٢٨).

وينبغي للزوج أن لا ينسى الهدية بين الفينة والفينة، إذ إن لها أثراً كبيراً في كسب ودِّ الزوجة، وتجدد حبها وعطائها، وفي الحديث: **" تهادوا تحابوا وتذهب الشحناء "**[1].

ومن العوامل المهمة في كسب قلب المرأة إظهار المحبة قولاً وفعلاً، والقدوة في هذا الشأن رسول الله- ﷺ - فمن أقواله لعائشة: **"كنت لك كأبي زرع لأم زرع"**[2] ، يعني في المحبة والوفاء، وسائر خصال الخير، التي اتصف بها أبو زرع.

ومن الثناء على الزوجة قول الرسول - صلى الله عليه سلم - **" أحب الناس إليَّ عائشة، ومن الرجال أبوها "**[3] متفق عليه.

ومن أفعاله -ﷺ- تودداً وإظهاراً للمحبة، قول عائشة -رضي الله عنها- **"كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي - ﷺ - فيضع فاه على موضع فيّ فيشرب، وأتعرّق العرق وأنا حائض، ثم أناوله النبي - ﷺ - فيضع فاه على موضع فيّ "**[4] رواه مسلم.

والعرْق : بإسكان الراء، العظم إذا بقي عليه لحم رقيق ، وتعرّق العظم : إذا

---

(١) رواه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، ح(١٦٤٢)(ص: ٦٥٣) وحسنه الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ٦٩) والألباني في صحيح الجامع الصغير ح(٣٠٠٤)(١/ ٥٧٧).

(٢) البخاري، كتاب النكاح، ح(١١٩) (٧/ ٤٩) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، ح(٣٤٤٨)(٤/ ١٨٩٦).

(٣) البخاري،كتاب المناقب،ح(١٦٢) (٥/ ٦٨) ومسلم كتاب فضائل الصحابة، ح(٢٣٤٨) (٤/ ١٨٥٦).

(٤) صحيح مسلم، ح (٣٠٠) (١/ ٢٤٥).

أخذ اللحم عنه نهشاً بأسنانه[١].

ومن أفعاله - ﷺ - قول عائشة: **"كان رسول الله - ﷺ - يقبل وهو صائم، ولكنه أملككم لإربه"**[٢] ،ولا يخفى أن مص العظم بعد فم الحائض، وتقبيل الزوجة وهو صائم، لا ينبعث من شهوة، لوجود المانع، فلم يبق إلا الملاطفة، وإظهار المحبة، وإشاعة المرح والفرح، وإضفاء جو من السعادة.

وتأمل قول النبي -ﷺ -: **"ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها، حتى اللقمة تجعلها في فيّ امرأتك"**[٣] ،قال النووي:(وقد نبه - ﷺ- على هذا بقوله: **"حتى اللقمة تجعلها في فيّ امرأتك"**؛ لأن زوجة الإنسان هي من أخص حظوظه الدنيوية، وشهواته وملاذه المباحة، وإذا وضع اللقمة في فيها فإنما يكون ذلك في العادة عند الملاعبة والملاطفة، والتلذذ بالمباح، فهذه الحالة أبعد الأشياء عن الطاعة، وأمور الآخرة، ومع هذا فأخبر -صلى الله عليه وسلم- أنه إذا قصد بهذه اللقمة وجه الله تعالى حصل له الأجر)[٤].

٤- التجاوز عن الأخطاء وعدم تلمس العثرات :

فالمرأة كما قال رسول الله- ﷺ - : **" خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإذ استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج،وإن ذهبت تقيمها**

(١) انظر تهذيب اللغة (عرق) (١/ ٢٢٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصوم، ح(٣٥) (٣/ ٦٩) ومسلم كتاب الصيام، ح(١١٠٦) (٢/ ٧٧٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب الوصايا، ح(٥) (٤/ ٤٧) ومسلم، كتاب الوصية، ح(١٦٢٨) (٣/ ١٢٥٠).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١١/ ٧٧).

كسرتها، وكسرها طلاقها"[١].

وفي حديث آخر: " إن المرأة خلقت من ضلع، وإنك إن ترد إقامة الضلع تكسرها، فدارها تعش بها "[٢].

فمن أراد أن يعيش بالمرأة، ويستمتع بها، ويحيى معها بخير، فليدارها، وليوطن نفسه على ما يسره حيناً، وعلى ما يسوؤه أحياناً وأحياناً !!.

ثم إن المرأة إنسان، وقد قال الله تعالى عن الإنسان: ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾[٣] وكذلك هي من بني آدم، و" **كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون** "[٤].

وإذا كانت هذه الصفات الثلاث - الظلم والجهل والخطأ - وصف للجنس، فإن النصيب الأكبر للنساء لرقتهن، وسرعة انفعالهن، وتغلب عواطفهن.

ومن كمال الشريعة، وتتميمها لمكارم الأخلاق، أنها نهت الزوج عن تتبع عثرات زوجته، فعن جابر - رضي الله عنه - قال: " **نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يطرق الرجل أهله ليلاً يتوخونهم، أو يتلمس عثراتهم** "[٥].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الرضاع، ح(١٤٦٨) (٢/ ١٠٩١).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٨) والحاكم في المستدرك، كتاب البر (٤/ ١٧٤) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، في صحيح الجامع الصغير، ح (١١٤٩) (١/ ٣٩٣).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٤) رواه أحمد (٣/ ١٩٨) والحاكم، كتاب التوبة (٤/ ٢٤٤) وصححه، وحسنه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير، ح(٤٥١٥) (٢/ ٨٣١).

(٥) رواه مسلم، كتاب الإمارة، ح (١٨٤) (٣/ ١٥٢٨).

٥- التركيز على المحاسن والإيجابيات، وغض الطرف عن المساوئ والسلبيات:

كل امرئ له محاسن، وله مساوئ، ويتصف أحياناً بإيجابيات، ثم تعتريه سلبيات، والحاذق اللبيب الحريص على سعادة نفسه، وإسعاد غيره، ينظر إلى ما يسره، ويغض الطرف عما يسوؤه، وفق تربية ديننا، ومقتضى أخلاقنا، فقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - : **"لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً، رضي منها آخر"**(١).

ومن خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه كان لا يعيب الطعام، كما قال أبو هريرة - رضي الله عنه -:**" ما عاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - طعاما قط إن اشتهاه أكله، وإلا تركه"**(٢)، وقال أنس - رضي الله عنه-:" خدمت النبي - صلى الله عليه وسلم - عشر سنين، فما قال لي أف ، ولا لِمَ صنعت، ولا ألا صنعت"(٣).

فإذا كان هذا الشأن مع الخادم، فمن باب أولى أن يكون مع الزوجة، التي جعلها الله سكناً وملاذاً، وموطن رحمة ومودة .

وما أحسن قول الشاعر(٤):

إذا كنت في كل الذنوب معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

---

(١) رواه مسلم، كتاب الرضاع، ح (١٤٩٦) (٢/ ١٠٩١).

(٢) رواه البخاري، كتاب المناقب، ح(٧١) (٥/ ٣٢)

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، ح(٦٦) (٨/ ٢٥).

(٤) الأبيات لبشار بن برد ، انظر ديوانه جمع وشرح محمد الطاهر ابن عاشور (١/ ٣٢٦).

فعش واحدا أو صل أخاك فإنه		مقارفُ ذنبٍ مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى		ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

٦- **اللهو مع الزوجة واللعب والمداعبة :**

فهذه الأمور تدخل السرور على قلبها، وتقضي على النمط الواحد للحياة، والتكرار الممل للأعمال، والرتابة التي تدعو إلى السآمة، وقد قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- **" كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق"**[(١)] ولما أخبر جابر- رضي الله عنه - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه تزوج ثيباً قال له: **"هلا جارية تلاعبها وتلاعبك"**[(٢)]، وتتأكد الملاعبة عند الجماع، قال الشيخ مرعي الحنبلي في دليل الطالب:(ويسن أن يلاعبها قبل الجماع) وعلق صاحب منار السبيل على هذه العبارة بقوله: (لتنهض شهوتها، وتنال من لذة الجماع مثل ما يناله)[(٣)]، وكان قال قبل ذلك: (وكره نزعه قبل فراغها؛ لحديث أنس المرفوع، وفيه: **"ثم إذا قضى حاجته فلا يعجلها حتى تقضي حاجتها"**[(٤)])[(٥)]،وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف، لكن يشهد له

(١) رواه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، ح(١٦٣٧) (٤/ ١٧٤) وصححه الألباني، انظر :صحيح الجامع الصغير، ح(٤٥٣٤) (٢/ ٨٣٣).
(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح(١٧) (٧/ ٨).
(٣) منار السبيل، (٢/ ٢١٨).
(٤)رواه عبد الرازق في المصنف،ح(١٠٤٦٨)(٦/ ١٩٤) وسنده ضعيف، انظر إرواء الغليل،ح(٢٠١٠) (٧/ ٧١).
(٥) منار السبيل، (٢/ ٢١٨).

عموم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **" إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه "**[١] .

والجدير بالتنبيه أن علماء النفس والاجتماع يحذرون من أمرين، يقع فيهما بعض الأزواج، إما جهلاً، وإما ثقة بقوة الرابطة الزوجية، أو لؤماً وعدم مبالاة بالطرف الآخر:

أحدهما: انصراف الرجل عن زوجته بمجرد أن يقضي حاجته منها، غير مبال بعواطفها، وأحاسيسها، وهذا يترك أثراً سيئاً في نفسها[٢].

الثاني: إهمال الوسائل التي توصل الزوجة إلى قمة شهوتها، ويُروى في الحديث: **"إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها، فإن سبقها فلا يعجلها"**[٣].

هذه بعض مظاهر المعاشرة بالمعروف، ومن أراد المزيد فليقرأ كتاب الله، وسيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وليتدبر صفات المؤمنين، وأخلاق المسلمين، وليطبقها على مجتمعه الصغير - أعني الأسرة - قبل مجتمعه الكبير، فالأقربون أولى بالمعروف .

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، ح(٥٣١٣)(٤/ ٣٣٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح(١٨٨٠)(١/ ٣٨٣).

(٢) انظر: اللقاء بين الزوجين، ص: ١٠٨، والمرأة في ميزان الطب والدين، ص: ٢٩.

(٣) هذا جزء من الحديث الأسبق ،انظر الصفحة السابقة، الحاشية : ٥ .

القاعدة الخامسة

" لينفق ذو سعة من سعته "

المال عصب الحياة، وبه ينهض الإنسان، ويؤدي دوره في هذه الحياة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾[1].

والمال من أعظم أركان الحياة الزوجية الهانئة، وغالباً ما يكون فقده سبباً لمشاكل زوجية، وضعفاً في قوامة الرجل، إذ إن من أسباب إسناد القوامة له تكفله بالمهر والنفقة، كما قال تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾[2].

ولعل في الفقرات التالية ما يوضح المقصود من هذه القاعدة :

أولاً:- الاعتدال في النفقة:

يربي الإسلام أتباعه على الاعتدال في الإنفاق، فلا إسراف يصل إلي حد التبذير، ولا إمساك يصل إلى حد البخل والتقتير، والقاعدة في هذا قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[4] مع قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[5].

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٥.

(٢) سورة النساء ، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الفرقان ، الآية :٦٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية :٢٧.

(٥) سورة الحشر ، الآية : ٩.

ومما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين- ولاسيما الشباب، وحديثو العهد بالزواج - يخلّون بهذه التعاليم الربانية، فيقعون في أحد طرفي الذم، فتسوء العشرة الزوجية، بسبب التقتير، أو بسبب الفقر، وتراكم الديون، نتيجة الإسراف والتبذير.

إن على الزوجين العاقلين أن يُنظِّما حياتهما الاقتصادية، وأن يضعا ميزانية للأسرة، يحددا فيها منافذ الصرف، ويجعلا نصيباً للادخار، والطوارئ، ومستقبل الأسرة، والأولاد، وأن يشرك الرجل امرأته، والعقلاء من أولاده في هذا التنظيم، مع الصدق والصراحة في المقدرة المالية، إن كان من ذوي الدخل المحدود، والبعد عن المظهرية الجوفاء، وفي الحديث: **" المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور"**(١)، وبهذا تحسم موارد إشكالات كثيرة، ونزاعات أسرية، ويعيش الجميع أحباء أصفياء، لا يوصف المعيل بالبخل، ولا العائل بالطمع، أو السفه، أو الإسراف .

ثانياً:- عدم النفقة يبيح الفسخ :

وجملة ذلك أن الله تعالى قال: ﴿ **فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾(٢) وليس من المعروف الإمساك مع عدم النفقة (٣)، ولعدم نفقة الزوج على

(١) رواه البخاري ،كتاب النكاح، ح(١٤٨)(٧/ ٦١) مسلم كتاب اللباس، ح(٢١٢٩) (٣/ ١٦٨١) .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

(٣) انظر: المغني (١١/ ٣٦١) وحاشية الروض المربع (٧/ ١٢٤).

امرأته أحوال هي[1]:

١ - أن يمتنع عن الإنفاق لعسرته، وعدم وجود ما ينفقه، فالمرأة حينئذ مخيرة بين الصبر عليه، وبين فراقه، وقد ثبت عن عمر -رضي الله عنه- أنه كتب إلى أمراء الأجناد، في رجال غابوا عن نسائهم، فأمرهم بأن ينفقوا أو يطلقوا "[2] وقال ابن أبي الزناد:" سألت سعيد بن المسيب عن رجل لا يجد ما ينفقه على امرأته ، أيفرق بينهما ؟ قال: نعم، قلت:سنّة؟ قال سنّة "[3]، قال ابن قدامه: (وهذا ينصرف إلى سنة رسول الله- صلى الله عليه وسلم-)[4].

٢- أن يمتنع عن الإنفاق مع يساره، لبخله، أو غيبته، أو مضارّته، فإن قدِرت على أخذ نفقتها أخذتها، ولا خيار لها؛ لأمر النبي -صلى الله عليه وسلم - امرأة أبي سفيان بذلك[5]، ولم يرشدها إلى الفسخ .

٣ - أن يمتنع عن الإنفاق، مع عجزها عن أخذ النفقة، وعجز الحاكم عن ذلك، فحينئذ يثبت لها الخيار في الفسخ، لكن كل موضع ثبت لها الفسخ لأجل النفقة، لم يجز الفسخ إلا بحكم حاكم[6].

---

(١) انظر: المغني (١١/ ٣٦١ - ٣٦٥).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب النفقات(٧/ ٣٦٩) وعبد الرزاق في المصنف، كتاب الطلاق(٧/ ٩٣).

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب النفقات (٧/ ٤٦٩).

(٤) المغني (١١/ ٣٦١).

(٥) سبق تخريجه، انظر، ص: ٣٤.

(٦) انظر: المغني (١١/ ٣٦٥).

ثالثاً: - فضل صبر المرأة على فقر زوجها:

لا شك أن فقر الزوج مصيبة للزوجة، فإن صبرت واحتسبت فلها أجر الصابرين، الوارد في الكتاب والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ**﴾ [1] وفي الحديث: **" ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها"** [2] ولقد كان من هدي أمهات المؤمنين، والصالحات من نساء المسلمين، الصبر على فقر أزواجهن، وتدبير أمور المعيشة بحكمة وحنكة، بل وتقديم العون على قدر الاستطاعة، حتى تحمي زوجها من مد يده لغيره ، فعن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت لعروة بن الزبير: " يابن أختي ! إنا كنا لننظر إلى الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله نار !. فقلت: ياخالة ما كان يعيشكم؟! قالت: الأسودان التمر والماء" [3].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال:"ما شبع آل محمد- صلى الله عليه وسلم- من طعام ثلاثة أيام حتى قبض" [4]، وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت:" وإن كنا لنرفع الكراع - عظم تحت الكعب [5]- فنأكله بعد

---

(١) سورة البقرة، الآيات ١٥٥- ١٥٧.

(٢) رواه البخاري، كتاب المرضى، ح(١) (٧/ ٢٠٨) ومسلم كتاب البر، ح(٢٥٧٢) (٤/ ١٩٩١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، ح (٤٦) (٨/ ١٧٥).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، ح (٢) (٧/ ١٢١).

(٥) انظر: لسان العرب (كرع) (٨/ ٣٠٦).

خمس عشرة، قيل ما اضطركم إليه؟! فضحكت، فقالت: ما شبع آل محمد - صلى الله عليه وسلم- من خبز بر مأدوم، ثلاثة أيام حتى لحق بالله "[1]، وعنها قالت: **" ما أكل آل محمد- صلى الله عليه وسلم- أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر "**[2].

وهاهي فاطمة الزهراء-رضي الله عنها- تأتي إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحى، وبلغها أنه جاءه رقيق، لكن النبي- صلى الله عليه وسلم- أرشدها وعلياً فقال: **" ألا أعلمكما خيراً مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما، تسبحا ثلاثا وثلاثين، وتحمدا ثلاثا وثلاثين، وتكبرا أربعاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم "**[3].

وإن في قصة أسماء بنت أبي بكر-رضي الله عنها- عبرة لكل من ابتليت بزوج فقير، قالت أسماء :" تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال، ولا مملوك، ولا شيء، غير ناضح- جمل يُسقى عليه- وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، واستقي الماء، وأخرز غربه - دلوه - وأعجن...وكنت أنقل النوى من أرض الزبير، التي أقطعه رسول الله- صلى الله عليه وسلم- على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ[4]... قالت: " حتى أرسل إليّ أبو

(١) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، ح (٤٩) (٧/ ١٣٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، ح (٤٢) (٧/ ١٧٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب المناقب، ح (٢٠١) (٥/ ٨٩).

(٤) الفرسخ: ثلاثة أميال أو ستة، انظر: لسان العرب (فرسخ) (٣/ ٤٤) .والميل المعروف: كيلو وستمائة متر. انظر: الشرح الممتع (٤/ ٣٥١) .

بكر بعد ذلك بخادم، يكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني "[١].

هـذه نـماذج يـسيرة، لـصبر النـساء المؤمنـات عـلى فقـر أزواجهـن، والوقوف بجانبهم، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولاً، وكم من فقراء حسبوا أن الفقر ضربة لازب، ثم تتبدل أحوالهم، ويرزقون من حيث لا يحتسبون .

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح (١٥٣) (٧/ ٦٣).

القاعدة السادسة

" ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل "

جعل الإسلام للمرأة شخصية اعتبارية، مستقلة عن زوجها، فلها ذمة منفردة، بها تملك وتبيع، وتهب وتتصدق، وإن لم يرض زوجها، وهذا من أعظم صور تكريم الإسلام للمرأة، ومخالفته للأنظمة الجاهلية التي تزدري المرأة، وتحرمها من التملك، أو تمنعها من التصرف في مالها إلا بأذن وليها، ويكفي شاهداً على ذلك أن جاهلية العرب كانوا يحرمون المرأة من الميراث، ويقولون لا نعطي إلا من قاتل وحاز الغنيمة[1].

وكذلك جاهلية النصارى، يقول برنارد شو الأديب الإنجليزي المشهور:(في اللحظة التي تتزوج فيها المرأة، تصبح جميع ممتلكاتها ملكاً لزوجها، بمقتضى القانون الإنجليزي) ثم يذكر طرقاً من التحايل على القانون[2]، أما في فرنسا فنص المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون: (إن المرأة المتزوجة- حتى لو كان زواجها قائماً على أساس الفصل بين ملكيتها، وملكية زوجها- لا يجوز لها أن تهب، ولا أن تنقل ملكيتها، ولا أن ترهن، ولا أن تملك بعوض، أو من غير عوض، بدون اشتراك زوجها في العقد، أو موافقته عليه موافقة كتابية) ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/ ٥٩٨) طبعة شاكر، ومعالم التنزيل ٢/ ١٦٩).

(٢) الإسلام وبناء المجتمع،د/ أحمد العسال: ص :١٦٠، نقلاً عن كتاب: دراسة في فكر منحل: ص: ٣٤.

وتعديلات فيما بعد، فإن كثيراً من آثارها لا يزال ملازماً لوضع المرأة الفرنسية المتزوجة من الناحية القانونية في الوقت الحاضر [١].

وقد حمى الإسلام حقوق المرأة المالية، وحرّم على الأقوياء، من الزوج والأولياء الاعتداء عليها في ذلك ، وجعل الاعتداء على الأقرباء، من ذكور وإناث، أعظم جرما ، وأشد إثما، كما قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾[٢] وإذا أراد الزوج أن يسعد في زواجه، فليستعفف عما حرم الله عليه، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، ولعل الفقرات التالية توضح جوانب هذه القاعدة الزوجية المهمة :

أولاً:- أثر اغتصاب مال الزوجة على العلاقة بينهما:

إن الرجل قد يحاصر امرأته من جوانب شتى، فعاطفتها معلّقة به، ورضاه مهم بالنسبة لها، ودرء سخطه مطلب أساسي، ثم إنه قد يُخيِّل إليها أن ثروته إنما هي لها، ولأولادها، فإذا أضيف إلى ذلك الضعف البشري العام، وضعف المرأة على وجه الخصوص، فإن الرجل قد يستطيع الاستيلاء على مال امرأته، أو على بعضه، بغير وجه حق، وتبقى المرأة بين خيارين عسيرين: إما أن تغامر بما قد يهدم بيتها، ويحطم أسرتها، ويشتت ذريتها، وإما أن تبقى أسيرة ظلم الزوج، وطمعه، وجشعه، ولاشك أن هذا

(١) المصدر السابق، الموضع نفسه ، نقلاً عن: الأسرة والمجتمع: ص: ١٤٤.

(٢) سورة محمد الآيتان :٢٢ ، ٢٣.

التصرف المشين يزلزل كيان الأسرة، ويوشك أن يقتلعها من جذورها، فهو يجعل الأسرة غير مستقرة نفسياً، وقد تتراكم أحزان المرأة، ثم تنفجر محطمة كل شيء، وحينئذ لا تنفع الزوج تصرفاته الهوجاء، التي قاده إليها شحه وطمعه، وتطلعه إلى ما في يد غيره، ولو اتقى الله، وقنع برزق الله، واعتبر مال امرأته ذخراً للأسرة، وملاذاً عند الحاجة، برضى المرأة، وطيب نفسها، لعاش حياته الزوجية بهناءة وراحة بال: ﴿ **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** ﴾[1].

ثانياً:- تحريم ظلم المرأة في مالها :

إن على الزوج أن يعلم أن جميع النصوص الواردة في تحريم الظلم، والنهي عن الاعتداء على حق الغير، وتحريم أكل مال الآخرين بالباطل، كلها دالة على تحريم الاعتداء على مال الزوجة، والاستيلاء عليه بغير وجه حق، فالزوجة كسائر الأجانب، لا يجوز أخذ شيء من مالها إلا برضاها، وطيب نفسها،كما قال تعالى: ﴿ **فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا** ﴾[2] فلا يجوز الاستحلال، ولا التحايل، ولا الإكراه، ولا استخدام سيف الحياء، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ** ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى**

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

ﱡٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﱠ[١].

وفي الحديث القدسي: **" يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا "**[٢] وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **" المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره ...كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه "**[٣].

ولو تدبرنا آيتين من كتاب الله، لبان لنا كيف حمى الإسلام حقوق المرأة، وشدد في الدفاع عنها، وهما قوله تعالى: **ﱡوَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﱠ**[٤].

فقد ذكرت هذه الآيات تسعة أمور، تؤكد تحريم أخذ الزوج شيئاً دفعه لامرأته، وتُبين قبح ذلك، وشناعته عند الله :

الأول: النهي الصريح عن ذلك بقوله: " فلا تأخذوا منه شيئاً " والتعبير بلفظ " منه شيئاً" دون: فلا تأخذوه، للدلالة على تحريم أخذ اليسير، فمن باب أولى أخذ الكثير[٥].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٣.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر، ح (٢٥٧٧) (٤/ ١٩٩٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب البر، ح (٢٥٦٤) (٤/ ١٩٨٦).

(٤) سورة النساء، الآيتان: ٢٠، ٢١.

(٥) انظر: محاسن التأويل (٥/ ١١٦٧).

الثاني: الإنكار على من فعل ذلك وتوبيخه بقوله تعالى:" أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً "

الثالث: وصف الأخذ بالبهتان ، وهو الكذب الذي يُبهِت سامعه لشناعته[1] ؛ لأن الزوج قد يدعي أن له حقاً في ذلك ، وهذا عين الكذب، فمتى ما تم العقد ، وسمي المهر، فقد استقر للمرأة نصف المهر، فإن دخل بها ملكت المهر كله .

الرابع: وصفه بالإثم المبين، فلا يفعله إلا من ضعف إيمانه، وانتفى تأثمه وتحرجه من أكل مال غيره بالباطل .

الخامس: أسلوب التعجب، والإنكار بعد الإنكار على من أقدم على ذلك، مما يدل على بشاعة الإقدام، وقبح الفعلة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ** ﴾.

السادس: بيان أن إفضاء الزوجين بعضهما إلى بعض مانع من الاعتداء على ذلك الحق .

السابع: بيان أن عقد النكاح ميثاق غليظ، فهو أقوى العقود، وأعظمها، وأشدها أثراً في الحال، والمآل، لما يترتب عليه من استحلال الفروج، وثبوت النسب، والميراث، وسواها من الأحكام الكثيرة المعروفة، ومثل هذا الميثاق الغليظ يمنع من تسلط الزوج على مهر زوجته .

الثامن: وصف المرأة بالثراء الفاحش، وبيان أن أصل هذه الثروة من

---

(١) انظر: المفردات للراغب (بهت) :ص: ٦٣.

الزوج: " وآتيتهم إحداهن قنطارا " والقنطار المال الكثير العظيم[١]، وقدره بعضهم بأنه ملء جلد الثور ذهباً[٢]، فإذا منع الزوج من أخذ شيء من مال امرأته الثرية، فالفقيرة من باب أولى، وإذا منع من الاعتداء على المهر وله فيه شبهة، إذ يجوز أخذه في بعض الأحوال، كنشوز المرأة، أو بيان عيب فيها، أو رغبتها في المخالعة، فمنعه من الاعتداء على المال الذي لا شبهة له فيه أولى وأحرى .

التاسع: ذكر حالة هي مظنة حاجة الرجل للمال، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ**﴾ فالزواج الجديد سبب للحاجة للمال، والحاجة الملحة تطمس بصيرة من ضعف إيمانه، وقلّ تذكُّره ليوم الحساب .

ثالثاً:- حكم أخذ شيء من راتب الزوجة :

في كثير من الأحيان يكون راتب الزوجة عامل شقاء، ومصدر نزاع وشقاق، ما لم يتفق الزوجان على أمر سواء، ويسيرا على خطة رشد .

وراتب الزوجة ملك لها، فإن منحت الزوج شيئاً منه برضاها فله ذلك، وأن أبت، أو رفضت الإنفاق على نفسها، أو على ولدها، حرم إجبارها على ذلك[٣] ؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ**

---

(١) انظر الكشاف: (١/ ٢٥٨).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (قطر) (ص: ٤٠٧).

(٣) انظر : دور المرآة في المجتمع، ص: ٥٤.

﴿ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾[1]، فلا يحل مال الزوجة إلا برضاها، وطيب نفسها.

وثمت ملحوظات ينبغي التفطن لها، ومراعاتها:

١- يحق للزوج الغني المنفق منع امرأته من العمل، ما لم تشترط ذلك عند العقد، فإن شرطت ذلك وجب الوفاء بشرطها، لقول النبي - صلى الله عليه وسلم-: **" إن أحق الشروط أن توفوا به، ما استحللتم به الفروج"**[2] متفق عليه. ولقوله:- صلى الله عليه وسلم- : **"المسلمون على شروطهم"**[3] وقال عمر -رضي الله عنه- لمن أبى أن ينفذ ما شرط لامرأته: "إن مقاطع الحقوق، عند الشروط، ولها ما اشترطت"[4].

٢- إذا أعسر الزوج، ولم يقدر على النفقة، ولم تختر المرأة الفسخ، فليس له منعها من عمل لا يمس كرامتها، ولا يخدش عرضها، قال الشافعي -رحمه الله-: (وإذا لم يجدها - يعني النفقة -لم يؤجل أكثر من ثلاث، ولا يمنع المرأة في الثلاث من أن تخرج فتعمل أو تسأل)[5].

وقال النووي:(يجوز لها الخروج في مدة الإمهال لتحصيل النفقة، بكسب، أو

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤.

(٢) رواه البخاري، كتاب الشروط، ح (٩) (٤/ ٣١) ومسلم، كتاب النكاح، ح (١٤١٨) (٣/ ١٠٣٥).

(٣) رواه الترمذي ،كتاب الأحكام ،ح (١٣٥٢) (٣/ ٦٢٥) والحاكم، كتاب البيوع (٢/ ٩٤) وصححه، وكذلك صححه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير، ح (٦٧١٤) (٢/ ١١٣٨).

(٤) رواه البخاري بنحوه معلقاً،كتاب الشروط (٤/ ٣١) وانظره موصولاً بهذا اللفظ في فتح الباري(١٩/ ٢١٧).

(٥) الأم (٥/ ١٣٢).

تجارة، أو سؤال، وليس له منعها من الخروج، وقيل: له منعها، وقيل: إن قدرت على الإنفاق بمالها، أو كسب في بيتها، كالخياطة والغزل، فله منعها، وإلا فلا، والصحيح المنصوص أنه ليس له منعها مطلقاً؛ لأنه إذا لم يوف ما عليه لا يملك الحجر)[١].

وقال الإمام ابن قدامة (وعليه – يعني المعسر – تخلية سبيلها، لتكسب لها، وتحصّل ما تنفقه على نفسها؛ لأن في حبسها بغير نفقة إضرار بها، ولو كانت موسرة لم يكن له حبسها، لأنه إنما يملك حبسها إذا كفاها المؤونة، وأغناها عما لا بد لها منه)[٢].

٣- قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- **" أول ما تفتقدون من دينكم الأمانة"**[٣]، وفي رواية: **"إن أول ما يرفع من الناس الأمانة، وآخر ما يبقى الصلاة، ورب مصل لا خير فيه"**[٤] وقال-صلى الله عليه وسلم- في حديث نزع الأمانة : **" فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة"**[٥]متفق عليه.

---

(١) روضة الطالبين (٩/ ٧٨).

(٢) المغني (١١/ ٣٦٦).

(٣)رواه البيهقي في شعب الإيمان ح(٥٢٧٣)(٤/ ٣٢٥)وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير، ح(٢٥٧٠)(١/ ٥٠٢).

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان،ح(٥٢٧٤)(٤/ ٣٢٥) وحسنه الألباني، انظر:صحيح الجامع الصغير،ح(٢٥٧٥)(١/ ٥٠٣)

(٥) رواه البخاري، كتاب الرقاق، ح(٨٤) (٨/ ١٨٦) ومسلم كتاب الإيمان، ح(٢٣٠) (١/ ١٢٦).

والجدير بالتنبيه عدم الربط بين الأمانة وصلاح الظاهر، فكم من صالح الظاهر،لكنه قليل الديانة، ضعيف الأمانة، سريع الخيانة، يقول عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-"لا يغرنكم صلاة ولا صيام، ولكن إذا حدث صدق، وإذا ائتمن أدى، وإذا أشفى[١] ورع "[٢].

وعلى الزوجة الموظفة أن تعتبر بهذه الأحاديث، وأن تعلم أن الأمانة تنزع في آخر الزمان، فلا تأمن على ما لها أحداً، ولا تخالط زوجها في ماله، إلا أن تكون هبة طيبة بها نفسها، وصلة ترجو ثوابها في الآخرة، أو بتوثيق وصكوك، وشهادات إثبات، تضمن بها مالها عند التنازع، فإن أبت فلتوطن نفسها لهبوب العاصفة، ولتتذكر أن الزوج، والأسرة ، والأولاد أغلى من الدنيا ومافيها .

(١) أشفى:أي:إذا أشرف على شئ تورع عنه،أو أشرف على الدنيا، وأقبلت عليه. انظر النهاية في غريب الحديث(٢/ ٤٩٨)

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان،ح(٥٢٨١)(٤/ ٣٢٧).

القاعدة السابعة

الحذر من الاختلاط و الخلوة بالمرأة الأجنبية

جعل الله بين الذكر والأنثى تجاذباً طبيعياً، وميلاً فطرياً، تعسر مقاومته، ويستحيل اقتلاعه من جذوره، وما الدين والأخلاق، والعادات والحياء، وضغوط الأسرة والمجتمع، إلا عوامل ردع لما وراء هذا الميل والانجذاب، ومتى ما توارت هذه العوامل أو ضعفت، ظهر المخبوء، وبان المستور .

وإذا أراد الزوجان أن يهنآ في حياتهما الزوجية، ويعيشا حياة الأمن والاستقرار، ويسْلما من بلاء الشك، وعذاب الغيرة ، فليبتعدا عن الاختلاط المريب، وليحذرا من الخلوة المحرمة .

ولعل في الفقرات التالية ما يشفي العليل، ويروي الغليل، ويقتلع جذور البلاء، الذي ابتليت به أمتنا، تقليداً ومحاكاة لأمم لها مقاييس وأخلاق، وعادات وحضارة، تصادم ما عليه الإسلام وأهله، بل وتضاد الفطر السليمة، ومقتضى العقول الرشيدة :

أولاً-: مفهوم الإسلام لعلاقة الرجل بالمرأة :

من أعظم الغرائز التي فطر عليها الإنسان، غريزة بقاء النوع، وقد فطر الله الذكر والأنثى على التجاذب والميل، لتحقيق هذه الغريزة، لكن إطلاق هذه الغريزة من غير ضوابط يضر بالإنسان، ويدمر حياته الاجتماعية، أشبه بما لو أبيحت السرقة، أو ألغيت الملكية الفردية .

وثمت مفهومان لعلاقة الرجل بالمرأة علاقة جنسية:

١- المفهوم الغربي، القائم على أن الصلة بين الذكر والأنثى إنما هي للجنس أولاً، ولذلك تعمدوا إيجاد الواقع المادي المثير، والفكر الجنسي الفج، وكل ما يلهب غريزة بقاء النوع، وأمام نظر الرجل والمرأة على حد سواء، ثم دأبوا على إشباع هذه الغريزة، وإرواء العطش المتكرر، ووضعوا لذلك فلسفات، ونظريات، تخدم هذا المفهوم، كنظرية الكبت القائلة: إن الإنسان إذا ثار جنسياً، ولم يُشبع هذه الرغبة، أصيب بكبت يضره جسديا، ونفسياً، وعقلياً، ونحو ذلك من نظريات، ألبست لبوس العلم والتجربة، وراجت في الأذهان، وتغلغلت في العقول .

ولذا نجد المجتمع الغربي، المسيّر بهذا المفهوم، يتعمد الإثارة الجنسية، ويتساهل في إشباعها، ويستزيد من الأفكار التي تخدم هذا الغرض، في القصص، والشعر، والمسرح، وغيرها، كما يحبذ الاختلاط بين الرجل والمرأة، في البيوت، والمنتزهات، والطرقات، وفي الرياضة، والسباحة، وما شاكل ذلك؛ لأنهم يعتبرون هذا أمراً ضرورياً، ويتعمدون إيجاده، وهو جزء من تنظيم حياتهم، وطراز معيشتهم[١] .

٢- المفهوم الإسلامي، القائم على أن الصلة بين الذكر والأنثى في هذا الشأن إنما هي لبقاء النوع، وما عدا هذا الغرض من اللذة والتمتع، متمم للحياة الزوجية، وتابع لهذا المفهوم، لا موجه له[٢]، ويكفي لتحقيق هذا

---

(١) انظر: حقوق المرأة المسلمة في القرآن والسنة، د/ محمد فريحة: ص: ١٦.

(٢) انظر: المصدر السابق.

الغرض صلة الرجل بزوجته، أو ما ملكت يمينه، ولهذا جاءت تعاليم الإسلام بمنع الإثارة الجنسية، خارج نطاق الحياة الزوجية، واعتبار ذلك نوعاً من الفساد، وضرباً من المنكر.

أما الإثارة الجنسية بين الزوجين، وقضاء الوطر، والتمتع بالنعمة، فنوع عبادة، ووسيلة قربة، وطاعة لله ولرسوله، كما قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [1] وقال سبحانه: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾[2] وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: " وفي بضع أحدكم صدقة "[3].

ثانيا:- وسائل الإسلام في منع الإثارة الجنسية :

غريزة الجنس في حالة خمود ما لم تثر، فإذا ثارت تطلبت إشباعاً، والذي يثير هذه الغريزة أمران :

أحدهما- الواقع المادي الملموس .

الثاني - الأفكار وتداعي المعاني، وتذكر صور وتجارب سابقة .

وقد حرص الإسلام - وهو يغرس مبادئ الطهر، والعفاف، والتقوى - على إبعاد الواقع المادي المثير، وإقصاء الفكر الجنسي، وتنظيف الحياة العامة من كل ما يثير الغريزة، ويؤجج الشهوة، حتى يظل الذكر والأنثى في طمأنينة، وراحة بال، وبعدٍ عن قلق الشهوة المثارة خارج نطاق الزوجية.

(١) سورة النساء، الآية: ٣.

(٢) سورة البقرة الآية :٢٢٣.

(٣) رواه مسلم، كتاب الزكاة، ح (١٠٠٦) (٢/ ٦٩٧).

وإليك بعض تعاليم الإسلام التي تحقق هذا الغرض:

١-غض البصر، فيجب على الرجل والمرأة غض البصر عما لا يحل النظر إليه، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾[١].

ولا يخفي أن متابعة النظرة بعد النظرة، والتمقل في المحاسن، سبب لثوران الشهوة؛ ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-:" لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة"[٢].

٢- الاستئذان قبل دخول البيوت، فلا يحل لمسلم أن يلج بيت أخيه حتى يستأذن، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾[٣]

وقد اهتم الإسلام بحفظ العورات، وإقصاء التهييج الجنسي، فأوجب على الطوافين في البيوت، من الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، والمماليك، ونحوهم من الخدم الاستئذان ساعات وضع الثياب، وخلوة الزوجين قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٥١) والترمذي، كتاب الأدب ح (٢٧٧٧) (٥/ ١٠١) وسنده حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير ح (٧٩٥٣) (٢/ ١٣١٦).

(٣) سورة النور، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾[1].

٣- عدم إبداء المرأة زينتها لغير محارمها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[2].

٤- الحجاب، فبدن المرأة كله عورة ، ويجب ستره عن الأجانب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[3]

قال البغوي مفسراً الجلباب:)هو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار، وقال ابن عباس، وأبو عبيدة: " أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عيناً واحدة")[4].

وبما أن بعض فتياتنا شغفن بتقاليد المرأة الغربية، فإنه يحسن نقل مقال الصحفية الأمريكية الشهيرة هيلسيان ستانسبري، وقد نشر في صحيفة" الجمهورية " المصرية ، ولخص المقال الشيخ محمد مهدي، ومما جاء فيه:(إن المجتمع العربي مجتمع كامل وسليم، ومن الخليق بهذا المجتمع أن يتمسك بتقاليده، التي تقيد الفتاة و الشاب في حدود المعقول ، فعندكم تقاليد تحتم عدم الإباحية الغربية، التي تهدد اليوم المجتمع، والأسرة، في أوربا، وأمريكا...ولهذا أنصح بأن تتمسكوا بتقاليدكم، وأخلاقكم، وامنعوا الاختلاط، وقيدوا حرية الفتاة...

(١) سورة النور، الآية: ٥٨.

(٢) سورة النور، الآية: ٣١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

(٤) معالم التنزيل (٦/ ٣٧٦).

لقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعاً معقداً، مليئاً بكل صور الإباحية، والخلاعة، وإن ضحايا الاختلاط، والحرية قبل سن العشرين تملأ السجون، والأرصفة، والحانات، والبيوت السرية!.

إن الحرية التي أعطيناها لفتياتنا، وأبنائنا الصغار، قد جعلت منهم عصابات أحداث، وعصابات" جيمس دين"، وعصابات للمخدرات، والرقيق الأبيض .

إن الاختلاط، والإباحية، والحرية في المجتمع الأوربي والأمريكي، هددت الأسر، وزلزلت القيم والأخلاق)[١].

٥- تحريم الخلوة بالأجنبية؛ لقول النبي- صلى الله عليه وسلم-: **" لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم "** [٢]، وقوله: **" إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت "** [٣]، والحمو قريب الزوج .

وعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: **" ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان"** قالها ثلاثا [٤]

---

(١) تحفة العروس، ص: ٣٣٩.

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح (١٦٢) (٧/ ٦٦) ومسلم كتاب الحج، ح (١٣٤١) (٢/ ٩٧٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح (١٦١) (٧/ ٦٦) ومسلم كتاب السلام، ح (٢١٧٢) (٤/ ١٧١١).

(٤) رواه أحمد (٣/ ٤٤٦) والحاكم في المستدرك (١/ ١١٤)وقال :صحيح على شرط الشيخين ،ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني ،صحيح الجامع الصغير ،ح(٢٥٤٦)(١/ ٤٩٨).

٦- تحريم التعطر عند الخروج من المنزل، والمرور على أجانب، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **" أيما امرأة استعطرت ثم خرجت، فمرت على قوم ليجدوا ريحها، فهي زانية، وكل عين زانية "**[(١)]، وقال -صلى الله عليه وسلم-: **" أيما امرأة تطيبت للمسجد، لم يقبل لها صلاة، حتى تغسله عنها اغتسالها من الجنابة "**[(٢)].

٧- تحريم الخضوع بالقول، وتليين الكلام عند خطاب الرجال، قال تعالى: ﴿ **فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** ﴾[(٣)]، قال القرطبي: (أمرهن الله أن يكون قولهن جزلاً، وكلامهن فصلاً، ولا يكون على وجه يظهر في القلب علاقة، بما يظهر عليه من اللين)[(٤)].

٨- القرار في البيوت، وعدم الخروج منها إلا لحاجة ملحة، قال تعالى: ﴿ **وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ** ﴾[(٥)] وقال -صلى الله عليه وسلم- : **" المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان "**[(٦)].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٠٠)والنسائي، كتاب الزينة، باب ما يكره للنساء من الطيب(٨/ ١٥٣) وإسناده حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير ح (٢٧٠١) (١/ ٥٢٥).

(٢)رواه أحمد(٢/ ٣٦٥) وابن ماجه،كتاب الفتن، ح(٤٠٠٢)(٢/ ١٣٢٦)وصححه الألباني، صحيح الجامع الصغير ح(٢٧٠٣)

(٧) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٧٧).

(٢) الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٣) رواه الترمذي، كتاب الرضاع، ح (١١٧٣) (٣/ ٤٦٧) وحسنه، و صححه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير ح (٦٦٩٠) (٢/ ١١٣٤).

٩- تحريم السفر بدون محرم، لقول -النبي صلى الله عليه وسلم-:" **لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا معها محرم** "[(١)] متفق عليه، وقال -صلى الله عليه وسلم-: "**لا تسافر المرأة بريداً إلا ومعها ذو محرم** "[(٢)]. والبريد: أثنا عشر ميلاً، والميل كيلو وستمائة متر[(٣)]، فالبريد تسعة عشر كيلو متراً تقريبا.

١٠- الفصل بين الذكور والإناث، فتعاليم الإسلام صريحة في هذا الفصل، ففي المساجد لهن مؤخرة الصفوف، وفي الطرق لهن حواف الطريق، وفي التعليم يكن بمعزل عن الرجال ، وفي صحيح البخاري، باب هل يُجعل للنساء يوم على حده في العلم، ثم ذكر حديث أبي سعيد قال: قالت النساء للنبي - صلى الله عليه وسلم -: "**غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه،فوعظهن، وأمرهن**"[(٤)].

وعن ابن عباس قال: "**خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومعه بلال، فظن أنه لم يسمع النساء، فوعظهن** "[(٥)] وهذا دليل على بعد النساء

---

(٤) رواه البخاري، باب حج النساء، ح (٤٣٣)(٣/ ٤٧)ومسلم كتاب الحج ح(١٣٤١) (٢/ ٩٧٨).

(٥) رواه أبو داود،كتاب المناسك ح(١٧٢٥) والحاكم في المستدرك،كتاب المناسك(١/ ٤٤٢)وقال صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

(٦) انظر : الشرح الممتع (٤/ ٣٥١) .

(٧) صحيح البخاري، كتاب العلم، ح (٤٢)(١/ ٦١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، ح((٣٩) (١/ ٥٩)

عن الرجال .

وبهذه التعاليم الإسلامية، وحرْص الإسلام على تزكية النفوس، وتهذيب الطباع، وحفظ الفروج عن الحرام، تكون علاقة الرجل بالمرأة الأجنبية علاقة معاملة وعمل، بعيدة عن النظرة الجنسية، واشتياق الذكورة، ومن شذّ استهجن من المجتمع، وقد يشعر بالإثم والحرج، وتأنيب الضمير .

ثالثاً:- عمل المرأة بين السلب والإيجاب:

المرأة نصف المجتمع، وهي مربية الأجيال، وصانعة الأبطال، ومزودة الأمة بالرجال، وقد أعلى الإسلام شأنها، ورفع قدرها، وهيأ لها كل وسيلة لتقوم بدورها، واعتبرها درة، ينبغي أن تحفظ و تصان، فهي أغلى من الذهب والجواهر، وسائر الأعراض الثمينة، التي تحفظ في مكان أمين، وحرز مكين .

وقد ثارت زوبعة حول عمل المرأة، هدفها الرئيس إخراج المرأة من بيتها، وإضعاف ولاية الرجل عليها، باستقلالها اقتصادياً، واستغنائها عنه .

ولعل النقاط التالية تكشف بعض ما ينبغي رعايته في هذا المجال :

١- قرار المرأة في البيت :

الزعم بأن قرار المرأة في بيتها تعطيل لنصف المجتمع زعم باطل، ودعوى كاذبة، ومغالطة مكشوفة، لأن عمل المرأة في بيتها، وتربية أطفالها، وإسعاد نفسها وزوجها، أشرف من كل عمل، وهل إنتاج الحديد والإسمنت، وسائر مظاهر الحضارة، يضارع إنتاج البشر، وتنمية العقول، وتربية الأنفس، وتهيئة أجواء السعادة .

إن على الأمة الإسلامية أن تبتعد عن النظر بمنظار الرأسمالية، التي لا يعنيها سوى كمية الإنتاج، ومقدار الدخل، ولو شقي الإنسان، وتحطمت آماله، وتهدمت أسرته .

وعلى الأمة أيضاً أن تعي سرّ كثير من الضوائق الاقتصادية، وزيادة معدلات التضخم، وهو حمل البشرية جمعاء، ذكوراً وإناثاً، على أن يكونوا عمالاً مضطهدين، لإدارة ترسانة الرأسمالية الحاطمة .

٢- الإسلام لا يمنع المرأة من العمل:

من حيث المبدأ لا يمنع الإسلام المرأة من العمل، وليس الخلاف هل تعمل المرأة أو لا تعمل؟ فالمرأة عاملة منذ هبطت إلى الأرض، ولم تُعرف أمة، ولا حضارة، لا تعمل نساؤها، سوى الفئة المترفة الشاذة، وإنما الخلاف:

أ- هل تعمل المرأة كأجيرة عند رجل أجنبي يختلي بها، أو تكون تحت تسلطه، أو تحت تأثيره بإغواء إغراء؟!

ب- هل تعمل المرأة بما يتعارض مع وظيفتها الأساسية كأم، وزوجة، ومربية أولاد، وراعية أسرة؟!

ج- هل تعمل المرأة في مجال يتعارض مع أنوثتها، وحيائها، وتعاليم دينها، في الخفر والستر، وصيانة العرض، وبعدها عن الخشونة والترجل؟!.

وبناءً على ذلك فإن هناك شروطاً في خروج المرأة للعمل هي:

أ- أن يكون هناك حاجة ماسة للعمل، تدعو إلى مخالفة الأصل، وهو القرار في البيت، فلا ينبغي أن يكون عمل المرأة ترفيهاً ، أو زيادة دخل للأسرة، فإن المخاطر المترتبة على ذلك كبيرة وخطيرة، في أغلب الأحوال،

والعاقل من يصون عرضه بماله:

أصون عِرضي بمالي لا أدَنِّسُهُ　　　لا باركَ الله بعْدَ العِرْضِ في المال[1]

ب- أن لا يستنزف العمل جهد المرأة، ووقتها، أو يتعارض مع وظيفتها الأساسية[2]، في رعاية الأسرة، وتربية النشء، وتلطيف أجواء الحياة الزوجية .

ج- أن لا يتعارض العمل مع أنوثتها[3]، أو يقضي على حيائها، أو يقتضي ترجلها، أو لا يتوافق مع كيان المرأة النفسي والجسدي .

د- تجنب الاختلاط بالرجال، وتحقق السلامة من الخلوة المحرمة .

هـ- أن تخرج لعملها كإنسانة، لا كأنثى، فتبتعد عن التبرج[4]، والتعطر، والتزين .

وعلى ضوء ذلك يتبين أنه لا بد من حصر عمل المرأة في مجالات معينة، تتحقق فيها تلك الشروط، أما إطلاق العنان للمرأة بأن تدخل كل مجالات الأعمال، كأن تكون مهندسة، أو طيارة، أ وجندية، أو عاملة صيانة، أو مصنع، أو سائقة شاحنة، أو عاملة نظافة، أو موظفة في الإدارات الحكومية، أو المؤسسات الأهلية، مع الاختلاط والخلوة بالرجال، كما هو الشأن في المجتمعات الغربية، ويسعى إليه المفتونون بها في مجتمعاتنا

---

(١) البيت لحسان بن ثابت ، انظر شرح ديوانه للأستاذ عبد أ.مهنا،ص ١٩٢ .

(٢) انظر: الإسلام وبناء المجتمع، أ.د حسن أبو غدة وآخرين ص : ٩٤.

(٣) انظر: دور المرأة في المجتمع، توفيق وهبة ص: ١٨٦

(٤) انظر: النظام الاجتماعي والخلقي في الإسلام، ص:٢٧٥.

الإسلامية، فهذا مما لا يبيحه إسلام، ولا تقره مروءة، ولا تسمح به غيرة أولياء تلك المرأة!.

إن هذا الانفتاح الفج من أعظم أسباب قلق المجتمع، وضياع أسره، وتشتت ناشئته، وتفكك روابطه، وتخلخل ثوابته .

وهاهي بعض شهادات العقلاء من الغربيين، بعد أن ذاقوا ويلات عبث الرأسمالية، يقول العلامة الإنجليزي(صامويل سمايلس): (إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في المعامل، مهما نشأ عنه من الثروة، فإن نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة الزوجية ؛ لأنه هاجم هيكل المنزل، وقوض أركان الأسرة)[١].

ويقول الفيلسوف(برانزاندرسل) :(إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة في الأعمال العامة ، وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرد على تقاليد الأخلاق المألوفة، وتأبى أن تظل أمينة لرجل واحد ، إذا تحررت اقتصادياً)[٢].

وتأمل خطورة الاختلاط بين الجنسين، والتعري، وانتشار صور الفتيات العارية، في شهادة الدكتور (جون كيشلر) أحد علماء النفس الأمريكيين، في مدينة شيكاغو، حيث قال:(إن ٩٠٪ من الأمريكيات مصابات بالبرود الجنسي، وإن ٤٠٪ من الرجال مصابون بالعقم) ثم ذكر

(١) المرأة بين الفقه والقانون، د/ مصطفى السباعي ص: ٢٥٢.

(٢) المرجع السابق (٢/ ٩٢).

أن تعري الفتيات، خاصة في الإعلانات، سبب في هبوط المستوى الجنسي للشعب الأمريكي [١].

بل إن النساء أنفسهن اكتشفن الوهدة التي سقطن فيها، بسبب موضة العمل، فقد أُجري استفتاء عامٌّ، في جميع الأوساط في الولايات المتحدة، لمعرفة رأي النساء العاملات في العمل، وكانت النتيجة كالأتي:

(إن المرأة متعبة الآن، ويفضل ٦٥٪ من نساء أمريكا العودة إلى منازلهن، كانت المرأة تتوهم أنها بلغت أمنية العمل، أما اليوم -وقد أدمت عثرات الطريق قدمها، واستنزفت الجهود قواها ـ فإنها تود الرجوع إلى عشها، والتفرغ لاحتضان أفراخها)[٢] ولكن هيهات! وقد تخلّص الرجل من عبئها،وحمّلها همومها وهموم ذريتها .

وأسوق إلى العقلاء من قومي مقتطفات من توصية القاضية السويدية(بريجيت أوف هامر) التي كلفتها الأمم المتحدة بزيارة بعض الدول الغربية، لدراسة مشاكلها، وأوضاعها الاجتماعية، وقد أشارت القاضية إلى أن السويد- أرقى البلاد الغربية تمدناً حسب اصطلاحهم- تعيش في مأساة، ثم قالت :(إن المرأة السويدية فجأة اكتشفت وهماً هائلاً هو الحرية، بثمن مفزع هو سعادتها الحقيقية...وهي تحنُّ إلى حياة الاستقرار العائلية، المتوازنة جنسياً، وعاطفياً، ونفسياً، فهي تريد أن تتنازل عن معظم

---

(١) انظر: حصوننا مهدده من داخلها، د/ محمد محمد حسين ص: ٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص: ٢٥٩.

حريتها في سبيل كل سعادتها) ثم تقول: (إن النتيجة على مستوى الأمة مذهلة حقاً) ثم ذكرت نسباً مروعة للمرضى النفسيين، والمصابين عقلياً، والمصابين بالأمراض الجنسية، نتيجةً للاختلاط، وعمل المرأة فيما لا يليق بها[١].

٣- أضرار التوسع في عمل المرأة:

إن الحكمة تقتضي قصر أعمال المرأة في مجالات معينة، تلائم طبيعتها كأنثى، وتحفظ دينها وأخلاقها، وتفرغها لمد المجتمع ببُناته، وصانعي حضارته، ويمكن إجمال الأضرار التي تنجم عن التوسع في عمل المرأة، واقتحامها كل الميادين بما يلي:

أ- تفكك الأسرة، وانحلال أخلاقها، فإن اقتحام المرأة جميع الميادين يقتضي اختلاطها بغير زوجها، واختلاط زوجها بغيرها، وكل طرف يجد من الملاطفة، والملاينة من زملاء العمل، ما لا يجده عند زوجه، فتنهار الأسرة، وتدمر الأخلاق[٢].

ب- شقاء المرأة وتعاستها، فهي ضعيفة الخلقة، وتعتريها ظواهر تزيد ضعفها، كالدورة الشهرية، والحمل والولادة[٣]، وانشغال البال

(١)انظر: دور المرأة في المجتمع الإسلامي،ص: ٢٢.وللتوسع في هذا الموضوع انظر: النظام الاجتماعي والخلقي= =في الإسلام،ص: ٢٧، وحقوق المرأة المسلمة،ص: ٥٥، والإسلام وبناء المجتمع لأبي غدة وآخرين، ص: ٩٤.

(٢) انظر : المرأة في ظل الحضارة الغربية ، د. محسن عبد الحميد: ص: ٦، ٧ ،والنظام الاجتماعي والخلقي في الإسلام ، ص: ٢٧٨.

(٣) انظر: الإسلام وبناء المجتمع، أ.د حسن أبو غدة وآخرين ص:٩٤.

بالأطفال، ورب العمل لا يعنيه إلا أداء عملها الذي تأخذ عليه أجراً.

إن من فظائع الرأسمالية وقبائحها الزج بالمرأة في معترك العمل، وحملها على اقتحام صعاب الحياة، دون مراعاة لحالتها النفسية والصحية، ودون تحمل شيء من وظائفها الأساسية، فحُملت المرأة وظيفة العمل مع وظيفتها الأصلية، المتمثلة في الأمومة والزوجية، وتصريف شؤون البيت، وفُرغ الرجل -وهو القوي الأشد- لوظيفتة الأساسية وهي الكد والكدح، ولم يحمل شيئاً من وظائف المرأة .

ج- ضياع الأولاد، وسوء التربية، وما يترتب على ذلك من جنوح الأحداث، والشذوذ، والأمراض السرية[1]، والغلو والإرهاب ، والتأثر بأعداء الدين والبلاد .

د- تأخير الزواج، أو العزوف عنه بالكلية، تخوفاً من عواقبه، وانشغالاً بالعمل، واكتفاء بما يدر من مال .

هـ- تعمد عدم الإنجاب، أو التقليل من الأولاد، ولا يخفى ما في ذلك من خطر على الأمة والمجتمع .

و-انتشار الزنا، وكثرة اللقطاء، والإيذان بهلاك المجتمع،وفق مقتضى السنن الربانية، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[2]

(١) انظر: النظام الاجتماعي والخلقي في الإسلام، ص :٢٧٨ .

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

ز- مزاحمة الرجال، وتعطيلهم عن العمل، ففي أغلب الأحوال تكون مجالات الأعمال محدودة، وتوسيع دائرة أعمال المرأة تضييق لدائرة أعمال الرجل، وهذا خلاف الحكمة، إذ تتعطل الرجال عن أعمالهم، وتنتشر بين الشباب البطالة[١]، وكذلك تتعطل النساء عن وظائفهن الأساسية في البيوت، ومقتضى العقل والحكمة ومصلحة المجتمع، تضييق دائرة عمل المرأة لتفريغها لمهمتها الكبرى، ووظيفتها العظمى، كأم وزوجة ومربية، ومستقر مودة ورحمة، وموطن أنس وسكن .

(١) انظر: المصدر السابق .

الخاتمة

الحمد لله ابتداءً وانتهاء،وأصلي وأسلم على إمام المصلحين ،وسيد المرسلين، من به خرجنا من الظلمات إلى النور،ومن الشقاء إلى الحبور، وبعد :

فقد تم استعراض هذه الجوانب، من شؤون الأسرة المسلمة، وبانت بجلاء الصورة المشرقة، التي يريدها الإسلام لأتباعه، تحقيقاً لسعادتهم العاجلة والآجلة، ويمكن إيجاز أبرز نتائج هذا البحث في النقاط التالية:

١- أهمية دراسة القضايا التي لها مساس بواقع الناس، دراسة موضوعية، وربطها بالكتاب والسنة، وإيجاد العلاج الذي يتعبد الناس به، فيسهل قيادهم، ويتحقق علاجهم.

٢- القرآن العظيم حوى كنوزاً عظيمة، وقواعد متينة، هي كفيلة بإنشاء أسرة مستقرة سعيدة، ترفرف عليها أعلام الهدى، وتتوازن فيها عملية الأخذ والعطاء، والحق والواجب، فلا نزاع بين الأطراف إلا لماما؛ لمعرفة كل طرف ماله وما عليه، ثم إذا وقع النزاع سارع كل طرف إلى امتثال قول الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1] .

وعلى ضوء هذه العلاقة التي نظمها الإسلام، تكون الأسرة المسلمة متميزة، بل فريدة؛ إذ لا يوجد على ظهر الأرض نظام غيره، حفّ الأسرة

(١) سورة النساء ، الآية : ٥٩.

بتعاليم راشدة، وأحكام عادلة، وأخلاق سامية، مع اعتبار ذلك عبادة وقربة، فيراقب الفرد ربه، ويزعه ضميره.

٣- الإسلام أنصف المرأة، وأعطاها حقوقها كاملة، ولم يصل إلى مستواه أي دين، أو قانون، فهو يرعاها بنتاً، وزوجة، وأماً، صغيرة، أو كبيرة، جميلة، أو دميمة، وضمن لها النفقة، والرعاية، ومطالب الحياة، وفرغها لمهمتها العظمى، ورسالتها الكبرى، من ولادة وتربية، ورعاية زوج، وتجميل حياة.

٤- من العار والجهل كون المرأة المسلمة، التي كرمها الله بأعظم دين، وتنتسب إلى أعظم حضارة عرفتها البشرية، تتخذ المرأة الغربية قدوة لها، وهي التي عبث بفكرها شياطين الإنس، وطلاب المتاع الرخيص، ووافق ذلك هوى أساطين الرأسمالية، الذين وجدوا فيها يداً عاملة رخيصة غير مشاغبة.

٥- الأسرة الصالحة ضرورة اجتماعية، وحاجة إنسانية، ومطلب ديني، يثاب المسلم على الوفاء به، ويعاقب على التقصير فيه، وقد تفطن أعداء البشر، وأعداء الأنبياء، إلى أثر الأسرة، وأهميتها في غرس الدين والأخلاق، فها هو دور كايم اليهودي، حامل لواء نظرية فرويد، والأستاذ في جامعة السربون الفرنسية، يزعم أن الأسرة عادة اجتماعية ينبغي أن تتطور وتلغى، وإشباع الغريزة الجنسية يكون عن طريق المتعة المتبادلة،

بعيداً عن قيد الزواج، وللأطفال الملاجئ[1].

٦- تفريغ المرأة لبيتها وذريتها مطلب ملح، وعلى الأمة المسلمة أن لا تقع ضحية حضارة زائفة، وإعلام مضلل، وزخرف من القول يغر ويخدع، فتخرج المرأة من عشها، وتبتعد عن نشئها، فتكون العاقبة سلبيات مؤثرة، على المرأة، والرجل، والناشئة، والمجتمع، ويفقد الجميع ما ينشدون من سعادة، وينطبق عليهم قول الحق -جل جلاله -: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[2].

٧- ليست السعادة بكثرة الدخل، وزيادة المال بين يدي الزوجين، بل السعادة في طمأنينة النفس، وراحة البال، وسلامة الضمير من الشكوك والأوهام، مع صفاء المودة، وجمال الروح، وما يحف الأسرة من رحمة، وتفاهم، وتآلف، وعزة رجولة، وصدق أنوثة، ثم توجه كل فرد لما خلق له، من غير مصادمة للفطرة، أو مضادة لسنن الله في خلقه.

٨- على فتيات الإسلام أن لا ينخدعن بنظرية المساواة بين الجنسين، فإن الخاسر الأول في هذه القضية هي المرأة ، إذ ستحمل بموجب هذه النظرية مسؤولية جديدة، مساوية لما يحمله الرجل، مع أنه لن يحمل من وظائف الأنثى الأساسية شيئاً، ولذا يمكن القول: إن هذه النظرية هي أعظم حيلة انطلت على الأنثى، فالرجل تخفف من مؤونة المرأة، وتخلص -

---

(١) انظر: تحفة العروس: ص: ٤٧٣

(٢) سورة الكهف ، الآيتان ١٠٣، ١٠٤.

في أحيان كثيرة - من عبء ذريتها، مع تيسر الاستمتاع بها.

٩- دلالة الشرع، مع العقل والمنطق والمصلحة، ومقتضى الفطرة، تؤكد على وجوب كون القوامة بيد الرجل، والإخلال بذلك يعني انهيار الأسرة، أو ضعف تماسكها، وسوء نتاجها، والمرأة العاقلة الرشيدة، لا تهدم بيتها بيدها، رغبة في الظهور، أو حباً للسيطرة، أو مجاراة لقوم لا خلاق لهم .

وفي الختام أسأل الله أن يمنّ على الأسرة المسلمة، بعودة صادقة إلى تدبر كتابه، والتمعّن في سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وصدق الامتثال للنصوص، مع الشعور بالعزة الإسلامية، والتخلص من ذلة التبعية، حتى تسعد في دنياها، وتفلح في أخراها . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

ثبت المراجع

- أحكام القرآن ، لأبي بكر ابن العربي ، تحقيق : على البجاوي ،طبعة عام ١٣٩٤هـ الناشر : دار الفكر / بيروت .
- أحكام القرآن لعماد الدين علي بن محمد الطبري،المعروف بالكيا الهراسي ،ط٢ ١٤٠٥هـ ، دار الكتب العلمية / بيروت.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، تأليف : محمد ناصر الدين الألباني ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ ، الناشر : المكتب الإسلامي/ بيروت.
- أسباب النزول للواحدي ، تحقيق : عصام الحميدان ، ط٢ ، ١٤١٢هـ . الناشر : دار الإصلاح / الدمام .
- الإسلام وبناء المجتمع ، تأليف : أ.د. حسن أبو غدة وآخرين، ط١، ١٤٢٦هـ ، مكتب الرشد / الرياض .
- الإسلام وبناء المجتمع ، تأليف : د.أحمد محمد العسال ، ط٩ ، ١٤١٥هـ ، دار القلم/ الكويت.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،تأليف : محمد الأمين الشنفيطي، طبعة عام ١٤٠٣هـ ،توزيع صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبد العزيز .
- البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان الأندلسي ، إشراف : صدقي محمد جميل ، طبعة عام ١٤١٢هـ ، الناشر : دار الفكر / بيروت .

- التحرير والتنوير (تفسير التحرير والتنوير) تأليف : محمد الطاهر ابن عاشور ، الناشر : الدار التونسية للنشر .
- تحفة العروس ، تأليف : محمد مهدي الاستانبولي ، ط٤، ١٤٠١هـ ، الناشر : المكتب الإسلامي / بيروت .
- تفسير آيات الأحكام في سورة النساء ، تأليف : د . إبراهيم اللاحم ، ط١ ، ١٤٢٤هـ ، الناشر : دار العاصمة / بيروت .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ط١ ، ١٤٠٦هـ، الناشر : دار المعرفة / بيروت.
- التفسير المنير ، تأليف : د. وهبة الزحيلي ، ط١ ، ١٤١١هـ ، الناشر : دار الفكر المعاصر / بيروت .
- تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر، تحقيق:عبد الوهاب عبد اللطيف ط٢ ،١٣٩٥ هـ ، الناشر : دار المعرفة / بيروت.
- تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، ط١ ، ١٣٨٤هـ ، الناشر : دار المعرفة / بيروت .
- تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر ،تحقيق: مصطفى عبد القادر، ط١، ١٤١٥ هـ ، دار الكتب العلمية / بيروت.
- تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون وآخرين ، طبعة عام ١٣٨٤هـ ، الناشر : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي) ، تأليف:

عبدالرحمن السعدي ، تحقيق : عبدالرحمن اللويحق ، ط١ ،١٤٢١ هـ،مؤسسة الرسالة / بيروت.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) لابن جرير الطبري ، ط٣،
- ١٣٨٨هـ ، الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر
- جامع البيان عن تأويل القرآن (تفسير الطبري) لابن جرير الطبري ، تحقيق : محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر ، ط ٢، الناشر : دار المعارف بمصر.
- الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبدالله القرطبي ، تصحيح: أحمد عبد العليم البرد وني ، ط٢، ١٣٧٢هـ ، الناشر : دار إحياء التراث العربي/ بيروت .
- حاشية الروض المربع، جمع عبدالرحمن بن محمد العاصمي ، ط٣، ١٤٠٥هـ ، توزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد .
- حصوننا مهدده من داخلها، تأليف :د/ محمد محمد حسين ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ ، الناشر: مؤسسة الرسالة / بيروت
- حقوق المرأة المسلمة في القرآن والسنة، تأليف : محمد فريحة ، ط١، ١٤١٦هـ ، المكتب الإسلامي .
- دور المرأة في المجتمع الإسلامي ، تأليف : توفيق علي وهبة ، ط٣،

١٤٠١هـ ، دار اللواء / الرياض.

- ديوان حسان بن ثابت بشرح عبد أ.مهنا ،ط٢، دار الكتب العلمية/ بيروت
- رسائل في أبواب متفرقة ، تأليف :د/ محمد بن إبراهيم الحمد ، ط١، ١٤٢٧هـ ، دار ابن خزيمة / الرياض .
- رسائل في التربية والأخلاق والسلوك ، تأليف :د/ محمد إبراهيم الحمد ، ط٢ ، ١٤٢٤هـ ، دار ابن خزيمة / الرياض .
- روضة الطالبين وعمدة المتقين ، للإمام النووي ، ط٣، ١٤١٢هـ . المكتب الإسلامي .
- الزوج والزوجة ما لهما وما عليهما ، تأليف : عبدا لعزيز بن ناصر العبد الله ، ط٢ ، ١٤٢٦هـ ، مطبعة النرجس التجارية / الرياض.
- سنن الترمذي ، لأبي عيسى الترمذي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ١، الناشر : المكتبة التجارية / مكة المكرمة .
- سنن أبي داود ، للإمام أبي داود السجستاني ، مراجعة وضبط : محمد محي الدين عبدا لحميد ،ط١، دار الفكر / بيروت .
- السنن الكبرى للإمام البيهقي ، تحقيق : محمد عبدا لقادر عطا ، ط١، ١٤١٤هـ دار الكتب العلمية / بيروت .
- سنن ابن ماجه ، تحقيق : محمد فؤاد عبدا لباقي ،ط ١، ١٣٧٣ هـ دار الكتب العلمية/ بيروت .
- سنن النسائي ، بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية السندي ، دار

الكتاب العربي / بيروت .

- شعب الإيمان للإمام البيهقي ،تحقيق:محمد السعيد بن بسيوني ،ط٢ ، ١٤٢٩هـ ،دار الكتب العلمية / بيروت.
- صحيح البخاري ، ط٥ ، ١٤٠٦هـ عالم الكتب / بيروت .
- صحيح الجامع الصغير وزياداته ((الفتح الكبير)) ، تأليف : محمد ناصر الدين الألباني ، ط٢، ١٤٠٦هـ المكتب الإسلامي .
- صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبدا لباقي،ط١٩٧٢،٢م،دار إحياء التراث العربي / بيروت
- صحيح مسلم يشرح النووي ،ط١، ١٣٤٩هـ ، المكتبة المنصورية/ القاهرة.
- ضعيف الجامع الصغير وزياداته ((الفتح الكبير)) ، تأليف : محمد ناصر الدين الألباني ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ ، المكتبة الإسلامي .
- فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، تحقيق : عبدا لعزيز بن عبد الله بن باز ، الناشر : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / الرياض .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ، لأبي القاسم الزمخشري، طبعة عام ١٣٩٢هـ ، الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر.
- لسان العرب ، لجمال الدين ابن منظور ، تصحيح : نخبة من علماء اللغة ،ط٢، الناشر : دار صادر / بيروت .

- اللقاء بين الزوجين في ضوء الكتاب والسنة ، تأليف : عبد القادر أحمد عطاء ، طبعة عام ١٤٠٠هـ ، الناشر : دار التراث العربي / القاهرة.
- محاسن التأويل ، تأليف : محمد جمال الدين القاسمي ، ط١، ١٣٧٦هـ ، تصحيح : محمد فؤاد عبدا لباقي ، الناشر : دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة .
- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع وترتيب : عبدالرحمن بن محمد بن قاسم ، طبعة عام ١٤٠٤هـ ، الناشر : الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين .
- مجموعة محاضرات للأستاذ الدكتور محمد بن أحمد الصالح ، ط١، ١٤٢٣هـ ، دار السلام للنشر والتوزيع / الرياض .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تأليف عبد الحق ابن عطية الأندلسي ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، ط١ ، ١٤١٣هـ ، دار الكتب العلمية / بيروت .
- المرأة في ميزان الطب والدين ، للدكتور السيد الجميلي ، ط١، ١٤٠٣هـ ، دار التراث العربي / القاهرة .
- المستدرك على الصحيحين لأبي عبدالله الحاكم النيسابوري ، وبذيله التلخيص للذهبي ،ط١ ، ١٤٠٦ هـ إشراف د. يوسف المرعشلي ، دار المعرفة / بيروت.
- المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط٥ ، ١٤٠٥هـ ، المكتب الإسلامي.

- مشكل الآثار لأبي جعفر الطحاوي ، ضبط وتصحيح : محمد عبد السلام شاهين ، ط١ ، ١٤١٥هـ ، دار الكتب العلمية/ بيروت.
- المصنف لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ المكتب الإسلامي .
- معالم التنزيل للإمام البغوي ، تحقيق : محمد عبدالله النمر وآخرين ، ط١ ، ١٤٠٩هـ ، دار طيبة / الرياض .
- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الكتب العلمية / قم .
- المغني لموفق الدين ابن قدامة ، تحقيق : عبدالله التركي ، وعبد الفتاح الحلو ، ط٣ ، ١٤١٧هـ ، توزيع : وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية .
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة / بيروت .
- منار السبيل في شرح الدليل ، تأليف : إبراهيم بن محمد بن ضويان ، تحقيق : زهير الشاويش ، ط٥ ، ١٤٠٢هـ ، المكتب الإسلامي .
- منهج السنة في الزواج ، تأليف :د/ محمد الأحمدي أبو النور ، ط٤، ١٤١٣هـ ، دار السلام للطباعة والنشر / القاهرة .
- الموطأ للإمام مالك ، رواية يحيى بن يحيى الليثي ، إعداد: أحمد راتب عرموش، ط٧ ، ١٤٠٤هـ ، دار النفائس / بيروت.
- الناسخ والمنسوخ في كتاب الله عز وجل ، لأبي جعفر النحاس ،

تحقيق : د. سليمان اللاحم ، ط١ ، ١٤١٢هـ ، مؤسسة الرسالة / بيروت.

- النظام الاجتماعي والخلقي في الإسلامي ، تأليف : د. محمد أحمد حسن ، ود. أحمد فؤاد محمود ، ط١ ، ١٤٢٤هـ ، دار النشر الدولي/ الرياض.
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، للإمام أبي السعادات ابن الأثير، تحقيق : طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ، ط١، ١٣٨٣هـ .

زيادة حروف المعاني في القرآن الكريم بين دوافع المجيزين ومحظورات المانعين

إعـداد

د. عماد طه أحمد الراعوش

د. عماد طه أحمد الراعوش

- أستاذ مساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – كلية أصول الدين – قسم القرآن الكريم وعلومه.
- حصل على درجة الماجستير. في القرآن الكريم وعلومه من جامعة المفرق الأردنية بأطروحته : (المنهج العقلي في القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه من جامعة اليرموك الأردنية بأطروحته: (علوم القرآن عند ابن عاشور – دراسة ونقداً)

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

ورد في القرآن الكريم حروف من حروف المعاني الظاهر فيها أنها زائدة -من حيث المعنى- على التركيب، أقصد أن المعنى يستقيم بها وبدونها، وهذه المواضع من مشكلات القرآن، لأن من المعيب وجودها في التركيب إن لم يكن لها اثر في المعنى، وهذا إن حصل في أي كلام يخل ببلاغته. خذ مثلا على ذلك قوله تعالى﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾(الشورى) في الآية هذه حرفا تشبيه هما (الكاف ومثل) وظاهر معناها مع وجود هذين الحرفين معا أنها تنفي الشبيه عن مِثْل الله وهذا من شأنه أن يثبت لله مثيلا ثم ينفي شبيه هذا المثيل، ولا شك أن هذا باطل بإجماع الأمة.

ولذلك ذهب بعض العلماء لدفع هذا الإشكال إلى القول بأن أحد الحرفين زائد، واعترض آخرون على هذا التوجيه واعتبروه مخلا ببلاغة القرآن، وراحوا يبحثون عن تأويلات أخرى تدفع الإشكال بدون القول بزيادة أحد الحرفين.

والذي استنتجته تعليلا لهذه الظاهرة هو أن قول القائلين بالزيادة في القرآن الكريم يعني عندهم أن الحرف زائد من الناحية الإعرابية لا من ناحية المعنى، لذلك يقولون هذا حرف زائد جاء للتوكيد. لكني مع ذلك لا أطمئن لهذا القول بل أرى أن لكل حرف من هذه الحروف معنى مفيدا له أثره في النظم والسياق، ولا يصح القول بزيادة كلمة ولا حرف وردت في القرآن، فضلا على أن هنالك تأويلات معتبرة تفسر ورود هذه الأحرف -

التي قيل إنها زائدة- تدفع الإشكال وتزيد التركيب بلاغة وروعة لا يكتسبها بدونها. والذي يستلزم ذلك أن القرآن أبلغ كلام ومثله يأتي فيه الحرف في موضعه المناسب لا يُستغنى عنه ولا يسد مكانه غيره.

لعل الذي دفع القائلين بالزيادة التزامهم بقواعد النحو. وهذا ليس ملزما والأصل أن نحاكم اللغة وقواعدها بنظم القرآن وقواعده، إضافة إلى أن التمعن في التراكيب التي قيل فيها بالزيادة كشف لنا عن معاني أصيلة أفدتها هذه الحروف.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين المبعوث رحمة للعالمين وعلى وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فمن حكمة الله أن ختم الرسالات السماوية برسالة الإسلام، ونسخ الكتب المقدسة بالقرآن الكريم، وكان القرآن الكريم المعجزة الدالة على صدق الرسول والرسالة، والمنهج الذي يسير الناس عليه إلى أن تقوم الساعة.

وكتاب هذا شأنه كان من البلاغة والإحكام في رتبة عالية بحيث عجز البشر عن معارضته. ومن بلاغته أنك تجد كل كلمة فيه بل كل حرف في مكانه الأنسب والأبلغ، وله موقع من النظم لا يستغنى عنه المعنى، ولا يغني عنه غيره، إنه منسجم كله من أوله إلى آخره، لا يناقض بعضه بعضا لا في الأسلوب ولا في المعني، مصداقا لوصف الله تعالى له ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء).

غير أن من يقرؤون القرآن ليسوا في رتبة واحدة من الفهم والفصاحة والمعرفة بالمعاني ووجوه التأليف بين الكلام؛ لذلك ليس من الغريب أن يقرأ البعض شيئا من القرآن فيشكل عليهم بعض أموره. ومما قد يشكل أمر يتعلق بحروف من حرف المعاني جاءت في مواضع الظاهر منها أنها زائدة على بناء الجملة وكأنها لا تضيف معنى تأسيسيا، ولتعليل ذلك قالوا بزيادة هذه الأحرف من ناحية أعرابية واعتبروا الغرض من مجيئها التأكيد على المعنى، وليس من هؤلاء من يقول بالزيادة دائما، بل تجد منهم من يقول

بالزيادة في موضع وينفيها في موضع آخر، وهذا يعني أن هؤلاء قبلوا فكرة وجود حروف زائدة من حيث المبدأ عندما لم يدركوا لهذه الحروف معنى تأسيسيا، لكنهم إن وجودوا لها معنى تأسيسيا نفوا القول بالزيادة ورجعوا إلى الأصل.

وفريق آخر عارض القول بالزيادة ورأى أنه لا يناسب طبيعة اللغة العربية والقرآن الكريم من حيث البلاغة والإعجاز، وتأولوا هذه المواضع وذكروا في معاني هذه الحروف وجوها متعددة دفعوا بها الإشكال حيث ورد.

وهنالك فريق ثالث حرصوا على استنباط معنى تأسيسي تفيده هذه الحروف، لكنهم لم يجدوا حرجا في وصف هذه الحروف بالزيادة حيث لم يمكنهم الوقوف على معنى تأسيسيا، ويقصدون أنها زائدة من ناحية الأعراب ومؤكدة من ناحية المعنى.

هذه آراء في قضية مهمة وخطيرة، سأحاول في بحثي هذا مناقشتها، وأرجو أن أتمكن من تحقيق هذه المسألة بطريقة منهجية وموضوعية، وأن يكون في هذا البحث خير للعلم ولطلبته.

خطة البحث

التمهيد: وفيه المقصود من زيادة الحروف

الفصل الأول: زيادة الحروف بين المجيزين والمانعين وفيه أربعة مباحث هي:

المبحث الأول: القائلون بالزيادة

المبحث الثاني: المانعون للزيادة

المبحث الثالث: مناقشة زيادة الحروف

المبحث الرابع: دوافع القول بزيادة الحروف في القرآن

الفصل الثاني: دراسة تطبيقية لمواضع قيل فيها حروف زائدة وفيه أربعة مباحث هي:

- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى)
- الآيات التي أمر الله بها الملائكة وإبليس بالسجود لآدم.
- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ ﴿١٥٩﴾﴾ (آل عمران).
- حرف (لا) في موضع القسم.

التمهيد

المقصود من زيادة الحروف

استخدم مصطلح زيادة الحروف علماء من فروع مختلفة من العلوم، استخدمه النحويون والمفسرون وعلماء البلاغة، مما جعل هذا المصطلح فضفاضا يحتمل أكثر من معنى.

لذلك أردت قبل الشروع في بحثي هذا تحديد مفهوم مصطلح زيادة الحروف فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم خاصة، ليتسنى لي بعد تقرير مفهوم هذا المصطلح دراسة الموقف من هذه القضية الهامة والخطيرة في ذات الوقت، ولتحديد مفهوم هذا المصطلح أبين أولا المعنى اللغوي ثم الاصطلاحي.

معنى الزيادة لغة: الزيادة: النمو والتكاثر[١]، قال الراغب معناها: " أن ينضم إلى ما عليه الشيء في نفسه شيء آخر".[٢]

الحروف: جمع حرف، ويقصد به هنا حروف الهجاء، أي الحروف التي تتكون منها بنية الكلمة، أو حروف الأدوات التي تربط الاسم بالاسم والفعل بالفعل كمن وعلى ونحوها[٣]، وتسمى الثانية حروف المعاني وهي التي تعنينا في هذا البحث.

زيادة الحروف اصطلاحا: من خلال استقراء كثير من استخدامات العلماء

(١) مختار الصحاح، الرازي، مادة زيد

(٢) المفردات، الراغب، ص ٢١٥

(٣) القاموس المحيط، الفيروز آبادي،مادة حرف

لمصطلح زيادة الحروف وجدت أنهم لم يتفقوا على معنى واضح محدد لهذا المصطلح، فبعضهم يستخدمه ويريد به زيادة الحرف من حيث الإعراب، بمعنى أن الحرف الزائد إذا أسقط من الكلام بقي الكلام تاما، ويرى هؤلاء أن مجيء الحرف على هذا النحو إنما هو لتأكيد المعنى.

ويرى فريق آخر أن زيادة الحروف تعني مجيئها زائدة في الإعراب والمعنى، وهذا القول غريب لكنه مروي. حيث نقل الزركشي عن ابن السراج " أنه ليس في كلام العرب زائد، لأنه تكلم بغير فائدة، وما جاء منه حمله على التوكيد _ ثم يقول الزركشي _ ومنهم من جوزه وجعل وجوده كالعدم، وهو أفسد الطرق ".(١)

قلت: أستبعد أن يقصد هؤلاء العلماء _ وكلهم من جهابذة اللغة والتفسير _ أن الحرف قد يجئ في القرآن الكريم ويكون زائدا، بمعنى أن حذفه أو زيادته سواء في المعنى ؛ لأن هذا طعن ببلاغة القرآن وإعجازه وهذا لا يقول به مسلم.

لذلك أستبعد أنهم يعنون بلفظ الزيادة أنها تأتي عبثا أو لغوا، وإنما هي عندهم زائدة من حيث الإعراب أما من حيث المعنى فهي للتأكيد، وعليه فإن المقصود من الزيادة عندهم الزيادة من الناحية الأعرابية، وهم بذلك يحسبون على القول الثاني أو الثالث.

يقول الزركشي: "واعلم أن الزيادة واللغو من عبارة البصريين،

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٣/ ٨١

والصلة والحشو من عبارة الكوفيين... _ ثم يقول _ والأولى اجتناب مثل هذه العبارة في كتاب الله فإن مراد النحويين بالزائد من جهة الإعراب، لا من جهة المعنى". [1]

وهنالك رأي آخر يرى أصحابه أن هذه الحروف جاءت لغرض لفظي يتعلق بجرس الكلام والأثر الصوتي للحرف، وممن قال بذلك السيوطي حيث يرى أن الحروف تزاد طلبا للفصاحة، ولأجل تزيين اللفظ وجعله مهيئا لاستقامة وزن الشعر أو حسن السجع أو غير ذلك[2] وهذا ذكره الرافعي في كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.[3]

ومن المصطلحات التي استخدمها بعض العلماء رديفا لهذا المصطلح: اللغو أو التوكيد اللغوي، والصلة، والإلقاء، والنزع، والسقوط، والاستغناء.

وفيما يلي بيان هذه المذاهب بالتفصيل:

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٣/ ٨

(٢) الأشباه والنظائر في النحو، السيوطي، ١/ ٣٥٦.

(٣) إعجاز القرآن، الرافعي، ص ١٨٩-١٩٠.

الفصل الأول

زيادة حروف المعاني بين المجيزين والمانعين

المبحث الأول: القائلون بالزيادة

ممن قالوا بزيادة الحروف، سيبويه من علماء اللغة وأبو عبيدة والفراء والزجاج وهؤلاء من علماء معاني القرآن الكريم وإعرابه، والزجاجي من علماء حروف المعاني، والزمخشري وأبو حيان من علماء التفسير، وغيرهم والذين قالوا بوجود حروف زائدة هم جمهور اللغويين والمفسرين.

وتجدر الإشارة إلى أن ليس من هؤلاء من يقول بالزيادة دائما، بل تجد منهم من يقول بالزيادة في موضع وينفيها في موضع آخر كما سيظهر لنا لا حقا، وهذا يعني أن هؤلاء قبلوا فكرة وجود حروف زائدة من حيث المبدأ عندما لم يدركوا لهذه الحروف معنى تأسيسيا، لكنهم إن وجودوا لها معنى تأسيسيا نفوا القول بالزيادة ورجعوا إلى الأصل، لذلك تجد من الكتاب من صنف العلماء في هذا المقام ثلاثة أصناف مثبتين ونافين، وفريقا ثالثا أثبت أحيانا ونفى أحيانا أخرى، لكني رأيت أن من أثبت أحيانا أحرى به أن يكون مع المثبتين لأنه قبل فكرة الزيادة من حيث المبدأ.

وفيما يلي أمثلة على كل فريق ولن أناقش أقوالهم في هذا الفصل لأن غرضي من هذا هنا عرض أقوالهم والتأكد من أنهم فعلا قالوا بالزيادة وبيان مقصدهم من ذلك. وسأترك المناقشة للفصل التالي.

سيبويه: عمرو بن عثمان بن قنبر (**ت ١٨٠ هـ**)

صاحب أقدم مصنف في النحو وهو (**الكتاب**)، سيبويه ممن قالوا

بزيادة الحروف في القرآن الكريم وعبر عنها بمصطلح (توكيد لغوي).

يقول _ مثلا _ عند حديثه عن (ما) "وتكون توكيدا لغويا، وذلك قولك: متى ما تأتني آتك، وقولك غضبت من غير ما جرم، وقال الله عز وجل:﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾(النساء:١٥٥) و(المائدة: ١٣) وهي لغو في أنها لم تحدث إذا جاءت شيئا لم يكن قبل أن تجيء من العمل، وهي توكيد للكلام".[١]

لكن المتتبع لمصطلح سيبويه يجد أنه لا يقصد باللغو أنه فضل كلام أو حشو لا فائدة من ذكره، إنما يقصد أنه لغو في الإعراب، ويؤكد ذلك كلامه عند حديثه عن (مِنْ) حيث يقول: " وقد تدخل في موضع لو لم تدخل فيه كان الكلام مستقيما، ولكنها توكيد بمنزلة (ما) _ ثم يقول _ وذلك قولك: ما أتاني من رجل، وما رأيت من أحد. ولو أخرجت (من) كان الكلام حسنا، ولكنه آكد بـ(من)؛ لأن هذا موضع تبعيض فأراد أنه لم يأته بعض الرجال والناس"[٢]، فهو يقصد اللغو من ناحية الإعراب، أما من حيث المعنى فالحرف عنده يفيد التوكيد.

أبو عبيدة: معمر بن المثنى (٢١٠ هـ)

عرض لزيادة الحروف في كتابه (**مجاز القرآن**)، وكان ذكره لزيادة الحروف على نحوين، فأحيانا يذكر أن الحرف من الزوائد، وأحيانا يذكر أن الحرف يزاد للتنبيه والتوكيد.

(١) الكتاب _ كتاب سيبويه _، سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، ٤/ ٢٢١

(٢) الكتاب، ٤/ ٢٢٥

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ (الأعراف) قال " مجازه _ أي معناه الذي يحمل عليه _ أن تسجد، والعرب تضع (لا) في موضع الإيجاب، وهي من حروف الزوائد".[1]

مثال الثاني: عند قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣١﴾ (لأعراف)، قال: " مجازه: إنما طائرهم، وتزاد (ألا) للتنبيه والتوكيد".[2] وعند قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ۝١١٣﴾ (الأعراف) قال اللام المفتوحة تزاد توكيدا".[3] والملاحظ من هذا أن قول أبي عبيدة في إثبات الزيادة واضح في المثال الأول، أما المثالان الأخيران فقد ذهب فيهما وأشباههما مذهب سيبويه وهو أن الحرف زائد من ناحية الإعراب ولكنه من حيث المعنى للتوكيد.

الفراء: **يحيى بن زياد (ت ٢٠٧ هـ)**

صاحب كتاب (**معاني القرآن**) من النحاة الكوفيين وهو ممن يقولون بزيادة الحروف، ويعبر عنه بمصطلحات عدة أشهرها (الصلة) وهو مصطلح الكوفيين للزيادة، ومن مصطلحاته (الإلقاء والنزع والسقوط والاستغناء).

ومما اعتبره الفراء حرفا زائدا (الواو) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ

(١) مجاز القرآن، أبو عبيدة، ١/ ٢١١

(٢) مجاز القرآن، ١/ ٢٢٦

(٣) مجاز القرآن، ١/ ٢٢٥

﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ١٥٢﴾(آل عمران) حيث قال: " حتى إذا تنازعتم في الأمر فشلتم، فهذه الواو معناها السقوط، كما يقال: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤﴾ (الصافات)[١]، ومع أن الفراء يقول بزيادة بعض الحروف إلا أننا نجده أحيانا يرد قول غيره بالزيادة في بعض المواضع، نحو كلامه في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾(الفاتحة) حيث قال: "قال بعض من لا يعرف العربية إن معنى (غير) هنا معنى (سوى) وأن (لا) صلة في الكلام... وهذا غير جائز لأن المعنى وقع على ما لا يتبين فيه عمله فهو حجد [٢] محض _ ويقول _ وإنما يجوز أن تجعل (لا) صلة إذا اتصلت بحجد قبلها ".[٣]

الزجاج: أبو اسحق إبراهيم بن السّري (ت ٣١١ هـ)

صاحب كتاب (**معاني القرآن وإعرابه**) من النحاة البصريين. وهو ممن يجوز القول بزيادة الحروف في القرآن، ولكنه أحيانا يرفض قول غيره بالزيادة في بعض المواضع خلافا خاصا في هذه المواضع فحسب لا في مبدأ القول بالزيادة، ومن أمثلة قوله بالزيادة قوله بزيادة (ما) في قوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ ٢٨﴾(القصص) حيث قال " وما زائدة مؤكدة والمعنى أي الأجلين قضيت ".[٤] وكذلك في قوله تعالى: ﴿**قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ٤٠**﴾ (المؤمنون) حيث قال " (ما) زائدة بمعنى التوكيد وكأن معناه: عن قليل

(١) معاني القرآن للفراء، ١/ ٢٣٨

(٢) الجحد: مصطلح عند النحاة الكوفيين يقابل مصلح النفي عند البصريين.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٨ بتصرف يسير، وقد ردَّ قول أبي عبيد في مجاز القرآن انظر ١/ ٢٥.

(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ٤/ ١٤٢

ليصبحن نادمين ".[1] وهو يقول ملازما لقوله بزيادة الحرف أنه جاء للتوكيد.

ومن المواضع التي ردَّ فيها الزجاج قول غيره بالزيادة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة) حيث قال: " قال أبو عبيدة (إذ) ههنا زائدة، وهذا إقدام من أبي عبيدة لأن القرآن لا ينبغي أن يتكلم فيه إلا بغاية تجري على الحق، و(إذ) معناها الوقت وهي اسم فكيف يكون لغوا ومعناه الوقت؟".[2]

الزجاجي: أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (ت ٣٣٧ هـ)

صاحب كتاب (**حروف المعاني والصفات**) ذكر فيه زيادة بعض الحروف نحو زيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ (القيامة)، ذكر أنها " تزاد مع اليمين وتطرح".[3]

كذلك:، قال عن الكاف " تكون مزيدة كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى) المعنى ليس مثله شيء".[4]

الزمخشري: محمد بن عمرو الخوارزمي (ت ٥٣٨)

صاحب (**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**). يقول بالزيادة ومن ذلك قوله بزيادة (ما) في قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴿١٥٩﴾﴾ (آل عمران) حيث قال:" (ما) مزيدة للتوكيد، وللدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله، ونحوه: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ ﴿١٣﴾﴾ (المائدة)".[5]

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ٤/ ١٣

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ١/ ١٠٨

(٣) حروف المعاني والصفات، الزجاجي، ص ٨

(٤) حروف المعاني ص ٤٠

(٥) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٣١

ويلاحظ أن الزمخشري في المواضع التي يقول فيها بالزيادة يقرر أن الزيادة جاءت للتأكيد. وبرغم قوله بالزيادة إلا أنه في كثير من المواضع يرد قول الآخرين بالزيادة ويستنبط في تلك المواضع حكما دقيقة تؤكد أصالة الحرف. ومن ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴿٦﴾﴾(المائدة) يقول: " المراد إلصاق المسح بالرأس، ثم قال: وعليه فالباء أصلية للإلصاق".[1]

أبو حيان: محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي (ت ٧٥٤)

صاحب (**تفسير البحر المحيط**)، وهو من القائلين بالزيادة ومن الأمثلة على ذلك قوله بزيادة (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ ﴿٤﴾﴾ (الأنعام)، قال: " مِنْ زائدة لاستغراق الجنس، ومعنى الزيادة فيها أن ما بعدها معمول لما قبلها فاعل بقوله **تَأْتِيهِم** فإذا كانت النكرة بعدها مما لا يستعمل إلا في النفي العام، كانت مِنْ لتأكيد الاستغراق نحو ما في الدار من أحد، وإذا كانت مما يجوز أن يراد بها الاستغراق، ويجوز أن يراد بها نفي الوحدة أو نفي الكمال كانت مِنْ دالة على الاستغراق نحو ما قام من رجل".[2] وعند قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴿١٥٩﴾﴾(آل عمران)قال و(ما) هنا زائدة للتأكيد"[3].

لكن أبا حيان يرد القول بالزيادة في بعض المواضع حيث نقل عند قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴿١٠٦﴾﴾(البقرة) قول من جوز الزيادة وقال

---

(١) الكشاف، ١/ ٦١٠

(٢) البحر المحيط، ٤ / ٤٣٦

(٣) البحر المحيط، ٣/ ٤٠٧

وهذا فاسد لأن الحال لا يجرُّ بـ (من)".[1]

مما سبق يبدوا أن العلماء الذين استخدموا مصطلح الزيادة في وصف بعض الحروف في القرآن الكريم، كانوا يقصدون الزيادة النحوية، ويؤكد ذلك أنهم كانوا أحيانا يطلقون لفظ الزيادة مصحوبا بقيد التأكيد فيقولون زائد للتأكيد، وعليه فإن قولهم بالزيادة ليس المقصود منه أن هذا الحروف فضلة لغوية لا فائدة منها ووجودها كعدمها، بل المقصود منه أن الحرف لم يضف شيئا على المعنى الأصلي. وهذا ما ذكره سيبويه عندما تحدث عن(من) فقال " وقد تدخل في موضع لو لم تدخل فيه كان الكلام مستقيما ولكنها توكيد".[2]

الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)

عرض الطبري للحروف التي قيل إنها زائدة وكان دائما يرد هذا القول ويحاول أن يجد من خلال نظره الدقيق للحرف والآية والسياق فائدة لمجيئه بجانب التوكيد، ومن ذلك عند تفسير لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة)، نقل القول بزيادة إذ وأن المعنى على ذلك قال ربك، ثم رد هذا القول، وقرر أن (إذ) جاءت هنا بمعنى الجزاء (الشرط) لتدل على مجهول من الوقت.[3]

ومن ذلك أيضا رده للقول بزيادة (ما) في قوله تعالى﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴿١٥٩﴾﴾(آل عمران) قال: "زعم أن (ما) في ذلك زائدة، وأن معنى الكلام فبرحمة من الله لنت لهم _ ثم قال رادا هذا القول ومبينا نظم الكلام

(١) البحر المحيط، ١/ ٥٤٩

(٢) الكتاب، ٤/ ٢٢٥

(٣) انظر جامع البيان، للطبري، ١/ ٢٢٤ وسيأتي توضيح هذا المثال لاحقا

ـ إنما ذلك من المتكلم على ابتداء الكلام بالخبر عن عموم الأشياء، إذ كانت (ما) كلمة تجمع كل الأشياء، ثم تخصّ وتعمّ ما عمته بما تذكره بعدها".[١]

ثم يعلل الطبري رفضه لمذهب الزيادة "بأن زيادة (ما) لا تفيد من الكلام معنى في الكلام وغير جائز أضافته إلى الله جل ثناؤه".[٢] فالطبري يرى أن الزيادة في الكلام بدون فائدة عيب، وكتاب الله عز وجل وهو في أعلى رتب البلاغة منزه عن هذا العيب لذلك يرى أنه غير جائز أن يكون في كتاب الله حرف لا معنى له.

ومن المواضع التي يطيل فيها الطبري الكلام في رد القول بالزيادة تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ (القيامة) حيث ذكر القول بزيادة (لا) وأن المقصود القسم ونقل كذلك القول بأن المقصود نفي القسم، ورد هذين القولين واختار قولا ثالثا مبنيا على القول بأصالة (لا) ونفي زيادتها وهو أن (لا) أصلية نافية تنفي سابقا لها ويسمى هذا النوع من القسم (اليمين المستأنف)، يقول الطبري: " وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: إن الله أقسم بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة، وجعل (لا) لكلام قد كان تقدمه من قوم وجوابا لهم".[٣]

(١) جامع البيان، ١/ ٤٧١

(٢) جامع البيان، ١/ ٤٧١

(٣) جامع البيان، ١٤/ ١٧٢

المبحث الثاني: المانعون للزيادة

هنا أذكر أقوال طائفة من العلماء لم يقبلوا القول بالزيادة ولم يرتضوها في شيء من القرآن الكريم ولا بوجه من الوجوه حتى على القول بأنها للتوكيد ومن هؤلاء من يلي:

الرازي: فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي (ت٦٠٦)

صاحب كتاب التفسير الكبير (**مفاتيح الغيب**). وهو ينكر القول بالزيادة في القرآن، ويعتبره أمرا مشكلا صعبا حيث يقول " الحكم بأن كلمة من كتاب الله لغو لا فائدة فيها مشكل صعب". [(١)]

ويبني حكمه هذا على أصول هي:

١- ما من حرف ولا حركة في القرآن، إلا وفيه فائدة، والعقول البشرية قد تدرك هذه الفائدة وقد لا تدركها. وهذه إشارة مهمة من الرازي تفيد أن عدم فهم الإنسان لمعنى حرف والغرض منه ينبغي أن لا يدفعه إلى القول بزيادته، فالفائدة موجودة لكن العلة في فهمه وعجزه عن إدراكها. يقول: " ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلا ". [(٢)]

٢-" الأصل في الكلام لا سيما كلام الله تعالى أن لا يكون زائدا ". [(٣)]

---

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي، عند تفسير لقوله تعالى " قال ما منعك ألا تسجد إذا أمرتك " الأعراف ١٢ – ١٤/ – ٣٢

(٢) التفسير الكبير عند تفسيره " ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى " ٢٥/ ٦٢

(٣) التفسير الكبير عند تفسير لقوله تعالى: فليحذر الذين يخالفون عن أمره " النور / ٦٣، ٢٤/ ٤١

وعليه فإن النظر في فائدة الحرف ضمن سياقه هو الأصل، ولا يصار إلى القول بالاستثناء إلا إذا تعذر الأصل، وباستقراء حروف القرآن الكريم التي ادعى البعض زيادتها نجد أن كثيرا من العلماء وجد لها فائدة، وعليه فإن كلام الذي استنبط الفائدة هو الأصل والأصل مقدم على الاستثناء.

ومن الجدير بالذكر هنا أن بعض القائلين بالزيادة في مواضع يأتي في مواضع أخرى ويرد القول بزيادة حروف ويستنبط لها معاني دقيقة مفيدة.

٣- القول بزيادة شيء في القرآن يعنى أنه لغو باطل يجب طرحه حتى ينتظم الكلام وهذا طعن في ببلاغة القرآن وإعجازه،[١] يقول الرازي: " إن الله تعالى وصف القرآن بكونه هدى وبيانا، وكونه لغوا ينافي ذلك".[٢]

ولا يترك الرازي موضعا فيه زعم بزيادة حرف إلا ويقف عنده مفندا زعم الزيادة ومبينا فائدة الحرف، ومن ذلك قوله تعالى:﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ ۝٦﴾(المائدة) ينقل عن بعضهم القول بالزيادة وينقل عن الشافعي أنها للتبعيض ثم يقول: " والأول باطل لأن الحكم بأن كلام رب العالمين وأحكم الحاكمين لغو في غاية البعد، وذلك لأن المقصود من الكلام إظهار الفائدة، وحمله على اللغو خلاف الأصل، فثبت أنه يفيد فائدة زائدة وكل من قال بذلك قال إن الفائدة هي التبعيض ".[٣]

قلت: وهذا رد قوي لكن حصر فائدة الباء بالتبعيض ليس صحيحا

---

(١) التفسير الكبير، ٢/ ٢١٤-٢١٥

(٢) التفسير الكبير عند تفسيره لقوله تعالى " إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة " ٢/ ١٣٥

(٣) التفسير الكبير عند حديثه في مسائل متعلقة بالاستعاذة عن الباء، ١/ ٩٨

وقد ذكر البعض أنها للالتصاق.[١]

ومثال ذلك كذلك عند قوله تعالى: ﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥ ﴾ (الحجر) نقل عن الواحدي أن (من) زائدة ثم قال: " إنها ليست زائدة لأنها تفيد التبعيض أي هذا الحكم لم يحصل في بعض من أبعاض هذه الحقيقة ".[٢] قلت وما ذهب إليه الرازي في أن (من) للتبعيض آكد في إفادة عموم النفي لأن تسبق أي أمة أجلها أو تستأخره.

ضياء الدين ابن الأثير صاحب المثل السائر (٥٥٨-٦٣٧هـ)

ذكر أن في معنى (ما) في قوله تعالى﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ۝١٥٩ ﴾(آل عمران)قولان أولهما أنها زائدة لا معنى لها أي فبرحمة من الله لنت لهم ثم قال: وهذا القول لا أراه صوابا وفيه نظر من وجهين أحدهما: أن هذا القسم ليس من المجاز، لأن المجاز هو دلالة اللفظ على غير ما وضع له في أصل اللغة، وهذا غير موجود في الآية، وإنما هي دالة على الوضع اللغوي المنطوق به في أصل اللغة. والوجه الآخر قال: أني لو سلمت أن ذلك من المجاز لأنكرت أن لفظة ما زائدة لا معنى لها، ولكنها وردت تفخيما لأمر النعمة التي لان بها رسول الله له وهي محض الفصاحة، ولو عرى الكلام منها لما كانت له تلك الفخامة وقد ورد مثلها في كلام العرب. ولا يعرف ذلك إلا أهله من علماء الفصاحة والبلاغة. ومن ذهب إلى أن في القرآن لفظا زائدا لا معنى له: فإما أن يكون جاهلا بهذا القول، وإما أن يكون

(١) الزمخشري ١/ ٦١٠

(٢) التفسير الكبير، ١٩/ ١٥٦

متسمحا في دينه واعتقاده، وقول النحاة إن (ما) في هذه الآية زائدة فإنما يعنون به أنها لا تمنع ما قبلها عن العمل، كما يسمونها في موضع آخر كافة أي أنها تكف الحرف العامل عن عمله، كقولك إنما زيد قائم فما قد كفت إن عن العمل في زيد، وفي الآية لم تمنع عن العمل ألا ترى أنها لم تمنع الباء عن العمل في خفض الرحمة.[١]

ويقول في موضع آخر: "أن هذه اللفظة لو كانت زائدة لكان ذلك قدحا في كلام الله تعالى، وذاك أنه يكون قد نطق بزيادة في كلامه لا حاجة إليها، والمعنى يتم بدونها، وحينئذ لا يكون كلامه معجزا، إذ من شرط الإعجاز عدم التطويل الذي لا حاجة إليه، وإن التطويل عيب في الكلام فكيف يكون ما هو عيب في الكلام من باب الإعجاز ؟ هذا محال".[٢]

الرافعي: مصطفى صادق الرافعي (ت ١٣٥٦ هـ)

صاحب (**إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**) ذكر في كتابه هذا مبحثا خاصا بالحروف وأصواتها وأضاف بهذا المبحث رأيا جديدا بين فيه فائدة للحروف التي زعم البعض أنها زائدة، وهذه الفائدة تتعلق بصوت الحرف وجرسه وأثر ذلك في نظم الكلام. يقول: " لما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، واستحال أن يقع في تركيبه ما يُسَوِّغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب، أو يجري مجرى الحشو والاعتراض، أو يقال فيه أنه تفوت أو

(١) المثل السائر، ابن الأثير، ١/ ٣٥٨.

(٢) المثل السائر، ابن الأثير، ٢/ ١٥٣.

استراحة، كما تجد ذلك في أساليب البلغاء، بل نُزِّلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة"[1]، ومن الأمثلة التي رد فيها الرافعي القول بالزيادة عند قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ (آل عمران) ذكر "أن النحاة يقولون إن ما زائدة ومقصود قولهم زائدة في الإعراب، فيظن من لا بصر له أنها كذلك في النظم ويقيس عليه مع أن هذه الزيادة لون من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإن المراد بالآية، تصوير لين النبي صلى الله عليه وسلم لقومه، وأن ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المدُّ في (ما) وصفا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفخمه وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يُبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق، ثم الفصل بين (الباء) الجارة ومجرورها (وهو لفظ رحمة) مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه، وذلك كله طبيعي في بلاغة الآية ".[2]

والذي أراه أن التحليل ليس وجها رئيسا في فائدة الحرف والغرض من ذكره، ولكنه وجه يمكن أن يضاف إلى الأوجه التي ذكرها المفسرون في فائدة هذا الحرف.

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص ١٨٠

(٢) إعجاز القرآن . ص ١٨٩-١٩٠

المبحث الثالث: مناقشة قضية زيادة الحروف في القرآن الكريم

من خلال استعراض هذه الأقوال أجد أننا أمام موقفين.

الأول: القول بوجود زوائد في القرآن الكريم، وأصحاب هذا القول لا يعنون بالزيادة اللغو بمعنى أن حذف الحرف أو زيادته سواء في المعنى، بل يعنون أنه زائد من ناحية الإعراب، وأنه لا يضيف معنى زائدا على المعنى الأصلي، والغرض من مجيئه تأكيد المعنى الأساسي.

الثاني: القول بعدم وجود حروف زائدة في القرآن الكريم لا من حيث الإعراب ولا من حيث المعنى، وهؤلاء ينكرون أن يجيء حرف من الحروف لمجرد التأكيد، بل يقولون بأن لكل حرف معنى تأسيسيا يفيده ولا مانع بعد ذلك من أن يفيد التأكيد.

ومن الجدير التنويه إليه أني لم أجد -فيما قرأت- من قال إن حرفا واحدا جاء في القرآن زائدا، بمعنى أنه لا يضيف أي معنى ولا حتى التأكيد؛ لأن هذا القول مناف لبلاغة القرآن وإعجازه، وهذا لا يقوله مسلم فضلا عن أن يقوله عالم من علماء المسلمين.

إذن أصبح محل الخلاف متعلقا بوجود حروف في القرآن اختلف العلماء حولها، فقال بعضهم إنها لم تفد معنى جديدا على الأصل، وإنما جاءت للتأكيد وعبروا عن هذا القول بالزيادة. وقال آخرون هذه الحروف أصيلة وتفيد معنى جديدا تأسيسيا لا يمكن الاستغناء عنها.

ولمناقشة فريقي الخلاف مناقشة موضوعية لا بد من مناقشة القضيتين

التاليين:

- هل يتناسب هذا القول مع طبيعة اللغة وطبيعة القرآن الكريم؟

هنالك قاعدة لغوية مهمة هي أن الأولى في حروف المعاني أن تدل على معان تأسيسية، لذلك عند تناول أي حرف في أي نص فالأولى أن يحمل على معناه الذي وضع له. يقول ابن الأثير: (ت ٦٣٧ هـ): "فائدة وضع الألفاظ أن تكون أدلة على المعاني، فإذا وردت لفظة من الألفاظ في كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة فالأولى أن تحمل تلك اللفظة على معنى".[١]

وعليه فإن مخالفة هذه القاعدة والقول بزيادة حرف في نص من النصوص خلاف الأولى. ويؤكد ذلك العلائي (ت ٧٦١ هـ) فيقول: " إن الحروف وضعت للمعاني، فذكرها بدون معناها يقتضي مخالفة الوضع، ويورث اللبس".[٢]

ولدراسة هذه القضية في القرآن الكريم لا بد من استحضار الحقائق التالية:

- القرآن الكريم كتاب الله أحكمت آياته يقول تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ (هود) وقد بلغ هذا الكتاب رتبة عالية البلاغة إلى حد لا يمكن قياسه.

- جاء القرآن الكريم على هذا النحو ليكون دليلا على صدق رسالة

(١) المثل السائر، ابن الأثير، ص ٢/ ١٥٢

(٢) الفصول المفيدة في الواو المزيدة، صلاح الدين خليل بن كيكلدي (العلائي)، ص ١٤٧

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي تحدى الله به الخلق جميعا إنسا وجنا فعجزوا عن الإتيان بمثله، فكان القرآن بهذا كتاب الله المعجز الذي لا يمكن لمخلوق مضاهاته:﴿ لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾الإسراء.

- إعجاز القرآن له وجوه أهمها والذي حصل به التحدي هو الإعجاز البياني وهو يعنى فيما يعنيه أن القرآن جاء على نحو من النظم يناسب تماما المعاني المقصودة منه وأن كل كلمة من كلماته وكل حرف من حروفه جاء في مكانه المناسب بحيث لا يمكن حذفه أو استبداله مع بقاء المعنى على حاله.

- وعليه فالأصل أن كل حرف من القرآن جاء في مكانه ولا يمكن أن يستغنى عنه، ولا يصح ادعاء زيادته أو قصر فائدته على التأكيد فحسب، لأن هذا تجريد للحرف من فائدته الأصلية. يقول الرازي: " إن الله تعالى وصف القرآن بكونه هديا وبيانا، وكونه لغوا ينافي ذلك".[(١)]ويرى أنه لا يوجد حرف في القرآن ولا كلمة إلا وله فائدة، وأن العقول البشرية قد تدرك هذه الفائدة وقد لا تدركها، فإن لم تدركها ينبغي أن يفوض أمرها إلى الله لا أن يقول بالزيادة.[(٢)]

وههنا أضيف قضية مهمة هي أن المفسر حتى يتجنب ادعاء الزيادة في القرآن الكريم لا بد له من أمور:

أ- ضرورة فقه معاني الحروف.

---

(١) الرازي، ٢/ ١٣٥

(٢) سبق التفصيل في قوله في مبحث المانعين للزيادة.

ب-النظر إلى السياق لإدراك معاني هذه الحروف.

ج- الاستعانة بأدوات التفسير لتأويل ما ظاهره الإشكال فيما يتعلق ببعض الحروف التي جاءت على غير صورتها الأصلية.

إذن نقرر بعد هذا أن فكرة زيادة الحروف في الكلام ليست مناسبة لا في اللغة عموما، ولا في القرآن الكريم من باب أولى

وبعد مناقشة القضية من خلال المحورين السابقين من حيث اللغة ومن حيث طبيعة القرآن الكريم، تقرر لدي أن القول بالزيادة خلاف للأصل في اللغة إذ الأصل أن يفيد كل حرف معنى تأسيسا، وبما أن الأمر كذلك فلا بد بعد ذلك من دراسة الأسباب التي دفعت بعض علمائنا الأجلاء إلى القول بزيادة بعض الحروف لنتبين أهي وجيهة تبرر مذهبهم أم موهومة تضعف متعلقهم؟ وسأحاول إن شاء الله أن تكون هذه الدراسة موضوعية دقيقة.

المبحث الرابع: دوافع القول بزيادة الحروف في القرآن

إن من قالوا بزيادة الحروف في القرآن الكريم من جهابذة اللغة والتفسير، وهؤلاء لم يقولوا ما قالوه جزافا بل لأسباب وهموا أنها جديرة لتحملهم على قول ما قالوه ومن هذه الأسباب:

١- جعل القاعدة النحوية هي الأصل، وتطبيقها على آيات القرآن.

ومن الجدير بالذكر هنا أن اللغة المحكية بين الناس سابقة للقواعد التي قعدها العلماء، وأن هذه القواعد المصاغة إنما صيغت من خلال استقراء اللغة وهذا يعني أن الأصل هو اللغة والفرع القواعد، وهذه القواعد إنما وضعت لضبط الكلام وصيانة اللغة من اللحن، وهذا أمر حسن، لكن الذي لا ينبغي أن تتخذ هذه القواعد للتحكم في النصوص العربية الأصلية التي كانت قبل أن تكون هذه القواعد، وهذه قضية خطيرة دفعت بعض العلماء إلى رد قراءات متواترة كما دفعتهم إلى القول بزيادة حروف في القرآن وقصرها على إفادة التأكيد.[1]

ومن الأمثلة على محاكمة هؤلاء القرآنَ بقواعدهم النحوية أن الفراء اعتبر الواو في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴿١٥٢﴾﴾ (آل عمران) زائدة[2]؛ لأن قواعدهم تجيز أن تأتي الواو زائدة. ولما نظر الفراء هنا إلى الواو ولم يجد لها معنى حكم بزيادتها بناء على قاعدته، وهذا تحكم في

---

(١) لطائف المنان وروائع البيان، في دعوى الزيادة في القرآن و فضل حسن عباس، ص ٩٢

(٢) معاني القرآن، الفراء، ١/ ٢٣٨

النص لا مسوغ له، ولو أن الفراء أمعن النظر في معنى الواو وتحرر من سلطة قواعد النحو، لوجد أنها يمكن أن تكون عاطفة، عطفت التنازع على الفشل، وعليه فإن متعلق إذا محذوف تقديره مثلا منعكم نصره، وهذا ما ذهب إليه الزمخشري حيث قال: " فإن قلت: أين متعلق (حتى إذا) قلت: محذوف، تقديره: حتى إذا فشلتم، منعكم نصره".[١] وعليه فإن معنى الآية حتى إذا فشلتم وتنازعتم منعكم الله نصره.[٢]

٢- قياس آية من القرآن الكريم على أخرى.

فقد تأتي آيتان ظاهرهما التشابه فيزاد في واحدة حرف ليس في الأخرى فيُظَن أن هذا الحرف زائد[٣] ومثال ذلك قاله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴿٧١﴾ ﴾ (الزمر) في سياق الحديث عن الكافرين، مع قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ ﴾ (الزمر).[٤] في سياق الحديث عن المؤمنين حيث زيد حرف الواو على الآية الثانية لمعنى دقيق هو أن المؤمنين يجيئون الجنة وأبوابها مفتوحة مستعدة لاستقبالهم وهذا تكريم لهم، يقول أبو حيان: "إن أبواب الأفراح تكون مفتوحة لانتظار أن تجيء إليها بخلاف أبواب السجون".[٥] أما الكافرين فيجيئون إلى النار وأبوابها مغلقة وفي ذلك إهانة لهم بالإضافة

(١) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٢٧

(٢) لطائف المنان وروائع البيان، في دعوى الزيادة في القرآن و فضل حسن عباس، ص ٩٢

(٣) لطائف المنان، فضل عباس، ٩٣

(٤) قال بزيادتها الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٦٣

(٥) البحر المحيط. أبو حيان، ٩/ ٢٢٤- ٢٢٥

إلى الفجأة التي تزيد من هول العذاب، يقول ابن عاشور تفتح أبواب جهنم وقد كانت مغلقة لتفتح في وجوههم حين مجيئهم فجأة تهويلاً ورعباً.[1]

٣- تصور معنى معين في الآية أو إعراب ثم تأويلها والقول بالزيادة لتقرير هذا المعنى أو الإعراب.[2]

وهذا مخالف لشروط التفسير فالأصل أن يكون ذهن من يتصدى لتفسير القرآن متجردا وموضوعيا، يقبل على القرآن بذهن خال من المقررات المسبقة التي تؤثر عليه تأثيرا سلبيا وتمنعه من الوصول إلى الحقائق المطلقة.

فمثلا في قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴿٦١﴾﴾(البقرة) يظن بعض القائلين بالزيادة أن كلمة (باءوا) بمعنى استحقوا، واستحق لا تتعدى بالباء فيزعم بعد هذا التقرير المسبق أن الباء زائدة، والمعنى عندهم استحقوا غضبا[3]، وهذا القول بعيد عن السياق يزيده بعدا الزعم بزيادة الباء. والصواب أن الباء تأتي على معان كثيرة كلها أقوى من القول بالزيادة منها أن باءوا بمعنى رجعوا والباء هنا للمصاحبة أي مصحوبين بغضب الله.[4]

٤-إهمال المأثور من التفسير وإهمال سياق الآيات.

ومثاله قولهم إن الباء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴿١٩٥﴾﴾(البقرة)

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٤/ ١٣٥

(٢)لطائف المنان، فضل عباس، ٩٤- ٩٥

(٣)نقل هذا القول الرازي في تفسيره ٣/ ١٠٢

(٤)ذهب إلى ذلك الطبري، ١/ ٣٦٤

زائدة، ومعنى الآية ولا تلقوا أيديكم إلى التهلكة.[١] وهذا التفسير فيه تجاهل للمأثور والسياق؛ ذلك لأن المقصود ليس النهي عن إلقاء اليد في التهلكة، إنما المقصود لا تجعلوا أيديكم سببا للإلقاء في التهلكة. فالآية تقول: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (البقرة) واليد يعبر بها عن إعطاء المال وعن منعه يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الإسراء) وعليه فإن معنى الآية أنفقوا وجاهدوا ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة فتكون أيديكم التي منعت الإنفاق سببا في هلاككم.[٢]

وسبب نزول الآية يؤكد هذا المعنى حيث جاء فيه عن أسلم أبي عمران قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو فقال الناس: مه مه، لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأظهر الإسلام قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (البقرة)، فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد، قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية.[٣] وعليه تكون

---

(١) اختار القول بالزيادة الزمخشري في الكشاف، ١/ ٢٣٧

(٢) لطائف المنان، فضل عباس، ١٠٣- ١٠٤

(٣) سنن أبي داود كتاب: كتاب الجهاد باب: باب في قوله عز و جل و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة رقم الحديث: ٢٥١٢ ج: ٢ ص: ١٦

(الباء) سببية وهو ما ذهب إليه الراغب[1]، وأبو حيان.[2]

٥- إهمالهم لأسلوب التضمين الذي ينفي القول بالزيادة في كثير من المواضع.

وهو أن تتضمن الكلمة معنى آخر أفادته التعدية دون أن تخرج هذه الكلمة عن معناها الأصلي، وهذا أولى وأقوى من القول بالزيادة ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (النمل) قالوا بزيادة اللام في لكم والمعنى عندهم ردفكم أي تبعكم بعض الذي تستعجلونه وهو العذاب.[3] والأولى أن يضمن الفعل ردف معنى يتعدى باللام كأن يقال: دنا وقرب وهذا جائز وأولى من القول بزيادة اللام.[4]

وقد نقل هذا القول الطبري مرجحا له حيث قال: " قال بعض نحويي الكوفة: أدخل اللام في ذلك المعنى، لأن معناه: دنا لهم وهذا القول هو أولاهما عندي بالصواب ".[5]

---

(١) المفردات، لراغب، ٧٠-٧١

(٢) أبو حيان، ٢/ ٢٥٢- ٢٥٣

(٣) قال بزيادتها ابن الأنباري في البيان في غريب إعراب القرآن، ٢/ ٢٢٧

(٤) لطائف المنان، فضل عباس، ٩٧، وانظر ١٤٦

(٥) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ١٥

الفصل الثاني
دراسة تطبيقية لمواضع قيل فيها حروف زائدة

أمثلة على مواضع قالوا فيها حروف زائدة

ناقشت فيما سبق قضية زيادة الحروف في القرآن الكريم من خلال ثلاثة محاور:

الأول: إمكان الزيادة من حيث اللغة.

الثاني: إمكانها في القرآن الكريم من حيث طبيعته.

الثالث: مناقشة الأسباب التي دفعت إلى القول بالزيادة وردها.

بقي هنا محور واحد لا بد من دراسته لاستكمال متعلقات هذه القضية وهو دراسة مواضع من القرآن الكريم قالوا إن فيها حروفا زائدة، لنتبين من ذلك ما إذا كانت زائدة كما قالوا أم لها معنى أصيلا أضافته، ولكنهم لم يهتدوا إليه فقالوا بالزيادة.

أسوق هنا هذه الأمثلة إضافة إلى للأمثلة التي ذكرتها في الدراسة النظرية وناقشتها وبينت الموقف من القول بالزيادة فيها.

أولا: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ (الشورى)

لما نظر أهل العلم في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ (الشورى) ورأوا اجتماع (الكاف) التي للتشبيه مع (مثل) التي هي للتشبيه أيضا، ظنوا أن اجتماعهما في هذه الآية يفضي إلي المحال عقلا وشرعا، وقالوا: إن التعبير على ظاهر الآية يقتضي نفي الشبيه عن مثل الله، وعليه

فالمعنى ليس يشبه مثل الله شيء وهذا محال؛ لأن نفي الشبيه عن مثل الله يتضمن التسليم بوجود مثل له سبحانه وهذا كفر بلا خلاف. لذلك فروا من هذا المحال وتأولوا الآية على أن هنالك حرفا زائدا. هو (الكاف) على قول[١]، أو (مثل) على قول آخر[٢].

وقد جمع صاحب الدر المصون الأقوال التي تفضي إلى الزيادة فذكر أن الكافَ قد تكون زائدة في خبرِ ليس، و(شيءٌ) اسمُها. والتقدير: ليس شيءٌ مثلَه. وهذا التأويل عند أصحابه اضطراري إذ لولا ادِّعاءُ زيادتِها لَلَزِمَ أَنْ يكونَ لله مِثْلٌ. وهو مُحالٌ؛ إذ يَصيرُ التقديرُ على أصالةِ الكاف: ليس مثلَ مثلِه شيءٌ، فنفى المماثلةَ عن مثلِه، فثبَتَ أنَّ له مثْلاً، لا مثلَ لذلك المَثَلِ، وهذا مُحالٌ، وفيه تناقضٌ؛ لأنَّه إذا كان له مِثْلٌ فلِمِثْله مِثْلٌ وهو هو، مع أنَّ إثباتَ المِثْلِ لله تعالى مُحالٌ. ثم نقل قولا آخر وهو القول بزيادة مِثْل، وهو من حيث الدوافع والنتيجة مثل السابق.[٣]

قلت سواء كان هذا أو ذاك فالمعنى يصبح بعد ذلك ليس مثل الله شيء أو ليس كالله شيء، ومجيء الكاف أو المثل هنا للتوكيد وبذلك ينتفي المحال، ولعل هذا سبب وجيه عند من قالوا بذلك جوز لهم القول بالزيادة.

لكن السؤال الأهم هنا هل من طريقة لتأويل هذه الآية تخرجنا من

(١) ذهب إلى ذلك ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص ١٥٧

(٢) نقل هذا القول الطبري، ٢٥/ ١٨

(٣) الدر المصون، السمين الحلبي، ١٢٤/ ٦

الإشكالين معا إثبات مثل لله أو إثبات الزيادة في القرآن الكريم؟ والجواب نقرره بعد استعراض باقي أقوال العلماء ممن منعوا القول بالزيادة وأهم هذه الأقوال:

١- ذهب فريق من العلماء إلى نفي المحال المتوهم مع إثبات أصالة الحرفين في الآية، بحمل المثل على معنى أخرى غير معناه الظاهر هو الصفةُ، وذلك أنَّ المِثْلَ بمعنى المَثَلَ والمَثَلُ الصفةُ، كقولِه تعالى: (مَّثَلُ الجنة)(الرعد:٣٥) فيكونُ المعنى: ليس مِثْلُ صفتِه تعالى شيءٌ من الصفات التي لغيرِه[١]، وفي هذا تنبيه على أنه وإن وصف بصفات قد يوصف بها البشر إلا أنه ليس في صفاتهم ما يشبه صفته سبحانه.

٢- ذهب فريق إلى أنه لا زيادة في الآية، وأن معنى الكاف والمثل على أصليهما وهو الشبه والمماثلة كما قال الفريق السابق لكن هؤلاء منعوا المحال في الآية بإحدى طريقتين.

الأولى: قالوا إن المقصود من هذه الآية نفي المماثلة وما يشبه المماثلة كأنه قال: ليس هنا شيء يشبه أن يكون مثلا لله فضلا عن أن يكون له على الحقيقة، وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، نحو قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا** ﴿٢٣﴾﴾(الإسراء)، نهيا عن الأذى اليسير صراحة، وعن نفي ما فوقه من باب أولى، والتعبير على هذا النحو أقوى من القول: ليس مثله شيء لأن هذا نفي للمثل المكافئ ولو جاء النظم على هذا النحو لتوهم

(١) الدر المصون، السمين الحلبي،١٢٤/ ٦

متوهم أن هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها، فأراد الله من هذا النظم أن ينفي المثل التام والمقارب.

الثانية: أن يكون المقصود نفي الشبيه، مع تقديم الحجة والبرهان على ذلك، وهذا الأسلوب على نحو قولهم: مثلك لا يكذب. وليس المقصود نفي الكذب عن مثل المخاطب بل المقصود نفي الكذب عن المخاطب نفسه، مع تقديم دليل على ذلك وهو أن من يكون بهذه الصفة لا يمكن أن يكذب. وعليه يكون معنى الآية: مثل الله تعالى لا يكون له مثيلا لما يتصف به من صفات الكمال.[١] وقريب من هذا قولهم إن المراد من مثله: ذاته كما في قولِهم مثلُكَ لا يفعلُ كَذا بقصدِ المبالغةِ في نفيهِ عنهُ فإنَّه إذا نُفيَ عمَّن يناسبُه كانَ نفيُه عْنهُ أَولى [٢].

قلت وهذا توجيه وجيه، وأقل وعورة من القول الأول، ولعل أيسر الطريقين فهما وأدقهما معنى هي الطريقة الثانية ودقتها في أنها استبعدت القول بالزيادة في القرآن، وقدمت للحرف معنى دقيقا عميقا أفاد النظم معنى جيدا جديرا.

وهذا ما ذهب إليه الزمخشري حيث قال: " قالوا مثلك لا يبخل، فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريقة الكناية؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده، وعمن هو على أخص

(١) النبأ العظيم. ١٣٣-١٣٤

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم، أبو السعود، ٦/ ٧٦

أوصافه فقد نفوه عنه ".[١]

ومن الجدير بملاحظتة هنا أن الزمخشري ممن يرتضون القول بالزيادة في القرآن، وهو بالرغم من ذلك لا يقبل القول به في هذه الآية، مما يدل على أن القائلين بالزيادة لم يتفقوا في قولهم على الزيادة في موضع واحد من القرآن، فما قاله ابن قتيبة حول زيادة الكاف هنا[٢] رده الزمخشري، وما قاله الزمخشري حول زيادة حرف في موضع آخر رده غيره، وفي كلٍ يستنبط الذي يمنع الزيادة معاني عديدة يحمل الحرف عليها ويتجنب القول بالزيادة وما ذكرت من أمثلة في هذا البحث يؤكد ذلك.

والى ما ذهب إليه الزمخشري ذهب الشهاب في حاشيته على البيضاوي حيث يرى أن قولنا ليس كذاته شيء وقولنا ليس كمثله شيء عبارتان بمعنى واحد، وهو نفي المماثلة عن ذاته، لكن الأولى بصريح العبارة والثانية بالكناية المشتملة على مبالغة هي أن المماثلة منفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه، وهذا لا يستلزم وجود (المثل)، إذ الغرض المبالغة.[٣]

٣- ذهب فريق إلى أن لا ضرورة للقول بزيادة أحد الحرفين لأن المحال الذي ذكروه غير وارد لا نصا ولا احتمالا " لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضا وذلك أنه لو كان هناك مثل لله لكان لهذا المثل مثل

(١) الزمخشري، ٤/ ٢١٧ وأبو حيان، ٩/ ٣٢٦

(٢) تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة، ٢٥٠

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي، ٨/ ٣٣٧-٣٣٨

قطعا وهو الإله الحق، فإن كل متماثلين يعد كل منهما مثلا لصاحبه إذا لا يتم انتفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل وهو المطلوب".[١]

قلت: هذا توجيه فيه من الوعورة ما في أدلة الفلاسفة، ومعلوم أن القرآن الكريم جاء على نحو مخالف لطريقتهم وأدلتهم، إذ فيه أدلة وحجج متينة تفوق حجج الفلاسفة، مع ما امتازت به من سهولة النظم ووضوح المعاني وبعدها عن التعقيد.

كما أنه مع هذا التوجيه لا يظهر لورود حرفي التشبيه أي فائدة، ولعل هذا يفضي بالنهاية إلى ما أفضى إليه القول بالزيادة.

وهذا ما ذهب إليه دراز حيث قال: " وقصارى هذا التوجيه _لو تأملته _ أنه مصحح لا مرجح، أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف، لكنه لا يثبت فائدة، ولا يبين مسيس الحاجة إليه. ألست ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤداه بدونه سواء، وأنه إن كان قد ازداد به شيئا فإنما ازداد شيئا من التكلف والدوران؟"[٢]

قلت هذه وجوه ثلاثة أقواها عندي الثاني كما بينت ولكنها جميعا محتمله والقول بأي منها أوجه واسلم من القول بالزيادة.

ثانيا: الآيات التي أمر الله بها الملائكة وإبليس بالسجود لآدم

من المواضع التي قيل فيها بزيادة حروف الآيات التي أمر الله فيها الملائكة وإبليس بالسجود لآدم، وهذه الآيات هي:

(١) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ١٣٢

(٢) النبأ العظيم، ١٣٢

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (البقرة)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (الأعراف)

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الحجر)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (الإسراء)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ (الكهف)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾ (طه)

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (ص)

من خلال دراسة موقف العلماء من هذه الآيات نجد أنهم اختلفوا في حرفين هما (إذ) و(لا) في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (الأعراف) وسأتناولهما الآن بالدراسة والتحليل.

أولا: (إذ)

شذ أبو عبيدة عن جمهور العلماء المجيزين للقول بالزيادة والمانعين لها فقال بزيادة (إذ) في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ (البقرة: ٣٤، الكهف: ٥٠، طه: ١١) حيث ذكر في كتابه معاني القرآن في

باب مجاز ما يزاد في الكلام بعضا من حروف الزوائد وعد منها (إذ) وقال بعد أن ساق هذا الحرف " مجاز هذا أجمع إلقاؤهن".[١] وهو يقصد بقوله هذا أنها زائدة.

وتبعه في قوله هذا ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن.[٢] وخالفهما بهذا القول أكثر العلماء سواء المانعون للزيادة والمجيزون لها، أما من المانعين فقد رد قولهما الطبري وقال:"(إذ) حرف يأتي بمعنى الجزاء، ويدل على مجهول من الوقت، وغير جائز إبطال حرف كان دليلا على معنى في الكلام ".[٣]

ثم استنبط الطبري الغرض في هذا الحرف مستعينا بالسياق فيقول: " لو أبطلت (إذ) وحذفت من الكلام، لاستحال عن معناه الذي هو به، وفيه (إذ)، فإن قال لنا قائل: فما معنى ذلك؟ وما الجالب لـ (إذ)، إذ لم يكن في الكلام قبله ما يعطف به عليه؟ قيل له: قد ذكرنا فيما مضى: أن الله جل ثناؤه خاطب الذين خاطبهم بقوله:﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾(البقرة) بهذه الآيات والتي بعدها، موبخهم مقبحًا إليهم سوء فعالهم ومقامهم على ضلالهم، مع النعم التي أنعمها عليهم وعلى أسلافهم؟ ومذكرهم بتعديد نعمه عليهم وعلى أسلافهم ألا يسلكوا سبيل من هلك من أسلافهم في معصيته، فيسلك بهم سبيلهم في عقوبته؟ ومعرفهم ما كان منه من تعطفه على التائب منهم استيعاباً منه لهم. فكان مما عدد من نعمه

(١) مجاز القرآن، أبو عبيدة، ١/ ١١.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص ١٥٨.

(٣) الطبري ١/ ٢٢٤.

عليهم أنه خلق لهم ما في الأرض جميعًا، وسخرلهم ما في السموات من شمسها وقمرها ونجومها، وغير ذلك من منافعها التي جعلها لهم ولسائر بني آدم معهم منافع. فكان في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (البقرة) معنى: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، إذ خلقتكم ولم تكونوا شيئًا، وخلقت لكم ما في الأرض جميعًا، وسويت لكم ما في السماء. ثم عطف بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة) على المعنى المقتضى بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴿٢٨﴾﴾ (البقرة)، إذ كان مقتضيًا ما وصفت من قوله: اذكروا نعمتي إذ فعلت بكم وفعلت، واذكروا فعلي بأبيكم آدم إذ قلت للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة". [1]

وكلام الطبري هذا يمكن أن يستنبط منه سبب من أسباب القول بالزيادة وهو: إهمال السياق كما ذكرت في الدراسة النظرية.

وممن رد على أبي عبيدة قوله بالزيادة ممن أجازوا وقوعها في القرآن أبو حيان. حيث يرى أنها ظرف زمان للماضي، [2] وابن عطية حيث نقل قول الجمهور في أنها ليست زائدة بل معطوفة على إذ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة)، وقال: هي ليست زائدة وإنما معلقة بفعل مقدر تقديره واذكر. [3] وعليه تكون فائدة إذ هنا ربط

(١) الطبري ١/ ٢٢٤

(٢) أبو حيان، ١/ ٢٢٢

(٣) المحرر الوجيز، أبو عطية، ٥/ ٢٢٥ – ٢٢٦

السياق ببعضه على معنى اذكر إذ أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، وعليه فالقول بزيادتها شاذ مردود.

ثانيا: (**لا**)

في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴿١٢﴾﴾ (الأعراف) ذهب بعض العلماء إلى القول بزيادة (لا) لإشكال ظهر لديهم هو أن ظاهر الآية سؤال إنكاري من الله لإبليس لامتناعه عن ترك السجود لأن صيغة الكلام (ما منعك) أن (لا تسجد) أي ما منعك من عدم السجود، وعلى هذا التأويل يكون إبليس قد سجد لآدم والله أنكر عليه ذلك وسأله عن المانع الذي منعه من ترك السجود، وهذا المعنى يتعارض مع الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ (لأعراف). وفي موضع آخر من القرآن الكريم جاء أن الله أمر إبليس بالسجود ولكن إبليس امتنع عن السجود فأنكر الله عليه ذلك، وهذا الموضع قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (الحجر)

والإشكال هنا في تعارض ظاهر الآيتين من سور الحجر فواحدة الظاهر منها أن إبليس كان مأمورا بالسجود ولكنه ترك السجود فلامه الله على ذلك، والأخرى كان فيها إبليس مأمورا بترك السجود ولكنه سجد فلامه الله على ذلك، وهذا الإشكال لمحة الطبري فعبر عنه بقوله: " فإن قال قائل بصيغة السؤال أخبرنا عن إبليس ألحقته الملامة على السجود أم على ترك السجود؟ فإن تكن لحقته على ترك السجود فكيف قيل له: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا

تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴿١٢﴾ ﴾(الأعراف)، وإن كان النكير على السجود، فذلك خلاف ما جاء في التنزيل في سائر القرآن، وخلاف ما يعرفه المسلمون".[1]

ولإزالة هذا الإشكال ذهب فريق إلى القول بزيادة (لا) في هذا الموضع منهم أبو عبيدة حيث قال: " مجازه: ما منعك أن تسجد، والعرب تضع (لا) في موضع الإيجاب، وهي من حروف الزوائد".[2]

وابن قتيبة يعلل القول بالزيادة بأن إبليس لم يسجد[3] فكيف يسأل عن امتناعه عن ترك السجود وهو لم يسجد أصلا. والى مثل ذلك ذهب الزجاج[4] والزمخشري[5] والبيضاوي[6] وقالوا إن الغرض من الزيادة التأكيد وكأنه قيل: ما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك.

والذي أراه قبل ذكر أقوال الفريق الآخر أن الإشكال الذي ذكروه حاصل فعلا أما قولهم إن الحرف زائد للتوكيد فهو فيما أرى بعيد. خصوصا وأن باب التأويل مفتوح لحل هذا الإشكال بوجوه قوية وجهيه دون الوقوع في محذور القول بالزيادة في القرآن، ومن هذه التوجيهات التي ذكرها العلماء.

الأول: تقدير محذوف نحو ما منعك من السجود فأحوجك أن لا تسجد

(١) الطبري ٨/ ١٥٤

(٢) مجاز القرآن، أبو عبيدة، ١/ ٢١١

(٣) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص ١٥٤

(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ٢/ ٣٢٢

(٥) الزمخشري، ٢/ ٨٩

(٦) البيضاوي انظر حاشية الشهاب ٤/ ٢٥٤

وهذا ما ذهب إليه الطبري حيث قال: "في الكلام محذوف قد كفى دليل الظاهر عنه وهو أن معناه: ما منعك من السجود فأحوجك ألا تسجد فترك ذكر أحوجك استغناء بمعرفة السامعين.[١]

الثاني: أن المنع بمعنى القول وعليه فمعنى الكلام من قال لك لا تسجد إذ أمرتك.[٢]

الثالث: أن المنع بمعنى دعاك أي ما دعاك إلى أن لا تسجد.[٣]

الرابع: أن المنع مجاز عن الاضطرار والمعنى ما اضطرك لأن لا تسجد.[٤]

الخامس: أن معنى ما منعك: ما حماك وجعلك في منعة مني في ترك السجود.[٥]

وبالنظر إلى مجموع هذه الأقوال نجد أنها جاءت ضمن احتمالات:

- **الأول**: تقدير محذوف.
- **الثاني**: تضمين الفعل (**منعك**) معنى آخر نحو حملك أو دعاك.
- **الثالث**: أن الفعل منعك فيه مجاز ولا يراد به الحقيقة ومجازه هنا أن يحمل الفعل على معنى اضطرك أو حملك أو دعاك. وهذا القول بالنتيجة لا يختلف عن سابقه.

---

(١) الطبري،٨/ ١٥٤، وابن عطية ٥/ ٤٤١

(٢) نقله الطبري ٨/ ١٥٤

(٣) الرازي، ١٤/ ٢٠٧

(٤) الشهاب في حاشيته على البيضاوي، ٤/ ٢٥٤

(٥) نقله عن الراغب القزويني في الإيضاح ص ٣١٧

- **الرابع**: وهو أن معنى منعك أي جعلك في منعة مني في ترك السجود.

وهنا يمكن أن يعترض على القول الثاني وهو تضمين الفعل منع معنى (دعا وحمل). والاعتراض هو أن شرط التضمين أن تضمن الكلمة معنى كلمة موافقة لها[1] وهنا المعنيان متضادان.

أما القول الثالث وهو حمل الكلام على المجاز فسيكون في الكلام بناء عليه مجاز مرسل علاقته الضدية. وهذا القول فيما أرى بعيد فكيف يحمل الفعل على معنى ضده وما المسوغ لذلك، بل إن هذا يفتح بابا في التفسير خطيرا لا تؤمن عواقبه لأن حمل الفعل على معنى ضده يجوز لنا ذلك في غير هذا من الأفعال الواردة في القرآن، كما أنه لا يخفى أن الأصل القول بالحقيقة. ولا يصار إلى المجاز إلا بمسوغ وقرينة وهما هنا منتفيان.

أما القول الرابع فيمكن الاعتراض عليه، بأن هذا التأويل لا يستقيم في آية (ص) ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ (ص).

يبقى من بين هذه الأقوال الأول وهو ما ذهب إليه الطبري، وعليه يكون الغرض من الآية السؤال عن الذي أحوج إبليس لأن لا يسجد. ويبقى لإزالة الإشكال وبيان انسجام القرآن وتناسقه مع بعضه أن نبين الفرق بين السؤال الوارد في سورة الأعراف ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴿١٢﴾﴾ (الأعراف) والسؤال في سورة ص: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴿٧٥﴾﴾ (ص) وبيان ذلك

---

(١) ذكر الاعتراض علي العماري في معال له في مجلة الأزهر ونقله عنه فضل حسن عباس في لطائف المنان ص ٢٣٣.

"أن تبكيت الله لإبليس حينما امتنع عن السجود جاء في ثلاثة مواضع في سورة ص: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (ص) وفي سورة الأعراف: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ ﴿١٢﴾ ﴾ (الأعراف) ثم في سورة الحجر: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الحجر)، ونحن نجد أن هذه الأسئلة الثلاثة لكل منها مورده الخاص به، فلا ينبغي أن تحمل على شيء واحد.

آية (ص): ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (ص) هي سؤال عن المانع من السجود، وفي الأعراف: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ ﴿١٢﴾ ﴾ (الأعراف) فليس من الحكمة البيانية التي عرفناها أن نحمل هذه الآية على ما حملنا عليه الآية السابقة وأن يكون السؤال عن المانع من السجود.

إذا لا بد من محمل آخر للآية الكريمة فإذا كان السؤال في سورة (ص) عن المانع من السجود فإن السؤال في سورة الأعراف ينبغي أن يكون عن الحامل على ترك السجود، ولهذا جاء في آية (ص) قوله سبحانه ﴿ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (ص) لا يقال أن الأمرين شيء واحد فقد يكون المانع غير الحامل على تركه.

بقيت سورة الحجر كان السؤال فيها مغايرا لما جاء في السورتين السابقتين فلم يسأل: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (ص) كما في سورة ص، أو: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ ﴿١٢﴾ ﴾ (الأعراف) كما في سورة الأعراف، وإنما سئل: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الحجر) ونظر في هذه الآية

الكريمة إلى مخالفته للساجدين الذين كان معهم من.[(١)]

ثالثا: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴿١٥٩﴾ ﴾(آل عمران)

اختلف المفسرون في (ما) في هذه الآية فقال بعضهم زائدة[(٢)] ومنهم الزجاج ولم يكتف بهذا الحكم بل زعم الإجماع على ذلك. حيث يقول: " (ما) بإجماع النحويين صلة لا تمنع الباء من عملها فيما عملت، والمعنى فبرحمة من الله لنت لهم، إلا أن (ما) قد أحدثت بدخولها توكيد المعنى".[(٣)]

والى نحو ذلك ذهب ابن عطية وقال: " معناه فبرحمة من الله و(ما) قد جردت عنها معنى النفي ودخلت للتأكيد، وهي ليست بزيادة على الإطلاق لا معنى لها، وأطلق عليها سيبويه اسم الزيادة من حيث زال عملها ".[(٤)]

ومن خلال مطالعة أقوال القائلين بزيادتها يظهر أن قولهم بالزيادة مقيد في محلها من الإعراب وهذا ما صرح به ابن عطية.

وقبل نقل رأي المانعين للزيادة أنوه إلى أن نقل الزجاج لإجماع أهل النحو على أن ما صله غير مسلم لذا اعترض عليه الألوسي في هذا القول، ونقل قولا للأخفش خلاف ذلك مما ينفي الإجماع على زيادة (ما) في هذا

(١) لطائف المنان، فضل عباس، ص ٢٣٤

(١) ممن قال بزيادتها الزمخشري، ١/ ٤٣١ و أبو حيان ٣/ ٤٠٧ وابن عطية ٣/ ٣٩٥

(٢) معاني القرآن الكريم وإعرابه، الزجاج، ١/ ٤٨٢

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ٣٩٥

الموضع.[١]

والذين قالوا بأصالة (ما) في موضعها هنا اختلفوا في معناها على أقوال أهمها.

١- أن تكون ما استفهاما للتعجب تقديره فبأي رحمة من الله لنت لهم، وممن قال بذلك الرازي، وعلل ما ذهب إليه " بأن جنايتهم لما كانت عظيمة ثم إنه ما أظهر ألبتة ، تغليظا في القول ، ولا خشونة في الكلام ، علموا أن هذا لا يتأتى إلا بتأييد رباني وتسديد إلهي ، فكان ذلك موضع التعجب من كمال ذلك التأييد والتسديد ، فقيل : فبأي رحمة من الله لنت لهم".[٢] غير أن أبا حيان أنكر عليه ذلك من حيث الإعراب لا المعنى.[٣]

٢- أنها نكرة بمعنى شيء ورحمة بدل منها أو صفة لها، وممن قال بذلك الألوسي.[٤]

أما الطبري فقد اختلفت كلمته في الحكم على (ما) في هذه الآية فذكر عند تفسيره الآية ما نصه: " يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴿١٥٩﴾ ﴾(آل عمران) ، فبرحمة من الله، وما صلة. وقد بينت وجه دخولها في الكلام في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴿٢٦﴾ ﴾ (البقرة). والعرب تجعل ما صلة في المعرفة والنكرة، كما قال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم

(٤) روح المعاني، الألوسي، ٤ / ٤٣٣

(١) الرازي. ٩/ ٦٢-٦٣

(٢) أبو حيان، ٣/ ٤٠٧

(٣) الألوسي، ٤/ ٤٣٣

﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾(النساء:١٥٥ -المائدة:١٣)، والمعنى: فبنقضهم ميثاقهم. وهذا في المعرفة. وقال في النكرة ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾ (المؤمنون)، والمعنى: عن قليل وربما جعلت اسماً وهي في مذهب صلة، فيرفع ما بعدها أحياناً على وجه الصلة، ويخفض على إتباع الصلة ما قبلها"[١]

وعند تفسيره قوله تعالى:﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾ (البقرة) قال: "قال بعضهم: هي زائدة لا معنى لها، وإنما تأويل الكلام: فقليلاً يؤمنون، كما قال جل ذكره ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۝١٥٩﴾(آل عمران) وما أشبه ذلك، فزعم أن ما في ذلك زائدة، وأن معنى الكلام: فبرحمة من الله لنت لهم. وأنكر آخرون ما قاله قائل هذا القول في ما... وقالوا: إنما ذلك من المتكلم على ابتداء الكلام بالخبر عن عموم، جميع الأشياء، إذ كانت ما كلمة تجمع كل الأشياء، ثم تخص وتعم ما عمته بما تذكره بعدها. وهذا القول عندنا أولى بالصواب، لأن زيادة ما لا يفيد من الكلام معنى في الكلام، وغير جائز إضافته إلى الله جل ثناؤه".[٢]

والمتتبع لكلام الطبري يجد أنه ينكر القول بالزيادة في مواضع كثيرة قيل فيها بالزيادة، غير أنه هنا يقول بزيادة (ما) في هذه الآية، ولعل ذلك إشارة إلى أنه يجوِّز القول بالزيادة من حيث المبدأ، لكنه لا يقول به إلا إذا تعذَّر حمل الحرف على معنى أصيلا.

---

(١) الطبري، ٤/ ١٩٠

(٢) الطبري ١/ ٤٧١

وهنا أشير إلى قول آخر في معنى (ما) ركز على وقعها الصوتي ووصفها اللفظي وتأثيرها الذي يجعلها أنسب للسياق يرى أصحابه أن هذه الحروف جاءت لغرض لفظي يتعلق بجرس الكلام والأثر الصوتي للحرف، وممن قال بذلك السيوطي حيث يرى أن الحروف تزاد طلبا للفصاحة، ولأجل تزيين اللفظ وجعله مهيئا لاستقامة وزن الشعر أو حسن السجع أو غير ذلك[1] وهذا ذكره الرافعي في كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية حيث يقول: " إن النحاة يقولون إن ما زائدة ومقصود قولهم زائدة في الإعراب، فيظن من لا بصر له أنها كذلك في النظم يقيس عليه مع أن هذه الزيادة لونا من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإن المراد بالآية، تصوير لين النبي صلى الله عليه وسلم لقومه، وأن ذلك رحمة من الله فجاء هذا المد في (ما) وصفا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق، ثم الفصل بين (الباء) الجارة ومجرورها (وهو لفظ رحمة) مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه، وذلك كله طبيعي في بلاغة الآية ".[2]

هذه جملة الأقوال في محل (ما) من المعنى والإعراب والذي أرجحه أن تكون ما نكرة بمعنى شيء.

---

(١) الأشباه والنظائر في النحو، السيوطي، ١/ ٣٥٦.

(٢) إعجاز القرآن . ص ١٨٩-١٩٠

رابعا: حرف (لا) في مواضع القسم:

تحدث المفسرون وعلماء اللغة عن الحرف (**لا**) الذي يسبق القسم في كل المواضع من القرآن الكريم التي ورد فيها القسم بهذه الصيغة وانقسموا في أمرها إلى فريقين:

الأول: قال إنها زائدة والمعنى أقسم، وممن قال بذلك من علماء اللغة أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق المعروف بالزجاجي (٣٣٧ هـ) صاحب كتاب حروف المعاني والصفات، حيث ذكر أن بعض الحروف قد تأتي في القرآن زائدة نحو زيادة (**لا**) في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾ (القيامة)، وذكر أنها في كلام العرب تزاد مع اليمين وتطرح[1].

والذين ذهبوا إلى زيادتها قالوا إنها زيدت للتأكيد، يقول الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: " والمعنى أقسم بهذا البلد، و(**لا**) أدخلت توكيدا".[2]

قلت: هذا الرأي بعيد تأباه طبيعة اللغة العربية ودقتها، كما تأباه كذلك بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، بل إن بعض الذين يجوزون القول بزيادة الحروف مثل الزمخشري اعترضوا على القول بزيادة (**لا**) في هذا الموضع لأنها لا تزاد إلا في وسط الكلام وهي هنا في أوله.[3]

---

(١) حروف المعاني والصفات، الزجاجي، ص٨، وذكر ذلك صاحب الجلالين والصاوي في حاشيته عليه ٦/ ٢٧٨

(٢) معاني القران وإعرابه، الزجاج، ٥/ ٣٢٧

(٣) الكشاف، الزمخشري، سورة القيامة ٤/ ٦٥٩

الثاني: قالوا إن (**لا**) غير زائدة واختلف هؤلاء في معناها على قولين:

الثاني: قالوا إن (**لا**) غير زائدة واختلف هؤلاء على ثلاثة أقوال:

أولهما: أن (**لا**) أصلها لام الابتداء أشبعت فتحتها ويرجح ذلك قراءة سبعية بلام دون ألف(لأقسم بيوم القيامة)[1] كما أن هذا الأسلوب شائع في العربية كما ذكر القول الشنقيطي [2] في أضواء البيان واستشهد عليه بشواهد كثيرة.

ثانيهما: أن (**لا**) نافية لكلام محذوف وكأنه قيل لا، ليس الأمر كما زعمتم بأن الإنسان لن يقدر عليه أحد بل أقسم بهذا البلد على أنا خلقناه في كبد وأنا قادرين عليه. وهذا ما اختاره الطبري حيث قال " وأولى الأقوال عندي بالصواب قول من قال: إن الله أقسم بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة، وجعل (**لا**) نفيا للكلام قد كان تقدمه من قوم وجوابا لهم: [3]. قلت وهذا القول يحتاج إلى تقدير محذوف والتقدير يحتاج إلى دليل ولا دليل.

ثالثهما: أن (لا) هنا نافية للقسم نفسه وكأنه يقول: (**لا أُقْسِمُ**) بهذه الأشياء، على إثبات هذا المطلوب، فإن هذا المطلوب أعظم وأجل من أن يقسم عليه بهذه الأشياء، ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه. أو أن يقال إن هذا المطلوب أظهر وأجلى وأقوى من أن

---

(١) قرأ ابن كثير (لأقسم بيوم القيامة) حجة القراءات، ابن زنجلة ١/ ٧٣٥ .

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي. الملحق المسمى دفع إيهام الاضطراب ٦/ ٣٧٢، ونقل هذا القول الزمخشري، الكشاف، سورة القيامة ٤/ ٦٥٩.

(٣) جامع البيان. الطبري. ٤/ ١٧٢ .

يثبت بهذه القسم.[1] وهذا القول هو المختار عندي لأنه معروف في العربية، ومستخدم على ألسنة الناس، فقد يقول قائل أريد أن أقسم أني سأفعل كذا وكذا وهو يقصد إثبات قدرته على الفعل، ونفي القسم إنما يقصد منه تأكيد القدرة على الفعل وكون ذلك أثبت من أن يؤكد بقسم.

هذه أمثلة على حروف قالوا إنها زائدة ناقشتها بأقوال كثيرة ترد هذا القول، إضافة لهذه الأمثلة اطلعت أثناء دراستي على مواضع أخرى قالوا إن فيها حروفا زائدة عرضت بعضا منها عند الحديث عن المؤيدين للزيادة والمانعين لها، وعند الحديث عن أسباب القول بالزيادة وقد تبين لي في كل هذه المواضع بطلان القول بالزيادة وغرابته لما وجدت في هذه الحروف- التي تَجَنّوا عليها- من معان عميقة دقيقة تزيد النظم جمالا والمعنى عمقا، لكن هذه المعاني تكون خفية أحيانا فلا يتسنى إدراكها إلا لمن فتح الله عليه وأمده نورا من عنده يهدي بصره وبصيرته.

وكما قال الرازي: " ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها وما أوتي البشر من العلم إلا قليلا ".[2]

لذلك فالواجب على من تصدى لتفسير القرآن التزود بأدوات التفسير ثم النظر الدقيق في آياته وألفاظه، فإن فتح الله عليه فهو نور من الله ومن

---

(٤) اختاره الزمخشري، الكشاف، سورة القيامة ٤/ ٦٥٩ والفخر الرازي، التفسير الكبير، ٣٠/ ١٩٠، ومحمد عبده في تفسير جزء عم، ص٢٩.

(١) الرازي، ٢٥/ ٦٢ .

قـصر نظـره ولم يـدرك أسرار القـرآن الكـريم عليـه أن لا يـدّعي الزيـادة في القرآن الكريم.

الخاتمة

في نهاية بحثي هذا أود تسجيل أهم النتائج التي توصلت لها:

- القول بالزيادة في القرآن الكريم يعني أن الحرف زائد من الناحية الإعرابية، أما من ناحية المعنى فللحرف معنى أفاده هو التأكيد، أما القول بأن الحرف زائد من حيث المعنى فهو قول مستبعد ولا أظن أن أحدا يقوله لأن فيه طعنا بالقرآن وإعجازه وبلاغته.

- إن دراسة القول بوجود حروف زائدة أو منعه انبنت على أصول أهمها.

-من ناحية اللغة: وقد تبين لي أن لكل حرف من هذه الحروف معان مفيدة لها أثرها في النظم والسياق وعليه فإن ورد الحرف في الكلام الفصيح يعني أن للحرف معنى أفاده.

-من ناحية طبيعة القرآن: وقد تبين لي _ وهذا ثابت على وجه القطع _ أن القرآن كلام بليغ بلغ حد الإعجاز وعليه فإن كل حرف وكلمة من حروفه وكلماته لها معانيها الهامة ولا يناسب طبيعة القرآن أن نقول إن الحرف زائد لأن زيادته تعني أنه غير مهم في مكانه ويمكن الاستنغاء عنه وهذا قول مرفوض البتة.

-من خلال دراسة الأسباب التي دفعت للقول بالزيادة تبين أنها أسباب ليست وجيهة وليست موضوعية ويمكن الرد عليها من خلال أنه لا يجوز أن تكون القواعد النحوية حكما على القرآن، ولا يجوز حل الاختلاف المتوهم بين الآيات بالحكم على بعض الحروف أو الكلمات بالزيادة لأن لكل نظم سياقه ومعناه الخاص، كما لا يجوز تصور معنى من المعاني

والتعصب له والحكم بعد على بعض الحروف بالزيادة، كما لا يجوز إهمال التفسير بالمأثور والسياق وأساليب اللغة التي منها التضمين والحكم بعد ذلك بالزيادة.

-من خلال دراسة المواضع التي قيل إن فيها أحرفا زائدة تبين لي أن هنالك معاني دقيقة وهامة أفادتها هذه الحروف وعليه فإن القول بزيادة حروف مرفوض من حيث الأصول وغير ثابت من حيث الواقع.

-وأخيرا أسأل الله أن أكون قد أصبت الحق، وأن يأجرني عليه والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وآله وصحبه إلى يوم الدين.

المراجع

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي (٩٥١هـ)، دار إحياء التراث، لبنان.
- الأشباه والنظائر في النحو، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق عبد الإله نبهان وآخرون، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠٧، ١٩٨٧.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، طبعة المملكة العربية السعودية ١٩٨٣
- إعجاز القران والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية لبنان الأولى ٢٠٠٠
- الإعجاز في البيان القرآني، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) دار المعارف ١١١٩ طبعة ثانية.
- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تحقيق عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، الأولى ١٩٩٦.
- البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي، حققه عادل احمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠١
- البرهان في علوم القران،محمد عبد الله الزركشي تحقيق مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١
- البيان في إعجاز القرآن، صلاح الخالدي،دار عمار عمان الأردن.

- البيان في غريب إعراب القران، أبو البركات بن الأنباري،تحقيق طه عبد الحميد طه و مصطفى السقا، الهيأة المصرية العامة للنشر، ١٩٧٠
- تأويل مشكل القران، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري (٢٧٦هـ)، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت الأولى ٢٠٠٢
- التحرير والتنوير،محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ بيروت، طبعة أولى ٢٠٠٠.
- تفسير جزء عم، محمد عبده، الجمعية الخيرية الإسلامية، مطبعة مصر، الطبعة الثالثة، ١٤٣١.
- تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (٧٧٤هـ)، دار الخير، الطبعة الأولى ١٩٩٠
- التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار إحياء التراث، بيروت ١٩٩٧الثالثة
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق محمد شاكر، دار التراث، طبعة ٢٠٠١.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق محمد إبراهيم الخفاجي، الطبعة الأولى ١٩٩٤
- حاشية شهاب الدين الخفاجي على البيضاوي ٦٩١، دار الكتب العلمية لبنان الطبعة الأولى ١٩٩٧
- روح المعاني، محمود الألوسي البغدادي (١٢٧٠هـ)، دار أحياء التراث، لبنان،الطبعة الأولى ١٩٩٩
- الفصول المفيدة في الواو المزيدة، صلاح الدين خليل بن كيكلدي

العلائي، (٧٦١هـ) تحقيق حسن موسى الشاعر، دار البشير الأولى، ١٩٠٠

- كتاب حروف المعاني، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق الزجاجي، (٣٤٠) تحقيق علي الحمد، مؤسسة الرسالة لبنان، الأولى، ١٩٨٤
- الكتاب، سيبويه أبو بسر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت الأولى
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمر الزمخشري (٥٢٨هـ)، دار الريان، الطبعة الثالثة ١٩٨٧
- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ن دار صادر بيروت.
- لطائف المنان، فضل حسن عباس، دار النور بيروت، الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩
- المثل السائر في آداب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير(٦٣٧هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العربية بيروت، ١٩٩٥.
- مجاز القران،أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي، تحقيق محمد فؤاد سزكين، الناشر محمد سامي الخانجي الأولى ١٩٥٤
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق عبد الله الأنصار والسيد عبد العال، طبعة قطر، الأولى ١٩٨٧

- معاني القران أبو زكريا يحي بن زياد الفراء (٢٠٧) عالم الكتب، بيروت، الثانية ١٩٨٠
- معاني القرآن وإعرابه، أبو اسحق إبراهيم السري الشهير بالزّجّاج، تحقيق عبد الجليل شلبي، عالم الكتب،لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٨
- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (٥٠٣هـ)، حققه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان
- المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت الطبعة الثانية.
- النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، دار القلم الكويت، الطبعة السادسة ١٩٨٤

ياء المتكلم عند القراء العشرة
(دراسة نحوية)

إعـــداد

د. محمد بن سعد الشوّاي

د. محمد بن سعد الشواي

- أستاذ مشارك فى قسم النحو والصرف بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- حصل على درجة الماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (المسائل النحوية والصرفية فى شرح القاسم الأنبارى للمفضّليّات)
- حصل على درجة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (التأويل النحويّ للقراءات الشاذة عند أبى حيان فى البحر المحيط)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله المنان، الرحمن الذي علم القرآن خلق الإنسان، علمه البيان وصلاةً وسلاما على أشرف الخلق محمد الذي أوتي فصاحة اللسان، ونور البيان، وبعد:

فقد قرأت كثيراً مما سطرته كتب القراءات عن ياء المتكلم، ورأيت عندهم اختلافاً في تصنيف خلاف القراء العشرة فيها، مع إغفال الجانب النحويّ لهذه الياء سوى إشارات يسيرة، نحو تفريقهم بين المنادى وغيره في اختلاف القراء في حذف الياء وإثباتها إذا كانت في محل الجر بالإضافة ،ولأن موافقة العربية ركن من أركان القراءة الصحيحة رأيت أن أصنف اختلاف القراء في ياء المتكلم حسب الموقع الإعرابي لياء المتكلم، فبدأت بالوجه الأول، وهو أن تكون في محل نصب وفيه إعرابان : أن تكون في محل نصب على المفعولية،وذلك إذا اتصلت بالفعل، أو تكون في محل النصب ب(إنّ) وأخواتها، وأتبعته الوجه الثاني وهو أن تكون في محل جر وفيه إعرابان أيضا : أن تكون في محل جر بالحرف، وأن تكون في محل جر بالإضافة .

وحاولت في هذا البحث الربط بين اختلاف القراء، والاستعمال النحوي، مع التوسع في ذكر اختلاف العلماء في بعض المسائل.

وهذا البحث محاولة لربط اختلاف القراء في ياء المتكلم بأحكامها النحوية بعد جمعها من أبواب نحوية متفرقة (أبواب الضمير، والظرف،

والإضافة، والنداء) .

أقدم هذا البحث راجياً أن ينتفع به قارئه، وأن يكون مفتاحاً لبحوث أخرى أعمق في هذا الموضوع.

ياء المتكلم

ياء المتكلم أحد الضمائر المتصلة، وهي تتصل بأنواع الكلمة الثلاثة : الاسم والفعل والحرف، ولكن إعرابها على وجهين :

الوجه الأول – النصب : ولها في هذه الحالة إعرابان :

الإعراب الأول – أن تكون في محل نصب على المفعولية وذلك إذا اتصلت بالفعل بأنواعه الثلاثة، نحو : أكْرَمَني، ويكْرِمُني، وأَكْرِمْني .

ولِلياء في هذه الحالة ثلاثة أوجه [١] :

١- إثبات الياء مفتوحة، وهو الأصل : أكرَمَنيَ، ويكرمنيَ، وأكرِمْنيَ .

٢- إثبات الياء ساكنة، أكرَمَنيْ، ويكرمنيْ، وأكرِمْنيْ .

٣- حذف الياء، نحو قوله تعالى ﴿ فيقول ربي أكرمن ﴾ الفجر ١٥ ﴿فيقول ربي أهانن ﴾ الفجر١٦، وعلى هذه الأوجه الثلاثة لابد من نون الوقاية قبل الياء [٢] .

مذاهب القراء :

قسمت كتب القراءات البحث في هذه الياء قسمين :

القسم الأول – ما اختلف في فتحه وتسكينه : وهو مقسم بحسب ما بعد الياء :

١ – الياء التي بعدها همزة مفتوحة :

---

(١) ينظر : ارتشاف الضرب ٩٢٢ .

(٢) ينظر : أوضح المسالك ١ / ٩٧، ٩٨، تعليق الفرائد ٢ / ٥٧ .

وردت هذه الياء في سبعة عشر موضعاً من القرآن [١] واتفق القراء العشرة على إسكان الياء في أربعة مواضع [٢] هي ﴿أرني أنظر إليك﴾ الأعراف ١٤٣، ﴿ولا تفتنّي ألا﴾ التوبة ٤٩، و ﴿ترحمني أكن﴾ هود ٤٧، ﴿فاتبعني أهدك﴾ مريم ٤٣ .

واختلفوا في ما بقي ففتح الياء ابن كثير وحده في موضعين ﴿فاذكروني أذكركم﴾ البقرة ١٥٢، و ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ غافر ٦٠، وفتح ابن كثير والأصفهاني ياءً واحدة في ﴿ذروني أقتل﴾ غافر ٢٦، واتفق ابن كثير، ونافع، وأبو جعفر على فتح أربع ياءات في ﴿ليحزنني أن﴾ يوسف ١٣ و﴿وحشرتني أعمى﴾ طه ١٢٥، و﴿أتأمرونّي أعبد﴾ الزمر ٦٤، و﴿أتعدانني أن﴾ الأحقاف ١٧، واتفق نافع وأبو جعفر على فتح الياء في ﴿ليبلوني أأشكر﴾ النمل ٤٠، واتفق نافع وأبو جعفر والبزي على فتح الياء في ﴿فطرني أفلا﴾ هود ٥١، وبقي بعد هذا أربعة مواضع : في ﴿أراني أعصر﴾ يوسف ٣٦، و ﴿أراني أحمل﴾ يوسف ٣٦، و ﴿أوزعني أن أشكر﴾ النمل ١٩، و ﴿أوزعني أن أشكر﴾ الأحقاف ١٥ .

وفي هذه الأربع اتبع القراء مذهبهم في كل ياءٍ بعدها همزة مفتوحة ففتحها نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأسكنها باقي العشرة[٣] .

---

(١) غاية الاختصار ٣٤٢ .

(٢) الكنز في القراءات العشر ٣٦٣، النشر في القراءات العشر ١ / ١٦٧، إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز ٢٥١ .

(٣) ينظر : الكنز في القراءات العشر ٣٦٦، النشر ٢ / ١٦٤ .

٢- الياء التي بعدها همزة مكسورة :

وردت هذه الياء في أحد عشر موضعاً، اتفق القراء العشرة على إسكان الياء في ثمانية مواضع [١] : ﴿قال أنظرني إلى﴾ الأعراف ١٤، و ﴿فأنظرني إلى﴾ الحجر ٣٦، ص ٧٩، و ﴿يدعونني إليه﴾ يوسف ٣٣، و ﴿يصدقني إني﴾ القصص ٣٤، و ﴿وتدعونني إلى﴾ غافر ٤١، ﴿وتدعونني إليه﴾ غافر ٤٣، و ﴿لولا أخرتني إلى﴾ المنافقون ١٠ .

وبقي ثلاثة مواضع : في قوله تعالى : ﴿ستجدني إن شاء الله﴾ الكهف ٦٩، والقصص ٢٧، والصافات ١٠٢ .

فتح الياء فيها نافع، وأبو جعفر، وأسكنها الباقون [٢] .

٣- الياء التي بعدها همزة مضمومة :

لم ترد ياء المتكلم متصلة بالفعل وبعدها همزة مضمومة إلا مرةً واحدة في ﴿آتوني افرغ﴾ الكهف ٩٧، والعشرة متفقون على إسكان هذه الياء [٣].

٤- الياء التي بعدها ساكن :

الساكن بعد الياء إما أن يكون لام (أل)، أو فاء فعل، وكل ما ورد من هذه الياءات متصلاً بالفعل جاءت بعده لام (ألْ) وذلك خمسة مواضع ﴿آتاني الكتاب﴾ مريم ٣٠، و ﴿مسّني الضر﴾ الأنبياء ٨٣، و ﴿مسني الشيطان﴾ ص ٤١، و ﴿إن أرادني الله﴾ الزمر ٣٨، و ﴿وإن أهلكني

(١) ينظر : الكنز في القراءات العشر ٣٦٧، النشر ٢ / ١٦٩ .

(٢) ينظر : الكنز ٣٦٨، النشر ٢ / ١٦٧ .

(٣) الكنز ٣٧٠، النشر ٢ / ١٧٠ .

الله﴾ الملك ٢٨ .

وفي هذه المواضع أسكن حمزة الياء، وفتحها باقي العشرة [١] .

القسم الثاني – ما اختلف فيه إثباتاً وحذفاً :

وهو ثلاثة أنواع :

١ – الياء التي بعدها ساكن :

والمتصل بالفعل من هذا النوع ورد في ثلاثة مواضع : ﴿واخشون اليوم﴾ المائدة٣ و ﴿فما آتاني الله﴾ النمل ٣٦، و ﴿إن يردن الرحمن﴾ يس ٢٣ .

والقراء مختلفون في هذه الياءات : فأما ﴿واخشون اليوم﴾ فاتفق العشرة على حذفها وصلاً، وانفرد يعقوب بإثباتها وقفاً [٢] وأما ﴿فما آتاني الله﴾ فأثبت الياء مفتوحةً في الوصل نافع وأبو جعفر، وأبو عمرو، وقالون، وحفص، ورويس عن يعقوب، وأثبتها في الوقف أبو عمرو، وقالون، وحفص [٣]، وأما ﴿إن يردن الرحمن﴾ فأثبت ياءها في الوقف يعقوب وأبو جعفر، وأثبتها محركةً في الوصل أبو جعفر، وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً[٤] .

٢ – الياء التي بعدها متحرك وهي وسط آية :

وجملة الوارد منها عشرون ياءً : ﴿إذا دعان فليستجيبوا﴾ البقرة ١٨٦،

(١) الكنز ٣٧٣، النشر ٢ / ١٧٠ .

(٢) غاية الاختصار ٣٦٥، الكنز ٣٨٣ .

(٣) غاية الاختصار ٣٦٥، الكنز ٣٨٣، النشر ٢ / ١٨٧ – ١٨٨ .

(٤) المصادر السابقة .

و﴿ واتقون يا أولي الألباب ﴾ البقرة ١٩٧، و ﴿ ومن اتبعن وقل ﴾ آل عمران ٢٠، و ﴿ وخافون إن ﴾ آل عمران ١٧٥، و ﴿ واخشون ولا ﴾ المائدة ٤٤، و ﴿ وقد هدان ولا ﴾ الأنعام ٨٠، و ﴿ ثم كيدون فلا ﴾ الأعراف ١٩٥، و ﴿ فلا تسألن ما ﴾ هود ٤٦، و ﴿ لا تخزون في ﴾ هود ٧٨، و ﴿ حتى تؤتوني موثقا ﴾ يوسف ٦٦، و ﴿ بما أشركتمون من قبل ﴾ إبراهيم ٢٢، و ﴿ لئن أخرتن إلى ﴾ الإسراء ٦٢، و ﴿ عسى أن يهدين ربي﴾ الكهف ٢٤، و ﴿ إن ترن أنا أقل ﴾ الكهف ٣٩، و ﴿ أن يؤتين خيرا﴾ الكهف ٤٠، و ﴿ على أن تعلمن مما ﴾ الكهف ٦٦، و ﴿ ألا تتبعن أفعصيت ﴾ طه ٩٣، و ﴿ أتمدونن بمال ﴾ النمل ٣٦، ﴿ واتبعون أهدكم ﴾ غافر ٣٨، و ﴿ اتبعون هذا ﴾ الزخرف ٦١ [(١)] .

وزاد نافع عليها واحدةً في قوله تعالى ﴿ تشاقون فيهم ﴾ النحل ٢٧، حيث قرأها بكسر النون مخففةً [(٢)] .

وهي عند ابن كثير تسع عشرة ؛ لأنه يفتح الياء في ﴿ فلا تسألنَّ ما ﴾ هود ٤٦، بفتح النون وتشديدها [(٣)]، فأما اختلافهم في هذه المواضع ففيه تفصيلات كثيرة فيعقوب يثبت الياء في الجميع وصلاً ووقفاً، وابن كثير يثبت الياء في الحالين في سبعة مواضع: ﴿ تؤتون ﴾ يوسف ٦٦، ﴿وأخرتن ﴾ الإسراء ٦٢، والأربع التي في الكهف، و ﴿ أتمدونن بمال ﴾ النمل ٣٦ .

(١) ينظر : غاية الاختصار ١ / ٣٦٧، الكنز ١ / ٣٨٤، النشر ٢ / ١٨٠ – ١٨١ .

(٢) التبصرة ٢٤١ .

(٣) التبصرة ٢٢٣ .

وأثبت أبو جعفر، وأبو عمرو، وإسماعيل عن نافع والجميع في الوصل دون وقف .

وأثبت قالون وورش تسعاً في الوصل، وهي المذكور عند ابن كثير إلا أنهم جعلوا ﴿ ومن اتبعن ﴾ آل عمران ٢٠، بدل ﴿ تؤتون ﴾ يوسف ٦٦، وزاد ورش إثبات ياءين : ﴿ إذا دعان ﴾ البقرة ١٨٦، و ﴿ فلا تسألنِّ ﴾ هود ٤٦ (١) .

٣- الياء التي بعدها متحرك وهي رأس آية :

وردت الياء متصلةً بالفعل وهي على هذه الصفة في تسعة وخمسين موضعاً (٢) تركت سردها هنا خشية الإطالة .

وقد أثبت ياءها في الحالين يعقوب، وأثبت ورش سبع ياءات في ﴿ أن يكذبون ﴾ القصص ٣٤، و ﴿ ولا ينقذون ﴾ يس ٢٣، و ﴿ لتردين ﴾ الصافات ٥٦، و ﴿ أن ترجمون ﴾ الدخان ٢٠، و ﴿ فاعتزلون ﴾ الدخان ٢١، و ﴿ أكرمن ﴾ الفجر ١٥، و ﴿ أهانن ﴾ الفجر ١٦ .

وأثبت أبو جعفر وإسماعيل، وقالون، والمسيبي عن نافع ﴿ أكرمن ﴾ الفجر ١٥، و﴿أهانن ﴾ الفجر ١٦ .

وحذف باقي العشرة الياء في المواضع كلها وصلاً ووقفاً (٣) .

وبعد عرض مذاهب القراء في ياء المتكلم المتصلة بالفعل يتضح لنا

(١) غاية الاختصار ١ / ٣٦٧ – ٣٦٨، الكنز ١ / ٣٨٤ – ٣٨٥، النشر ٢/ ١٨٢ وما بعدها .

(٢) ينظر : غاية الاختصار ٣٦٩ – ٣٧٣، الكنز ١ / ٣٨٦ – ٣٨٨، النشر ٢ / ١٩٠ – ١٩٢ .

(٣) المصادر السابقة .

ما يلي:

١- اختلاف القراء لم يخرج عن الأوجه الثلاثة المذكورة في هذه الياء عند النحويين، وهي : إثبات الياء الساكنة، وإثباتها مفتوحة، وحذفها .

٢- موقف القراء من الياء مبنيّ على ما بعدها فباختلافه تختلف مذاهبهم، فما بعده همزة يختلف عما بعده حرف صحيح وما بعده متحرك يختلف عما بعده ساكن وهكذا .

٣- للقراء تفصيلات كثيرة في هذه الياء مبنية على قواعد صوتية لم يتطرق لها النحويون في حديثهم عن هذه الياء حيث لا تجد عندهم أيّ تفصيل، بل ذكروا الأوجه الثلاثة إجمالاً، واختصروا الكلام فيها اختصاراً عجيباً .

الإعراب الثاني : أن تكون في محل نصب اسماً لـ (إنّ) أو إحدى أخواتها :

تحدث النحويون عن اتصال (إنّ) وأخواتها بالياء من حيث حكم نون الوقاية [1]، ولم أجد لهم حديثاً عن حذف الياء، ولا عن حركة الياء حال إثباتها .

وملخص ما ذكروه أنّ نون الوقاية تدخل قبل الياء في (إنّ) وأخواتها، وورد حذفها على التفصيل التالي :

(١) ينظر : شرح الكافية الشافية ٢٢٦، شرح ابن الناظم للألفية ٦٨، شرح الألفية لابن جابر ١ ١٨٤ – ١٨٦، الهمع ١ / ٢٢٢ – ٢٢٤ .

١- يترجح الحذف بعد (لعلّ) ومنه قوله تعالى ﴿لعلي أبلغ الأسباب﴾[١]، ومن الإثبات قول الشاعر :

فقلت أعيراني القدوم لعلني أخط بها قبراً لأبيض ماجدِ

٢- يجب الإثبات بعد (ليت) نحو : ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾ الفجر ٢٤، وورد الحذف في ضرورة الشعر ومنه قول زيد الخيل :

كمنية جابر إذا قال ليتي أصادفه وأفقد جل مالي

٣- جواز الإثبات والحذف من غير ترجيح بعد (إنّ) و (أنّ) و (كأنّ) و (لكنّ)، كقوله تعالى ﴿إنِّي آنست ناراً﴾[٢]، وقوله تعالى ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾[٣].

اختلاف القراء :

لم يَفْصِل علماء القراءات هذا القسم عما قبله، فالنون عندهم تصنف حسب ما بعدها وليس حسب ما قبلها، إلا أن هذا المبحث يختلف عن مبحث الياء المنصوبة بالفعل، فليس فيه اختلاف في حذف الياء وبقائها، بل الاختلاف في الفتح والإسكان على النحو التالي :

١- **الياء التي بعدها همزة مفتوحة** : وردت هذه الياء متصلة بـ (إنّ) في تسعة وثلاثين موضعا[٤] منها : ﴿إني أعلم﴾ البقرة ٣٠، ٣٣، يوسف ٨٦، و ﴿إنّي أخاف﴾ المائدة ٢٨، الأنعام ١٥، الأعراف ٥٩، الأنفال

(١) غافر ٣٦ .

(٢) طه ١٠، النمل ٧، القصص ٢٩ .

(٣) طه ٤٦

(٤) ينظر : غاية الاختصار ١ / ٣٣٩ – ٣٤٢، الكنز ٣٦٣ – ٣٦٤، النشر ٢ / ١٦٣ – ١٦٤ .

٤٨، يونس ١٥، هود ٢٦، ٨٤، مريم ٤٥، الشعراء ١٢، ١٣٥، القصص ٣٤، الزمر ١٣، غافر ٢٦، ٣٠، ٣٢، الأحقاف ٢١، الحشر ١٦ .

ومتصلة بـ (أنّ) المفتوحة في ثلاثة مواضع : ﴿أنّي أخلق لكم﴾ آل عمران ٤٩، و ﴿أنّي أنا﴾ الحجر ٤٩، و ﴿أنّي أذبحك﴾ الصافات ١٠٢ .
ومتصلة بـ (لكنّ) في موضعين : ﴿ولكنّي أراكم﴾. هود ٢٩، الأحقاف ٢٣.

ومتصلة بـ (لعلّ) في ستة مواضع : ﴿لعلّي أرجع﴾ يوسف ٤٦، و ﴿لعلي آتيكم﴾ طه ١٠، و القصص ٢٩، و ﴿ولعلّي أعمل﴾ المؤمنون ١٠٠، و﴿لعلّي أطلع﴾ القصص ٣٨، و ﴿لعلّي أبلغ﴾ غافر ٣٦ .
فأما اختلافهم فيها فإن نافعاً وأبا جعفر، وأبا عمرو يحركون الياء في ﴿إنّي أراني﴾ في الموضعين يوسف ٣٦، وفتح نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر ياء (لعلي) في مواضعها الستة .
وفتح المدنيان، وأبو عمرو، والبزّي ياء ﴿لكنّي أراكم﴾ في الموضعين : هود ٢٩، والأحقاف ٢٣، و ﴿إنّي أراكم﴾ هود ٨٤ .
أما ما بقي فالفتح عند نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وأبي جعفر، والإسكان عند باقي العشرة [1] .
٢- الياء التي بعدها همزة مكسورة : وردت هذه الياء متصلةً بـ (إنّ) في ثلاثة مواضع : ﴿إنّي إذاً﴾ هود ٣١، ويس ٢٤، و ﴿إني إله﴾ الأنبياء

(١) ينظر : غاية الاختصار ١ / ٣٤٢-٣٤٥، الكنز ١ / ٣٦٥-٣٦٦، النشر ٢ / ١٦٤-١٦٦ .

٢٩، ولم ترد متصلةً بغير (إنّ) .

وهذه الياء مفتوحة عند نافع، وأبي عمرو، وأبي جعفر، ساكنة عند باقي العشرة [١] .

٣- **الياء التي بعدها همزة مضمومة** : وردت هذه الياء متصلة بـ (إن) المكسورة في ثمانية مواضع : ﴿ وإني أعيذها ﴾ آل عمران ٣٦، و ﴿ إني أريد ﴾ المائدة ٢٩، والقصص ٢٧، و ﴿ فإني أعذبه ﴾ المائدة ١١٥، و ﴿إني أمرت ﴾ الأنعام ١٤، و الزمر ١١، و ﴿ إني أشهد ﴾ هود ٥٤، و ﴿ إني ألقي ﴾ النمل ٢٩ .

وجاءت متصلة بـ (أنّ) المفتوحة في آية واحدة هي ﴿ أنّي أوفي ﴾ يوسف ٥٩ .

فأما التي مع (إنّ) فإن نافعاً وأبا جعفر قرأ بفتح الياء، وباقي العشرة بالسكون[٢] .

وكذلك التي مع (أنّ)[٣]، إلا أنه قد اختلف في النقل عن أبي جعفر، فنقل عنه الوجهان من طرق مختلفة فصلها ابن الجزري في النشر [٤] .

٤- **الياء التي بعدها حرف متحرك غير الهمز** : وردت هذه الياء في موضع واحد في ﴿ إنْي رأيت ﴾ يوسف ٤، واتفق العشرة على إسكان هذه الياء إلا رواية العمريّ عن أبي جعفر [٥] .

---

(١) ينظر : الكنز ١ / ٣٦٩، النشر ٢ / ١٦٧ .

(٢) غاية الاختصار ١ / ٣٥٠، الكنز ١ / ٣٧٠، النشر ٢ / ١٦٩ – ١٧٠ .

(٣) المصادر السابقة .

(٤) النشر ٢ / ١٧٠ .

(٥) غاية الاختصار ١ / ٣٥١ .

٥- **الياء التي بعدها ساكن** : وردت هذه الياء في موضعين أتى بعدهما لام فعل حسب تصنيف علماء القراءات، وذلك في ﴿إني اصطفيتك﴾ الأعراف ١٤٤، و ﴿يا ليتني اتخذت﴾ الفرقان ٢٧ .

وهذه الياء مفتوحة عند ابن كثير وأبي عمرو في ﴿إني اصطفيتك﴾، وعند أبي عمرو وحده في ﴿يا ليتني اتخذت﴾، أما باقي العشرة فهي عندهم ساكنة [١] .

الوجه الثاني : أن تكون الياء في محل جر، وفيها على هذا الوجه إعرابان :

الإعراب الأول – أن تكون في محل جر بالحرف :

تنقسم حروف الجر من حيث دخولها على ياء المتكلم قسمين [٢] :

الأول : حروف لا تدخل على الياء، إما لأنها مختصة بالظاهر وهي : مُذْ، ومنذُ، وكَيْ، والتاء، والكاف، والواو، وحتى عند الجمهور الذين منعوا دخولها على الضمير [٣]، أو لأنها تدخل على بعض الضمائر دون بعض وهي: رُبّ التي قد تدخل على ضمير الغائب المفرد المذكر دون غيره من الضمائر، نحو : رُبّهُ رجلاً، ورُبَّه رجلين، وربه رجالاً، ورُبّه امرأةً، وربه امرأتين، ورُبّهُ نساءً [٤] .

---

(١) الكنز ١ / ١٧٤، النشر ٢ / ١٧١ .

(٢) ينظر : شرح الكافية الشافية ٧٨٩ وما بعدها .

(٣) ارتشاف الضرب ٢ / ٤٦٩، الهمع ٤ / ١٦٦ .

(٤) ارتشاف الضرب ٢ / ٤٦٢، الهمع ٤ / ١٧٩ .

الثاني : حروف تدخل على ياء المتكلم ويمكن تصنيفها أربعة أصناف :

١ – ما ختم بنون وهو : عن ومن : وهذان الحرفان إذا دخلا على الياء وجب إدخال نون الوقاية فيقال عنيِّ، ومنيّ، ولا تحذف إلا في الضرورة [(١)] كقول الشاعر [٢] :

أيّها السائل عنهم وعنِي　　　لست من قيس ولا قيس منِي [(٣)]

ولم يذكر النحويون حركة ياء المتكلم مع هذين الحرفين، ولكن الظاهر أنه يجوز فيهما الإسكان والفتح قياساً على غيرهما مما ينتهي بحرف صحيح، أما الحذف فلم يذكر وإن كان جائزاً في ما دخلت فيه نون الوقاية كما سبق في الحديث عن المنصوب بالفعل [(٤)]، لكن لا يمكن الحكم بجوازه قياساً، ولم يرد ما يؤيده، ولم أجد له شاهداً .

مذاهب القراء في هذا الصنف :

ورد في القرآن عدد من المواضع من هذا الصنف، وهي عند أهل القراءة قسمان :

١ – **ما بعده همزة مكسورة** : وهو ثلاثة مواضع [(٥)] : ﴿منّي إلا﴾ البقرة ٢٤٩، و ﴿منّي إليك﴾ آل عمران ٣٥، و ﴿عنّي إنه﴾ هود ١٠، والقراء العشرة على أصولهم في هذا الباب فالفتح عند نافع، وأبي عمرو، وأبي

---

(١) أوضح المسالك ١ / ١٠٩، تعليق الفرائد ٢ / ٦١ .

٢ غير معروف

٣ أوضح المسالك ١ / ١٠٩، تعليق الفرائد ٢ / ٦١ .

(٤) ينظر ص من هذا البحث

(٥) غاية الاختصار ١ / ٣٤٦، الكنز ١ / ٣٦٧، النشر ٢ / ١٦٧ .

جعفر، وباقي العشرة يسكنون الياء [1].

٢- **ما بعده حرف من حروف المعجم غير الهمزة**: والوارد من هذا النوع ثلاثة عشر موضعاً، منها خمسة فيها (عنّي) وهي: ﴿عنّي فإني﴾ البقرة ١٨٦، و ﴿عنّي كيدهن﴾ يوسف ٣٣، و ﴿عني شفاعتهم﴾ يس ٢٣، و ﴿عنّي ماليه﴾ الحاقة ٢٨، و ﴿عني سلطانيه﴾ الحاقة ٢٩.

وأما الباقي ففيه (منّي) وذلك في ﴿مني هدى﴾ البقرة ٣٨، وطه ١٢٣ و﴿ فإنه مني ومن﴾ البقرة ٢٤٩، و ﴿مني ومن﴾ آل عمران ٣٩، و﴿مني واشتعل﴾ مريم ٤، و ﴿مني ولتصنع﴾ طه ٣٩، و ﴿مني لسانا﴾ القصص ٣٤، و ﴿مني لأملأن﴾ السجدة ١٣.

وهذه المواضع الثلاثة عشر كلها مما اتفق القراء على إسكان الياء فيها [2].

الصنف الثاني – ما ختم بياء وهو (في): وحكم يائها عند النحويين كحكم ياء المنقوص، وذلك بفتح ياء المتكلم وإدغام آخر الكلمة فيها فيقال: فيَّ كما يقال قاضيَّ [3]، والفتح لياء المتكلم هو الفصيح الشائع [4].

وقد سمع الكسر في لغة قليلة حكاها أبو عمرو بن العلاء [5]، والفراء [6]، وقطرب [7]، ومنه قول الأغلب العجلي:

(١) الكنز ١ / ٣٦٩، النشر ٢ / ١٦٧.

(٢) النشر ٢ / ١٧١ – ١٧٦.

(٣) شرح الكافية الشافية ٣، ارتشاف الضرب ٢ / ٥٣٧، الهمع ٤ / ٢٩٨.

(٤) شرح الكافية الشافية ١٠٠٦.

(٥) شرح الكافية الشافية ١٠٠٦.

(٦) معاني القرآن ٢ / ٧٥.

(٧) المحتسب ٢ / ٤٩.

قال لها هل لك ياتا فيِّ قالت له ما أنت بالمرضيِّ [(١)]

وهذا الصنف لم يرد منه شيء في القرآن .

الصنف الثالث – ما ختم بألف، وهو إلى، وعلى، وعدا، وخلا، وحاشا، ومتى، ولولا .

والمختوم بألف، أي: المقصور عند دخوله على ياء المتكلم فإنه يبقى على لفظه مع فتح ياء المتكلم، فعلى هذا يقال: عداي، وخلاي، وحاشاي، ولولاي[(٢)].

أما متى فلم أعثر على ذكر لدخولها على الياء، وأما إلى، وعلى فهما مستثنيتان من هذه القاعدة مع لدى، فيقال : إليّ، وعليّ، بقلب الألف ياءً وإدغامها في الياء [(٣)]، وهي لغة أكثر العرب وبعضهم يبقيها دون قلب فيقول إلايَ، وعلايَ، ولدايَ [(٤)]، وفي هذا لغة أخرى قليلة تكسر فيها الياء المدغمة فيقال إليِّ، وعليِّ [(٥)]، قال النابغة الذبياني :

عليِّ لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقاربِ [(٦)]

وذلك بكسر الياء في (عليّ) .

وقد وردت (إلى) و (على) مضافتين إلى الياء في مواضع متعددة [(٧)] اتفق

(١) معاني القرآن للفراء ٢ / ٧٦، المحتسب ٢ / ٤٩ .

(٢) شرح الكافية الشافية ١٠٠٣، ارتشاف الضرب ٢ / ٥٣٧، الهمع ٤ / ٢٩٨ .

(٣) المصادر السابقة

(٤) ارتشاف الضرب ٢ / ٥٣٧ .

(٥) الهمع ٤ / ٢٩٨ .

(٦) المحتسب ٢ / ٤٩، شرح الكافية الشافية ١٠٠٨، الهمع ٤ / ٢٩٩ .

(٧) وردت (إليّ) في آل عمران ٥٥، المائدة ٢٨، الأنعام ١٩، ٥٠، ٩٣، ١٤٥، الأعراف ٢٠٣، يونس ٧١، يوسف ٣٣، الكهف ١١٠، الأنبياء ١٠٨، النمل ٢٩، القصص ٢٤، العنكبوت ٨، =

القراء فيها على قلب الألف ياءً، وإدغامها في الياء ومن ذلك قوله تعالى ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ [1] و﴿يوحى إليّ﴾ [2] و ﴿هو عليّ هين﴾ [3]، و ﴿والسلام عليّ﴾ [4] .

وكل ما جاء في القرآن من هذا محل اتفاق بين القراء، فهم مجمعون على الفتح [5]، بعد قلب ألف (إلى) و (على) ياء، وإدغامها في ياء المتكلم .

وأما ما سوى (على) و (إلى) من حروف مختومة بألف فلم ترد في القران .

الصنف الرابع – ما ختم بحرف صحيح غير النون، وهو الباء، والثاء، والكاف، واللام، و (رب) و (مذ) و (منذ)، و (لعلّ) .

وأكثر حروف هذا الصنف لا تدخل على ياء المتكلم، فالتاء، والكاف، و (رب) و (مذ) و (منذ) تختص بالظاهر دون الضمير [6]، إلا ما ورد شاذاً من جر الكاف لياء المتكلم في قول الشاعر :

وإذا الحرب شمرت لم تكن كي حين تدعو الكماة فيها نَزَالِ [7]

= لقمان ١٤، ١٥، سبأ ٥٠، ص ٧٠، فصلت ٦، الدخان ١٨، الأحقاف ٩، الجن ١ .

وجاءت (عَلَيَّ) في النساء ٧٢، الحجر ٤١، مريم ٩، ٢١، ٣٣، الشعراء ١٤، ٢٢، النمل ١٩، ٣١، القصص ١٧، ٢٨، ص ٣٣، الشورى ٥١، الأحقاف ١٥، الحجرات ١٧ .

(١) الأنعام ٥٠ .

(٢) الكهف ١١٠ .

(٣) مريم ٩ .

(٤) مريم ٣٣ .

(٥) غاية الاختصار ١ / ٣٣٢، النشر ٢ / ١٦٢ .

(٦) شرح الكافية الشافية ٧٨٩ .

(٧) ارتشاف الضرب ٢ / ٤٣٦، الهمع ٤ / ١٩٦ .

وأما الباء، واللام، ولعلّ فدخولها على ياء المتكلم وارد .

إلا أن (لعلّ) تستعمل في الأكثر حرفاً ناسخاً، ولا تكون حرف جر إلا على لغة بني عقيل [١] كقوله :

لعل الله فضلكم علينا بشيء أن أمكم شريم

ولم يذكر دخولها على الضمير عند استعمالها حرف جر .

ولم أجد ذكراً لحركة الياء مع هذه الأحرف الثلاثة .

الباء واللام مع ياء المتكلم في القراءات :

صنف علماء القراءات ما ورد من هذا بالنظر إلى ما بعدها كما سبق بيانه في غير موضع من هذا البحث، وما ورد منه عندهم أربعة أقسام :

١ – **ما بعده همزة مفتوحة** : وذلك في سبعة مواضع : ﴿ اجعل لي آية ﴾ آل عمران ٤١، مريم ١٠، و ﴿ لي أن أقول ﴾ المائدة ١١٦، و ﴿ لي أن أبدله ﴾ يونس ١٥، و ﴿ يأذن لي أبي ﴾ يوسف ٨٠، و ﴿ ويسر لي أمري ﴾ طه ٢٦، و ﴿ مالي أدعوكم ﴾ غافر ٤١

فأما اختلاف القراء في ذلك فنافع، وابن كثير، وأبو جعفر، وأبو عمرو يحركون الياء، وباقي العشرة يسكنونها [٢] .

٢ – **ما بعده همزة مكسورة** : وذلك في موضعين، ﴿ قد أحسن بي إذ ﴾ يوسف ١٠٠، و ﴿ عدو لي إلا ﴾ الشعراء ٧٧، والياء في هذين الموضعين مفتوحة عند نافع، وأبي جعفر، وأبي عمرو، وساكنة عند باقي العشرة [٣] .

---

(١) شرح الكافية الشافية ٧٨٣ .

(٢) الكنز ١ / ٣٦٥، النشر ٢ / ١٦٤ .

(٣) الكنز ١ / ٣٦٩، النشر ٢ / ١٦٧ .

٣- ما بعده حرف متحرك غير الهمزة : والوارد من ذلك عشرة مواضع، وهي : ﴿ بي لعلهم ﴾ البقرة ١٨٦، و ﴿لي ساجدين ﴾ يوسف ٤، و ﴿لي عليكم ﴾ إبراهيم ٢٢، و ﴿لي فيها ﴾ طه ١٨، و ﴿ مالي لا أرى ﴾ النمل ٢٠، و ﴿ ما لي لا أعبد ﴾ يس ٢٢، و ﴿لي نعجة ﴾ ص ٢٣، و ﴿لي من علم ﴾ ص ٦٩، و ﴿لي فاعتزلون ﴾ الدخان ٢١، و ﴿لي دين ﴾ الكافرون ٦ .

والقراء مختلفون في هذا اختلافاً كبيراً، فقد فتح ورش ﴿ بي لعلهم ﴾ البقرة ١٨٦، و ﴿لي فاعتزلون ﴾ الدخان ٢١، وفتح حفص (لي) في خمسة مواضع : في إبراهيم، وطه، وفي ص موضعين، وفي الكافرون وفتح ﴿ ولي دين ﴾ الكافرون ٦، نافع وهشام، وفتح ابن كثير، وعاصم، والكسائي ﴿مالي لا أرى الهدهد ﴾ النمل ٢٠، وسكن حمزة، وخلف، ويعقوب جميع هذه الياءات [(١)] .

٤- ما بعده حرف ساكن : وذلك في موضع واحد في قوله تعالى ﴿ فلا تشمت بي الأعداء ﴾ الأعراف ١٥٠، وهذا الموضع مما أجمع القراء كلهم على فتحه [(٢)] .

الإعراب الثاني : أن تكون في محل جر بالإضافة :

وتختلف أحكام ياء المتكلم هنا باختلاف الاسم المضاف إليها، وقد قسم النحويون هذه الأسماء عدة أقسام :

الأول- السالم : وهو ما ختم بحرف صحيح أو حرف علة ساكن ما قبله،

---

(١) غاية الاختصار ١ / ٣٥١ – ١٥٤، الإقناع ١ / ٣٧١ – ٣٧٢، النشر ٢ / ١٧١ – ١٧٦ .

(٢) غاية الاختصار ١ / ٣٣٦، النشر ٢ / ١٦٢ .

نحو : كتابي، وظبيي، وصبيِّي، و صِنْوِي، وفُلوِّي .

فيكسر آخر الاسم هنا، وأما ياء المتكلم فيجوز فيها ستة أوجه [(١)] :

١- الإسكان : كتابيْ، وماليْ، وصنويْ .

٢- الفتح : كتابيَ، وماليَ، وصنويَ .

وقد اختلف في هذين الوجهين، فقيل : الأصل الفتح ؛ " لأنه حرف واحد، فقياسه التحريك، ثم سكن تخفيفاً .... وقيل : السكون أصل ؛ لأنه حرف علة ضمير فوجب السكون كواو (ضربوا) ؛ ولأن بناء حرف العلة على حركة إنما هو لتعذر الابتداء به، والمتصل بغيره لا تعذر فيه " [(٢)] .

وهذان الوجهان هما الأكثر والأشهر .

٣- حذف الياء وإبقاء ما قبلها مكسوراً : نحو قوله تعالى ﴿فبشر عبادِ﴾[(٣)]، ومنه قول الشاعر : [(٤)]

خليلِ أملَك منيّ للذي كسبت ... يدي ومالي في ما يقتني طمعُ [(٥)]

٤- فتح آخر الاسم وقلب الياء ألفاً : نحو قول نقيع بن جرموز بن عبد شمس :

أطوّف ما أطوّف ثم آوي ... إلى أُمّا ويرويني النقيعُ [(٦)]

---

(١) شرح التسهيل لابن مالك ٣ / ، شرح الكافية الشافية ١٠٠٥ – ١٠٠٦، ارتشاف الضرب ٢/ ٥٣٧ – ٥٣٨، الهمع ٤ / ٢٩٩ – ٣٠٠ .

(٢) الهمع ٤ / ٢٩٩ .

(٣) الزمر ١٧ –١٨ .

(٤) غير معروف .

(٥) شرح الكافية الشافية ١٠٠٥ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٦ شرح الكافية الشافية ١٠٠٦، ارتشاف الضرب ٢ / ٥٣٨،

=

نقل هذا الوجه ابن السراج [1] عن المازني .

وهذا عند ابن عصفور [2] لا يجوز إلا في الضرورة، وأما غيره فأجازوه مطلقاً [3] .

٥- حذف الياء بعد قلبها ألفاً و إبقاء ما قبلها مفتوحاً دليلاً عليها : ومنه قول الشاعر [4] :

ولست بمدرك ما فات مني بلهفَ ولا بليتَ ولا لو انّي [5]

٦- حذف الياء وضم ما قبلها : أجازه أبو عمرو وغيره على قلة في غير النداء [6] مستندلين بقول أوس بن غلفاء :

ذريني إنما خطئي وصوبي عليّ وإنما أهلكت مالُ [7]

أي : مالي، أما في النداء فجائز على الإطلاق [8] .

مذاهب القراء :

قسم علماء القراءات هذا النوع قسمين :

أولهما – ما اختلف في فتحه وإسكانه :

ولهذا القسم خمسة أفرع مصنفة بحسب ما بعد ياء المتكلم :

= المساعد ٢ / ٣٧٦ .

(١) الأصول ١ / ٣٤١ .

(٢) المقرب ١ / ٢٣٨ .

(٣) الهمع ٤ / ٢٩٩ .

(٤) غير معروف .

(٥) الخصائص ٣ / ١٣٥، الإنصاف ١ / ٣٩٠، شرح الكافية الشافية ١٠٠٦، المساعد ٢ / ٣٧٦ .

(٦) ارتشاف الضرب ٢ / ٥٣٨، المساعد ٢ / ٣٧٧، الهمع ٤ / ٣٠٠ .

(٧) المحتسب ٢ / ٢٠ .

(٨) ارتشاف الضرب ٢ / ٥٣٨ .

١ - **الياء التي بعدها همزة مفتوحة** : وجملة ما ورد من ياءات في محل جر بالإضافة أربعة وعشرون موضعاً وذلك [١] في : ﴿من بعدي أعجلتم﴾ الأعراف ١٥٠، و ﴿معي أبداً﴾ التوبة ٨٣، و ﴿ضيفي أليس﴾ هود ٧٨، و ﴿شقاقي أن﴾ هود ٨٩، و ﴿أرهطي أعز﴾ هود ٩٢، و ﴿ربّي أحسن﴾ يوسف ٢٣، و ﴿يأذن لي أبي أو﴾ يوسف ٨٠، و ﴿سبيلي أدعو﴾ يوسف ١٠٨، و ﴿نبئ عبادي أني﴾ الحجر ٤٩، و ﴿ربي أعلم﴾ الكهف ٢٢، الشعراء ١٨٨، القصص ٣٧، ٨٥، و ﴿بربّي أحدا﴾ الكهف ٣٨، ٤٢، و ﴿فعسى ربي أن﴾ الكهف ٤٠، و ﴿من دوني أولياء﴾ الكهف ١٠٢، و ﴿ربّي أن يهدني﴾ القصص ٢٢، و ﴿عندي أوَلم﴾ القصص ٨٧، و ﴿من تحتي أفلا﴾ الزخرف ٥١، و ﴿معي أو رحمنا﴾ الملك ٢٨، و ﴿ربّي أحدا﴾ الجن ٢٥، و ﴿ربي أكرمن﴾ الفجر ١٥، و﴿ربي أهانن﴾ الفجر ١٦ .

وزاد ابن عامر واحدةً في ﴿هارون أخي * أَشْدُدْ به أزري﴾ [٢] بإسناد الفعل (أشدد) إلى موسى .

أما اختلاف القراء [٣] ففتح الياء في ذلك كله نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأسكنها باقي العشرة، إلا أنهم اختلفوا في مواضع على غير هذا المنهج، فاتفق نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر على فتح ﴿ضيفي أليس﴾ هود ٧٨، و ﴿ومن دوني أولياء﴾ الكهف ١٠٢، واتفق معهم

---

(١) ينظر : غاية الاختصار ١ / ٣٣٩ – ٣٤٢، الكنز ١ / ٣٦٣ – ٣٦٤، النشر ٢ / ١٦٣ – ١٦٤ .

(٢) طه ٣٠ –٣١ . والقراءة في غاية الاختصار ٢ / ٣٣٨ .

(٣) ينظر : الكنز ٢ / ٣٦٤ – ٣٦٥، النشر ٢ / ١٦٤ – ١٦٥ .

البزي على فتح ياء ﴿من تحتي أفلا﴾ الزخرف ٥١ .

وحرك نافع وأبو جعفر ياء ﴿سبيلي أدعو﴾ يوسف ١٠٨، وحرك الحجازيون وابن عامر وأبو عمرو ﴿معي أبداً﴾ التوبة ٨٣، و ﴿معي أو رحمنا﴾ الملك ٢٨، و ﴿أرهطي أعز﴾ هود ٩٢، ووافقهم حفص في ياء (معي) في الموضعين، وفتح نافع وأبو جعفر ياء ﴿سبيلي أدعو﴾ يوسف ١٠٨، وفتح نافع وأبو جعفر وأبو عمرو و قنبل ﴿على علم عندي أولم﴾ القصص ٧٨ .

٢- الياء بعدها همزة مكسورة : وردت هذه الياء في أربعين موضعا [١] : ﴿أنصاري إلى الله﴾ آل عمران ٥٢، الصف ١٤، و ﴿يدي إليك﴾ المائدة ٢٨، و ﴿أمي إلهين﴾ المائدة ١١٦، و (ربّي) بعدها ﴿إلى﴾ الأنعام ١٦١، و ﴿إني﴾ يوسف ٣٧، و ﴿إنّ﴾ يوسف ٥٣، فصلت ٥٠، و ﴿إنّه﴾ يوسف ٩٨، مريم ٤٧، العنكبوت ٢٦، سبأ ٥٠، و ﴿إذاً﴾ الإسراء ١٠٠، و ﴿نفسي إن أتبع﴾ يونس ١٥، و ﴿أجري إلاّ﴾ يونس ٧٢، والشعراء، ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠، وسبأ ٤٧، و ﴿نصحي إن﴾ هود ٣٤، و ﴿ما توفيقي إلا﴾ هود ٨٨، و﴿آبائي إبراهيم﴾ يوسف ٣٨، و ﴿نفسي إنّ﴾ يوسف ٥٣، و ﴿حزني إلى الله﴾ يوسف ٨٦، و ﴿إخوتي إنّ﴾ يوسف ١٠٠، و ﴿بناتي إن كنتم﴾ الحجر ٧١، و﴿لذكري إنّ﴾ طه ١٤، ١٥، و ﴿عيني إذ﴾ طه ٣٩، ٤٠، و ﴿برأسي إن﴾ طه ٩٤، و ﴿يا عبادي إنكم﴾ الشعراء ٥٢، و ﴿لأبي إنه﴾ الشعراء

(١) ينظر : غاية الاختصار ١ / ٣٤٦-٣٤٧، الكنز ١ / ٣٦٧-٣٦٨، النشر ٢ / ١٦٧-١٦٨ .

٨٦،و ﴿ من بعدي إنك ﴾ ص ٣٥، و ﴿ لعنتي إلى ﴾ ص ٧٨، و ﴿ أمري إلى الله ﴾ غافر ٤٤، و ﴿ رسلي إن الله ﴾ المجادلة ٢١، و ﴿ دعائي إلاّ ﴾ نوح ٦ .

فأما اختلاف القراء في ذلك [١] فإن نافعاً وأبا جعفر، وأبا عمرو فتحوا هذه الياءات، وأسكنها باقي العشرة .

إلا أنهم اختلفوا في واحد وعشرين موضعاً منها، ففتح نافع وأبو جعفر (بناتي) و (يا عبادي إنكم) و(لعنتي إلى)، وحرك نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وحفص إحدى عشرة ياءً في (أجري) في مواضعها التسعة، و﴿يدي إليك ﴾ المائدة ٢٨، (أمي إلهين)، ووافقهما ابن عامر في (أجري) و (أمي إلهين)، وحرك المدنيان وابن عامر وأبو عمرو ياءين في (توفيقي إلا)، و(حزني إلى الله)، وحرك الحجازيون وابن عامر وأبو عمرو ياءين : (آبائي إبراهيم) و(دعائي إلا)، وفتح أبو جعفر، والأزرق الياء في (إخوتي إنّ).

٣- الياء بعدها همزة مضمومة : وردت الياء قبل همزة مضمومة في موضعين [٢] هما ﴿بعهدي أوف ﴾ البقرة ٤٠، و ﴿ عذابي أصيب ﴾ الأعراف ١٥٦، وقد أجمع القراء العشرة على إسكان الياء في (بعهدي أوف) ، وأما (عذابي أصيب) ففتحها نافع وأبو جعفر، وأسكنها الباقون .

٤- الياء بعدها متحرك غير الهمزة : ورد ذلك في تسعة عشر موضعاً [٣] هي: ﴿ بيتي للطائفين﴾ البقرة ١٢٥، الحج ٢٦، و ﴿ وجهي لله ﴾ آل

---

(١) ينظر : الكنز ١ / ٣٦٨ – ٣٦٩، النشر ٢ / ١٦٧ – ١٦٨ .

(٢) غاية الاختصار ١ / ٣٣٨، ٣٥٠، الكنز ١ / ٣٧٠، النشر ٢ / ١٦٩ .

(٣) غاية الاختصار ١ / ٣٥٠ -٣٥١، الكنز ١ / ٣٧١، النشر ٢ / ١٧١ – ١٧٢ .

عمران ٢٠، و ﴿وجهي للذي﴾ الأنعام ٧٩، و ﴿صراطي مستقيما﴾ الأنعام ١٥٣، و ﴿ومماتي لله﴾ الأنعام ١٦٢، و ﴿معي بني إسرائيل﴾ الأعراف ١٠٥، و ﴿معي عدوا﴾ التوبة ٨٣، و ﴿معي صبرا﴾ الكهف ٦٨، ٧٣، ٧٦، و ﴿ورائي وكانت﴾ مريم ٥، و ﴿ذكر من معي وذكر﴾ الأنبياء ٢٤، و﴿كلا إن معي ربي﴾ الشعراء ١٢، و ﴿ومن معي من المؤمنين﴾ الشعراء ١١٨، و ﴿معي ردءاً﴾ القصص ٣٤، و ﴿أرضي واسعة﴾ العنكبوت ٥٦، و ﴿شركائي قالوا﴾ السجدة ٤٧، و ﴿بيتي مؤمناً﴾ نوح ٢٨ .

واختلف القراء في ذلك [١] ففتح هشام وحفص ياء (بيتي) في المواضع الثلاثة ووافقهما المدنيان في موضعي البقرة والحج، وفتح المدنيان، وابن عامر، وحفص ياء (وجهي) في الموضعين، وفتح ابن عامر الياء في (صراطي مستقيماً) و (أرضي واسعة) وفتح نافع وأبو جعفر ياء (مماتي لله)، وفتح حفص الياء في (معي) في مواضعها التسعة، ووافقه ورش في (ومن معي من المؤمنين)، وحرك ابن كثير الياء في (من ورائي) و(شركائي) ، واتفقوا على إسكان ما بقي .

٥- **الياء بعدها ساكن** : الياء في هذا الفرع قسمان :

أ- **ما بعدها لام تعريف** : وجاءت في عشرين موضعاً، اختلف القراء العشرة في تسعة مواضع [٢] : ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ البقرة ١٢٤، و﴿ربي الذي﴾ البقرة ٢٥٨، و ﴿حرم ربي الفواحش﴾ الأعراف ٣٣،

---

(١) الكنز ١ / ٣٧٢، النشر ٢ / ١٧٢ – ١٧٦ .

(٢) الكنز ١ / ٣٧٣، النشر ٢ / ١٧٠ .

و﴿ عن آياتي الذين ﴾ الأعراف ١٤٦، و ﴿ عبادي الذين ﴾ إبراهيم ٣١، العنكبوت ٥٦، الزمر ٥٣، و ﴿ عبادي الصالحون ﴾ الأنبياء ١٠٥، و﴿عبادي الشكور ﴾ سبأ ١٣، فسكن حمزة الياء في المواضع كلها، ووافقه حفص في (عهدي)، وابن عامر في (آياتي)، وابن عامر والكسائي و رَوْح في (قل لعبادي) في إبراهيم، وأبو عمرو، ويعقوب والكسائي وخلف في (يا عبادي) في العنكبوت .

واتفقوا على فتح الياء في أحد عشر موضعاً [(١)] هي : ﴿ نعمتي التي ﴾ البقرة ٤٠، ٤٧، ١٢٢، و ﴿ إن وليي الله ﴾ الأعراف ١٩٦، و ﴿ حسبي الله ﴾ التوبة ١٢٩، الزمر ٣٨، و ﴿ شركائي الذين ﴾ النحل ٢٧، الكهف ٥٢، القصص ٦٢، ٧٤، و ﴿ ربّي الله ﴾ غافر ٢٨ .

ب – ما بعده همزة وصل ليست ألف (أل) : والوارد من هذا النوع خمسة مواضع [(٢)] في ﴿ هارون أخي * اشدد به ﴾ طه ٣٠ – ٣١، و ﴿واصطنعتك لنفسي * اذهب ﴾ طه ٤١ – ٤٢، و ﴿ لا تنيا في ذكري * اذهبا ﴾ طه ٤٢ – ٤٣، و ﴿ إنّ قومي اتخذوا ﴾ الفرقان ٣٠، و ﴿ من بعدي اسمه أحمد ﴾ الصف ٦ .

وهي عند ابن عامر أربعة لقراءته ﴿ هارون أخي * أشدد ﴾ بقطع الهمزة[٣] .

فأما اختلاف القراء في ذلك فإن ابن كثير، وأبا عمرو فتحا الياء في ﴿ أخي

(١) غاية الاختصار ١ / ٣٣٦، النشر ٢ / ١٦٢ .

(٢) غاية الاختصار ١ / ٣٣٤، الكنز ١ / ٣٧٤، النشر ٢ / ١٧١ .

(٣) الكنز ١ / ٣٧٤، النشر ٢ / ١٧١، ٣٢٠

* أشدد ﴾ ، وفتح ياء ﴿ قومي ﴾ المدنيان، وأبو عمرو، والبزيّ، ورَوْح، وحرك الحجازيون وأبو عمرو ياء ﴿ لنفسي ﴾ و ﴿ ذكري ﴾، وحرك الحجازيون، والبصريان، وأبو بكر الياء في ﴿ من بعدي اسمه ﴾ .

القسم الثاني : ما اختلف فيه في حذف الياء وإثباتها :

قسم علماء القراءات ما جاءت فيه ياء المتكلم قسمين :

الأول – في غير النداء [1] : وهو نوعان :

١ – **الياء التي بعدها ساكن** : والوارد من هذا متصلاً بالأسماء موضع واحد في ﴿ فبشر عباد * الذين ﴾ الزمر ١٦ – ١٧ .

واختلف القراء فيه فأثبت الياء فيها مفتوحة في الوصل نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وحفص، ورويس، وحذفها باقي العشرة في الوصل، أما في الوقف فأثبتها يعقوب، وقنبل في رواية، واختلف عن أبي عمرو، وقالون، وحفص، فروى عنهم الوقف بالياء بعض العلماء، وروى آخرون عنهم الحذف [2] .

٢ – **الياء التي بعدها متحرك** : وردت هذه الياء في اثنين وعشرين موضعاً[3] كلهن رؤوس آي، وذلك في ﴿ متاب ﴾ الرعد ٣٠، و ﴿ مآب ﴾ الرعد ٢٩، و ﴿ عقاب ﴾ الرعد ٣٢، ص ١٤، غافر ٥، و ﴿ وعيد ﴾ إبراهيم ١٤، ق ١٤، ٤٥ و ﴿ دعاءِ ﴾ إبراهيم ٤٠، و ﴿ نكير ﴾ الحج ٤٤، سبأ

---

(١) ينظر : غاية الاختصار ١ / ٣٥٥، النشر ٢ / ١٧٩ – ١٨٠ .

(٢) غاية الاختصار ١ / ٣٦٥، النشر ٢ / ١٨٧ – ١٨٨ .

(٣) غاية الاختصار ١ / ٣٦٩، الكنز ١ / ٣٨٦ – ٣٨٧، النشر ٢ / ١٨١ – ١٨٢ .

٤٥، فاطر ٢٦، الملك ١٨، و ﴿عذابِ﴾ ص ٨، و ﴿نذر﴾ القمر ١٦، ١٨، ٢١، ٣٠، ٣٧، ٣٩، و﴿نذير﴾ الملك ١٧، و﴿لي دينِ﴾ الكافرون ٦ .

واختلف القراء العشرة في هذه الياءات، فأثبت يعقوب الياء في الوقف والوصل، ووافقه ورش وصلاً في ثلاثة عشرة ياءً في (وعيد) الثلاث، و(نكير) الأربع، و (نذر) في مواضعها الستة، ووافقه في (دعاءِ) في الوصل أبو عمرو، وحمزة، وأبو جعفر، وورش، ووافقه في هذا الموضع البزّيّ في الحالين [1] .

القسم الثاني – في النداء :

وردت هذه الياء في مائة وخمسة عشر [2] موضعاً اتفق القراء على حذف الياء في مائة واثني عشر موضعاً وذلك في (ربِّ) في مواضعها الخمسة والستين إلا في ﴿رب احكم﴾ في الأنبياء ١١٢، و ﴿يا رب﴾ في موضعين الفرقان ٣٠، والزخرف ٨٨، و(يا قوم) في ستة وأربعين موضعاً، واختلفوا في ثلاثة مواضع : ﴿يا عباد الذين﴾ الزمر ١٠، و ﴿يا عباد فاتقون﴾ الزمر ١٦، و ﴿يا عباد لا خوف عليكم﴾ الزخرف ٦٨، فأثبت الأهوازيّ الياء في ﴿يا عباد الذين﴾، وأثبت رويس الياء في ﴿يا عباد فاتقون﴾ و ﴿يا عباد لا خوف عليكم﴾ وذلك في الوقف والوصل، ووافقه في الأخيرة نافع، وأبو جعفر، وابن عامر، وأبو عمرو، وأبو بكر في الوصل، إلا أن أبا بكر يحرك الياء بالفتح .

(١) الكنز ١ / ٣٨٧–٣٨٨، النشر ٢ / ١٩٠ .

(٢) ينظر : غاية الاختصار ١ / ٣٥٥، النشر ٢/ ١٧٩ – ١٨٠ .

نداء الأب والأمّ مضافين إلى ياء المتكلم :

في هذين اللفظين عند ندائهما مضافين إلى ياء المتكلم عشر لغات [1] يختصان منها بأربع لغات، ويشاركان غيرهما في اللغات الست السابق ذكرها [2] .

واللغات الأربع التي يختصان بها :

١- تعويض تاء التأنيث عن ياء المتكلم وكسرها : (يا أبتِ، ويا أمَّتِ) ؛ وهذا الوجه هو الأكثر .

٢- تعويض تاء التأنيث عن ياء المتكلم وفتحها : (يا أبتَ ويا أمّت) وهذا الوجه هو الأقيس.

٣- تعويض تاء التأنيث عن ياء المتكلم وضمها (يا أبتُ ويا أمّتُ) وذلك على التشبيه بنحو هِبة، و ثُبة، وهو شاذ .

٤- قلب ياء المتكلم ألفاً، وزيادة التاء (يا أبتا ويا أمَّتا) قال ابن هشام : "سبيل ذلك الشعر " [3] ؛ وذلك لما فيه من جمع بين العوض وهو التاء، والمعوض وهو الألف المنقلبة عن ياء المتكلم.

اختلاف القراء :

ورد لفظ الأب مضافاً إلى الياء في ثمانية مواضع : في يوسف ٤، ١٠٠، ومريم ٤٢، ٤٣، ٤٤ ، ٤٥، والقصص ٢٦، واقتصر القراء العشرة على

---

(١) شرح الكافية الشافية ١٣٢٧، المساعد ٢ / ٥٢١ – ٥٢٢، أوضح المسالك ٤ / ٣٧ .

(٢) ص ١٤-١٥ .

(٣) أوضح المسالك ٤ / ٣٨ .

وجهين من العشرة، فقرأ (يا أبتَ) بفتح التاء في جميع المواضع أبو جعفر، وابن عامر، وقرأ باقي العشرة (يا أبتِ) بكسر التاء في المواضع كلها [١].

هذا في الوصل، أما في الوقف فوقف عليها بالهاء خلافاً للرسم ابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب، ووقف الباقون بالتاء على الرسم[٢] .

نداء (ابن أمي) :

إذا نودي ابن الأم وابن العم مضافين إلى ياء المتكلم ففيها أربعة أوجه[٣]:

١ – حذف الياء وبقاء الكسرة دليلاً عليها : (يا ابن أمِّ) و (يا أبن عمِّ) .

٢ – إبدال الياء ألفاً وحذفها، وبقاء الفتحة دليلاً عليها فيقال : يا ابن أمَّ، ويا ابن عمَّ .

٣- إثبات الياء إما ساكنةً أو متحركة، وهذا الوجه قليل حتى إن بعضهم قصره على ضرورة الشعر ومنه قول أبي زبيد الطائي :

يا ابن أمّي ويا شُقِّيق نفسي　　　أنت خليتني لدهر شديد [٤]

٤ – قلب الياء ألفاً، وهذا الوجه كسابقه في القلة وشاهده قول أبي النجم :

يا ابنة عمّا لا تلومي واهجعي [٥]

(١) غاية الاختصار ١ / ٣٥٨، النشر ٢ / ٢٩٣ .

(٢) غاية الاختصار ١ / ٣٥٨، النشر ٢ / ١٣١ .

(٣) ينظر : شرح الكافية الشافية ١٣٢٥، أوضح المسالك ٤ / ٣٨ – ٣٩، المساعد ٢ / ٥٢٠ – ٥٢١ .

(٤) الكتاب ٢ / ٢١٣، الجمل ١٧٣، أمالي ابن الشجري ٢ / ٢٠ .

(٥) شرح الكافية الشافية ١٣٢٦، أوضح المسالك ٤ / ٣٩، المساعد ٢ / ٥٢١ .

اختلاف القراء :

ورد (ابن أمي) في القرآن منادى في موضعين : الأعراف ١٥٠، وطه ٩٤، والقراء متفقون على حذف الياء، إلا أنهم اختلفوا في حركة الميم، فقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وأبو بكر بكسر الميم في الموضعين، وقرأ الباقون بفتحها [١] .

نداء (بني) :

لفظ (بنيّ) تصغير لـ (ابن) على غير قياس، وقياسه في إضافته إلى ياء المتكلم قياس الصحيح فيقال : بُنَيِّي مثل صَبيِّي، إلا أن العرب في نداء هذا اللفظ وما يماثله في كون آخره ياءً مشددة يقولون (يا بنيَّ) و (يا بنيِّ)، فالفتح على وجهين :

أحدهما – أن تكون ياء المتكلم أبدلت ألفاً، ثم التزم حذفها ؛ لأنها بدل مستثقلٍ .

الثاني – أن تكون ثانية ياءي (بنيّ) حذفت، ثم أدغمت أولاهما في ياء المتكلم ففتحت ؛ لأن أصلها الفتح [٢] " .

وأما الكسر فعلى " التزام حذف ياء المتكلم فراراً من تولي الياءات مع أن الثالثة كان يُختار حذفها قبل وجود الثنتين، وليس بعد اختيار الشيء إلا لزومه " [٣] .

---

(١) النشر ٢ / ٢٧٢ .

(٢) شرح الكافية الشافية ١٣٢٤ .

(٣) شرح الكافية الشافية ١٣٢٤ .

اختلاف القراء :

وردت لفظ (يا بنيّ) في ستة مواضع : هود ٤٢، يوسف ٥، ولقمان ١٣، ١٦، ١٧، والصافات ١٠٢، وقد قرأ حفص (يا بُنَيَّ) بفتح الياء في جميع المواضع، وقرأ أبو بكر بالفتح في (هود)، وابن كثير في رواية البزِّي ﴿يا بنيْ لا تشرك﴾ لقمان ١٣، ساكنة الياء و﴿يا بنيِّ إنها﴾ لقمان ١٦ مكسورة الياء، و﴿يا بنيَّ أقم الصلاة﴾ لقمان ١٧ مفتوحة الياء، وباقي العشرة (يا بنيِّ) بالكسر في جميع المواضع [1] .

القسم الثاني : المقصور وما في حكمه:

ويشمل المثنى المرفوع مثل يداي، والملحق به مثل ثنتاي، والمقصور نحو: عصاي، وأكثر العرب يبقون الألف على حالها، ويفتحون ياء المتكلم فيقولون (عصايَ ويدايَ)[2]، وسمع فيه ثلاث لغات أخر :

١- سكون الياء : عصايْ ويدايْ [3] .

٢- كسر الياء عصايِ ويدايِ [4]، وضعف ابن مالك هذه اللغة[5]، وقد قرأ الحسن وأبو عمرو في شاذِّهِ (عصايِ) بالكسر [6] .

٣- لغة هذيل المشهورة في المقصور دون المثنى، بقلب الألف ياءً وإدغامها

(١) ينظر : المبسوط في القراءات العشر ٢٣٩، ٣٥٢، الكنز ٢ / ٥٠٦، النشر ٢/ .

(٢) شرح الكافية الشافية ١٠٠٣، ارتشاف الضرب ٢ / ٥٣٧، الهمع ٤ / ٢٩٨ .

(٣) ارتشاف الضرب ٢ / ٥٣٧، المساعد ٢ / ٣٧٩ .

(٤) شرح الكافية الشافية ١٠٠٨، المساعد ٢ / ٣٧٩، الهمع ٤ / ٢٩٩ .

(٥) شرح الكافية الشافية ١٠٠٨ .

(٦) النشر ٢ / ٢٦ .

في الياء [١]، ومنه قول أبي ذؤيب :

سبقوا هَوَيّ وأعنقوا لهواهمُ فتُخُرِّموا هواء لكل جنب مصرعُ [٢]

ويستثنى من الأسماء المقصورة (لدى) فهي تعامل معاملة (إلى) و(على) كما سبق [٣] .

اختلاف القراء :

وردت ياء المتكلم بعد ألف في غير (لدى) في أحد عشر لفظاً منها ثلاثة مختلف فيها أولها ﴿ محياي ﴾ الأنعام ١٦٢، وهذه الياء أسكنها المدنيان نافع وأبو جعفر، وفتحها باقي العشرة[٤]، و ﴿ يا بشراي ﴾ يوسف ١٩، بياء مفتوحة عند العشرة إلا أهل الكوفة، حيث قرؤوا ﴿ يا بشرى ﴾ بلا إضافة [٥]و ﴿ يا حسرتايَ ﴾ الزمر ٥٦، عند أبي جعفر حيث قرأ بياء مفتوحة بعد الألف، وباقي العشرة ﴿ يا حسرتى ﴾[٦]، وثمانية مواضع لم يختلف في فتح يائها [٧]، وذلك في (هُداي) البقرة ٣٨، طه ١٢٣ ، و (إياي) البقرة ٤٠،٤١ ، الأعراف ١٥٥، و (فإياي) النحل ٥١، العنكبوت ٥٦، و(رؤيايَ) يوسف٤٣، ١٠٠، و(مثواي) يوسف٥٣، و(عصاي) طه ١٨.

---

(١) شرح الكافية الشافية ١٠٠٤، شرح ابن الناظم ٤١٥، أوضح المسالك ٢ / ٤٠٠ .

(٢) المفضليات ٤٢١، شرح المفضليات للأنباري ٨٥٤ .

(٣) ص ٣٠ .

(٤) غاية الاختصار ١ / ٣٣٣، النشر ٢ / ١٧٦، ٢٦٧ .

(٥) غاية الاختصار ١ / ٣٣٣، النشر ٢ / ٢٩٣ . وفي هذا قراءة شاذة مروية عن الحسن هي ﴿ يا بشريّ ﴾ بتشديد، الياء، وحملت على لغة هذيل السابقة .

(٦) غاية الاختصار ١ / ٣٣٣، النشر ٢ / ٣٦٣ .

(٧) النشر ٢ / ١٦٢ .

القسم الثالث – المنقوص :

وهو ما ختم بياء خفيفة مكسور ما قبلها، وحكمه أن تدغم ياء المنقوص في ياء المتكلم وتفتح ياء المتكلم فيقال : مناديَّ، وقاضيَّ [١]، وهذا القسم لم يرد منه شيء في القرآن .

القسم الرابع : المثنى المنصوب والمجرور، وجمع المذكر السالم :

المثنى، وجمع المذكر السالم المنصوبان والمجروران تحذف نونهما لأجل الإضافة، ثم تدغم ياؤهما في ياء المتكلم فيقال قابلت صديقيَّ، وتكلمت مع ضيْفَيَّ، وقابلت زائرِيَّ، وتحدثت إلى مستمِعيَّ، أما الجمع السالم المرفوع فتحذف نونه للإضافة، وتقلب واوه ياءً، وتدغم في ياء المتكلم، فيقال : حضر زائرِيَّ [٢] أما ياء المتكلم ففيها لغتان :

١ – الفتح [٣] كما في ضبط الأمثلة السابقة .

٢ – الكسر [٤]، وهي لغة قليلة حكاها أبو عمرو بن العلاء، والفراء، وقطرب، فيقال : قابلت صديقيِّ ، وتحدثت إلى مستمِعيِّ، وحضر زائريِّ .

اختلاف القراء :

ورد من المثنى ثلاثة ألفاظ في خمسة مواضع ﴿إحدى ابنتيَّ﴾ القصص ٢٧، و ﴿لوالديَّ﴾ إبراهيم ٤١، نوح ٢٨، و ﴿على والديَّ﴾ النمل

---

(١) شرح الكافية الشافية ١٠٠٢ – ١٠٠٣، ارتشاف الضرب ٢ / ٥٣٧، المساعد ٢ / ٣٧٨ .

(٢) المساعد ٢ / ٣٧٨، الهمع ٤ / ٢٩٨ .

(٣) شرح الكافية الشافية ١٠٠٦، ارتشاف الضرب ٢ / ٥٣٦ – ٥٣٧، المساعد ٢ / ٣٧٨ .

(٤) شرح الكافية الشافية ١٠٠٦، ارتشاف الضرب ٢ / ٥٣٦ – ٥٣٧، المساعد ٢ / ٣٧٨ .

١٩، و ﴿ خلقت بِيَدَيَّ ﴾ ص ٧٥، ومن الجمع لفظان في خمسة مواضع ﴿يا بَنيَّ ﴾ البقرة ١٣٢، يوسف ٦١، ٨٧، و ﴿ اجنبني وبَنِيَّ ﴾ إبراهيم ٣٥، و ﴿ وما أنتم بمصرخيّ ﴾ براهيم ٢٢، والقراء العشرة يفتحون هذه الياء في كل مواضعها إلا أن حمزة انفرد بكسر ياء (بمصرخيِّ)(١)، إ وقد ضعف هذه القراءة جماعة، بل إن الكسائي قال :" كان نصير النحويّ يحمل قراءة حمزة على اللحن، وكان أهل النحو يحسبونه من حمزة غلطاً "(٢).

وضعفها الزمخشري٣ " وهي لغة بني يربوع، نص على ذلك قطرب، وأجازها هو والفراء، وإمام اللغة والنحو والقراءة أبو عمرو بن العلاء، وقال القاسم بن معن النحويّ : هي صواب، ولا عبرة بقول الزمخشري وغيره ممن ضعفها، أو لحنها، فإنها قراءة صحيحة اجنمعت فيها الأركان الثلاثة، وقرأ بها أيضاً يحيى بن وثاب، وسليمان بن مهران الأعمش، وحمران بن أعين، وجماعة من التابعين، وقياسها في النحو صحيح ... "(٤).

هاء السكت بعد ياء المتكلم :

تجتلب هاء السكت عند الوقف في مواضع منها أن تكون بعد كل مبنيّ على حركة بناءً دائماً، ولم يشبه المعرب كياء المتكلم(٥)، ومن شواهده قوله تعالى ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ الحاقة ١٩ – ٢٠ .

---

(١) غاية الاختصار ١ / ٣٣٣، النشر ٢ / ١٦٢، ٢٩٢ .

(٢) ارتشاف الضرب ٢ / ٥٣٧ .

(٣) الكشاف ٣ / ٣٧٥ .

(٤) النشر ٢ / ٢٩٨ – ٢٩٩ .

(٥) شرح الكافية الشافية ١٩٩٨، أوضح المسالك ٤ / ٣١٣ .

اختلاف القراء :

وردت هـاء الـسكت بعـد يـاء المـتكلم في (كتابيـه) الحاقـه ١٩، ٢٥، و(حسابيه) الحاقه ٢٦،٢٠، و (ماليـه) الحاقـه ٢٨ ، و (سـلطانيه) الحاقـه ٢٩، وقرأ يعقوب بحذف الهاء في الوصل، ووافقه حمزة في ﴿ما أغنـى عنّـي ماليه ❁ هلك عني سـلطانيه﴾ الحاقـة ٢٨ – ٢٩، والبـاقون بإثبـات الهـاء في الوصل، ولا خلاف في إثباتها عند الوقف [١] .

وإثبات الهاء في الوصل يحمل على إجراء الوصل مجرى الوقف .

---

(١) المبسوط ٤٤٤ – ٤٤٥، الكنز ٦٩١، النشر ٢ / .

الخاتمة

حاولت في هذا البحث الجمع بين ما ذكره النحويون في ياء المتكلم، وما أثر عن القراء العشرة من خلاف في هذه الياء إثباتاً وحذفاً، وتخفيفاً وحركة.

ومن خلال هذا البحث تبين أن للقراء العشرة مذاهب لا يخالفونها إلا نادراً في بعض الأبواب، نحو مذهبهم في الياء بعدها همزة مفتوحة، والياء بعدها همزة مكسورة، وأن خلاف القراء لم يخرج عن القواعد التي ارتضاها النحويون، لكنهم لم يقرؤوا بكل الأوجه المأثورة عن العرب .

ومن خلال هذا البحث تبين لي أن تقسيم علماء القراءات لاختلاف القراء مبني على الحرف الذي بعدها ؛ أما النحويون فنظروا إلى أن الياء تتأثر بما قبلها أكثر مما تتأثر بما بعدها، فمثلاً إذا سبقت ب (إنّ) أو إحدى أخواتها فلا يجوز حذفها مع اختلاف ما بعدها .

واختلاف القراء محتاج إلى دراسةٍ صوتيةٍ معمقه تحلل أوجه الخلاف والاتفاق بين القراء ، وتبين أسبابها، وتدرس الظواهر الصوتية في هذه الياء.

آمل أن أكون قدمت لقارئ هذا البحث مفتاحاً لفهم هذا الموضوع، والإحاطة بتفاصيله .

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المصادر والمراجع

- ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان، تحقيق : د.مصطفى أحمد النماس، نشر : المكتبة الأزهرية – ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م .
- الأصول لابن السراج، تحقيق : د. عبد الحسين الفتلي، الطبعة الأولى – ١٤٠٥هـ .
- الإقناع لأحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري بن الباذش، تحقيق : عبد المجيد قطامش، الناشر: جامعة أم القرى، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ
- أمالي ابن الشجري، تحقيق : د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م
- الإنصاف في مسائل الخلاف – لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق : محيي الدين عبدالحميد . الطبعة الرابعة –١٣٨٠هـ .
- أوضح المسالك، لابن هشام، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية – بيروت –١٤١٧هـ .
- إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز لشمس الدين القباقبي، تحقيق :أحمد خالد شكري
- البحر المحيط لأبي حيان، نشر : مكتبة النصر الحديثة – الرياض .
- التبصرة في القراءات لمكي بن أبي طالب، تحقيق د . محيي الدين رمضان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ .
- تعليق الفرائد، للدماميني، تحقيق : د. محمد المفدّى، الطبعة الأولى – ١٤٠٣هـ.

- الخصائص لأبي الفتح بن جني ، تحقيق : محمد علي النجار نشر دار الكتاب العربي .
- الدر المصون للسمين الحلبي، تحقيق : د . أحمد الخراط، ط١ – ١٤٠٧هـ.
- شرح الألفية، لابن جابر الهواري الأندلسي، تحقيق : د. عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، المكتبة الأزهرية للتراث –١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م .
- شرح الألفية، لابن الناظم، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل –بيروت .
- شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق : د . عبد الرحمن السيد، و د .محمد بدوي المختون، ط١ – ١٤١٠هـ .
- شرح الكافية الشافية لابن مالك، تحقيق : د . عبدالمنعم هريدي، نشر: جامعة أم القرى .
- شرح المفصل لابن يعيش، نشر : عالم الكتب – بيروت .
- عمدة المتعلم في أحكام المضاف إلى ياء المتكلم لعبدالله بن درويش السكري، تحقيق : د. بدر بن ناصر البدر، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .
- غاية الاختصار في قراءات العشرة أئمة الأمصار، لأبي العلاء الحسن بن أحمد الهمذاني العطار، تحقيق : د. أشرف محمد فؤاد طلعت، نشر: الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة
- الكنز في القراءات العشر لعبد الله بن عبد المؤمن الواسطي، تحقيق : د. خالد المشهداني، نشر : مكتبة الثقافة الدينية .

- المبسوط في القراءات العشر لابن مهران، تحقيق : سبيع حمزة حاكمي، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ .
- المحتسب لابن جني تحقيق علي النجدي ناصف وزميليه، نشر : لجنة أحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٦هـ .
- المساعد على تسهيل الفوائد، لابن عقيل، تحقيق: د . محمد كامل بركات،نشر : جامعة أم القرى – ١٤١٠هـ .
- معاني القرآن، للفراء، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ - عالم الكتب – بيروت.
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري، تصحيح علي محمد الضباع، طبع دار الكتاب العربي .
- همع الهوامع، للسيوطي،تحقيق : د . عبدالعال سالم مكرم، طبع : دار البحوث العلمية – الكويت .

مطابع الحميضي ت/ ٢١٣٠١٣٠ف / ٤٣٨٧٨١٧